جائزة الطيب صالح للعمل الروائي الأول

أحمد رشاد مكيوي

في قبري ثلاث بيضات

رواية

دار الشروق

مكتبة ياسمين

يسعدنا انضمامكم إلى قناة

معكم نكبر ونستمر بكل جديد

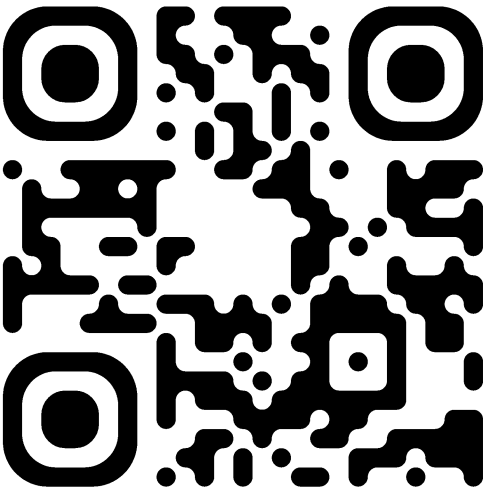

في قبري
ثلاث بيضات

telegram
@yasmeenbook

في قبري ثلاث بيضات

أحمد رشاد مِكّيوي

الطبعــة الأولى ٢٠٢٦

تصنيف الكتاب: أدب/ رواية

تصميم الغلاف: هاني صالح

لوحة الغلاف للفنان حلمي التوني

رقـم الإيداع ٢٠٢٥/٣٦٨٥٠
ISBN 978-977-09-4031-0

© دار الشروق

٧ شــارع سيبويــه المصــري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

/dar.elshorouk /Darelshorouk

رشاد مكيوي، أحمد،
في قبري ثلاث بيضات/ أحمد رشاد مكيوي
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٢٥
٢٥٤ ص، ٢٠سم
تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٤٠٣١٠
رقم الإيداع ٢٠٢٥/٣٦٨٥٠
١- القصص العربية أ. العنوان ٨١٣

أحمد رشاد مكيوي

في قبري ثلاث بيضات

دار الشروق

إهداء إلى

الفنانة التشكيلية: سارة محمود الفزايري

موسيقار المستقبل: محمود أحمد رشاد

الممثل الفنان: رشاد رشدي

الزوجة، والابن، والأخ: يومًا ما سيكون لكم شأنٌ

١

أُحبُّ البيض.

في صِغري كنتُ أستيقظُ مبكرًا، فأَجدُ كوبًا من الحليبِ الساخنِ وبيضتينِ إلى جواري، كانتْ تلكَ الوجبةُ من المقدساتِ في بيتِنا.

البيضةُ مخلوقٌ عجيبٌ، لا أعلمُ كيفَ يمكنُ لشيءٍ أن يصيرَ كائنًا حيًّا لمجرَّدِ أنَّ أمَّهُ حنونٌ؟! بقُربِها يصيرُ كتكوتًا ذا أعضاءٍ، حيًّا يُرزَقُ، جوارحُه دافئةٌ، تنبعثُ منه رائحةُ الحياةِ، وببُعدِها يُصبحُ سائلًا لزجًا ذا رائحةٍ كَريهة.

هكذا تُعاقَبُ البيضةُ على جريمةِ أُمِّها.

في المدرسةِ، حينما كنتُ أتعلمُ الأشكالَ الهندسيةَ سألتُ معلمةَ الحسابِ «مِس سعاد»: كيفَ أفرِّقُ بينَ المربعِ والمستطيلِ؟ أجابتني بأنَّ المربعَ تتساوى أضلاعُهُ الأربعةُ، أمَّا المستطيلُ فكلُّ ضلعينِ متقابلينِ متساويانِ، وحينما سألتُها: كيفَ أتعرَّفُ على الشكلِ البيضاوي؟ أجابتْ: إنه يُشبِهُ البيضةَ.

لعلَ البيضَ شيءٌ هامٌّ حقًّا، كما كانت تُخبرُني أُمِّي.

لكنْ مَهلًا... مَن قالَ إنِّي أُحبُّه؟!

حينما أُقرُّ بحُبي له أجدُ صوتًا داخليًّا يهمسُ لي بعكسِ ذلك، يُلحُّ عليَّ حتى أُصدقَه، ثمَّ أعودُ لتقريرِ حُبِّي من جديدٍ، وهكذا على مدارِ عُمري.

لعلي أحبُّ البياضَ؛ فهوَ سهلُ البَلعِ، أمَّا الصفارُ فرائحتُهُ كريهةٌ، وصعبُ البَلعِ؛ لذلك كنتُ أتخلَّصُ منهُ بعدَ اللعبِ به، أرسمُ دائرةً على البلاطِ ببقايا الطباشيرِ التي أجمعُها من فصلِنا، ثمَّ أدحرجُهُ نحوَها كأنَّه «بِلي». وحينما أمَلُّ أسحقُهُ بيدي، أَفرُكُه بين راحتَيَّ حتى يصيرُ ترابًا. تنهرُني أمِّي، وتعاقبُني أحيانًا؛ لِتلويثي الأرضيَّةَ، أو ملاءةَ السريرِ، وتكافِئُني حينما آكلُهُ دونَ أن يتناثرَ فتاتُهُ خارجَ الطبق.

يذكِّرُني صفارُ البيضِ المتماسكُ بأبي؛ فمظهرُهُ الخارجيُّ يدلُّ على صلابةٍ ما، واختفاؤه داخلَ البياضِ يُوحي بالغموضِ. في يومٍ من أيامِ صِباي، حينما مارستُ هوايتي في تفتيتِ صفارِ البيضِ بينَ راحَتَيَّ، ظننتُ أنَّ لصلابةِ أبي قُدرةً مشابهةً على التَّفتتِ؛ لكنني كنتُ مخطئًا؛ فصفارُهُ باتَ صلبًا إلى الأبدِ. أمَّا ذلكَ الصفارُ المائعُ داخلَ «البيض البرشت»، فهو أشبه ما يكون بي؛ ضعيفٌ، مائعٌ، دائمُ التأرجُح، بشَكَّةٍ صغيرةٍ يسيلُ ما بداخلِه، ويتحطمُ إطارُه، ولم تكن أُمي إلا البياض.

يؤرِّقُني موضوعُ البيضِ هذا!

أتذكَّرُ تاريخي معهُ جيدًا، كانت أمي تقفُ يوميًّا جوارَ البَيضتين، تنظرُ إليَّ متوعدةً دونَ أنْ تتحدثَ، كنتُ أعلمُ مصيري حالَ امتناعي عن تناولِه، فيدفعُني خوفي لابتلاعِه، حتى تعوَّدتُ عليه. وفي يومٍ منَ الأيامِ القليلةِ التي يكونُ بها أبي في المنزل صباحًا، ومعَ انشغالِ أمي بأوامرِه، نسيَتْ روتينَ البيضِ اليومي، وضعَتْ طبقَ البيضِ جواري، ثمَّ هرولتْ لاستكمالِ طلباتِه، فتكاسلتُ عن تناولِه، أو ربما توهمتُ قدرتي على التحررِ منه، لاحظَ أبي، واتهمَها بالتقصيرِ، فدافعَتْ عن نفسِها بأنني أُعذبُها، ولا أتناولُهُ إلَّا بـ(طلوعِ الروح)، انتهزها فرصةً ليثبتَ كفاءتَه، ويؤكدَ تقصيرَها، دخلَ غرفتي وأغلقَ البابَ خلفَه، ودفعَهُ ظنُّهُ بمقاومتي إلى مخاطبتي بحِدةٍ: «ما اسمعش صوتك... هتاكل من سكات»، وقبلَ أن أردَّ ضغطَ على فكي بعنفٍ، وأدخلَ البيضةَ تِلوَ الأخرى بالإكراهِ، وخرجَ متباهيًا معلنًا انتصارَه، ثمَّ رمقَها بنظراتٍ حادة، فهمَتْ أمي مغزاها وتقبلتْها صامتةً.

بعد دقائقَ تقيأتُ بيضًا.

كلما تذكرتُ ذلكَ الموقفَ شممتُ رائحةَ البيضِ، وانتابتْني رغبةٌ في التقيؤ.

هل أحبُّ البيضَ حقًّا؟

ـ لا.

ـ نعم.

ـ ربما.

ـ لا أعلم.

ما الذي يدفعُني للكتابةِ عنِ البيض؟

أسكنُ مع بعضِ الأصدقاءِ في مكانٍ موحِشٍ، اتفقنا على أن يسطِّرَ كلٌّ منا تاريخَه، فقادني القلمُ إلى الكتابةِ عن البيض.

حسنًا، كفانا بيضٌ. لِأكتبْ شيئًا عن حياتي.

٢

كنتُ صغيرًا حينما رأيتُ الأملَ أزرقَ.

في صبيحةِ يومِ الثامنَ عشرَ من سبتمبرَ، عامَ ١٩٨٧، دخلتُ من بابِ مدرستي مُطرقًا، مقطَّبَ الجبينِ، هِمتُ على وجهي حتى وصلتُ بطريقةٍ آليةٍ إلى مكانِ فصلي ـ رابعة أول ـ في الطابورِ، أسفلَ العلمِ مباشرةً. الجوُّ باردٌ قليلًا، ودفءُ مخدعي لم يَزلْ يراودُني بحسرةٍ.

كانتِ الشمسُ تتوارى خلفَ السحبِ خجلًا، والعَلمُ مرفوعَ الرأسِ، يتباهى بعظمتِه، على الرغمِ من أن رفرفتَهُ الدؤوبةَ لا تؤدي إلى طيرانِه، أفكِّرُ: ربما لم يكنْ صوتُ رفرفتِه القويُّ إلا استغاثةً يطلقُها إلى الوجودِ من حولِه، وفي موضعٍ آخرَ حينما كانت تهدأُ حركتُه، وتقفُ على رأسِهِ تلكَ الحمامةُ البيضاءُ التي سميتُها «حلم»، ربما كانَ يقصُّ عليها قصتَه: «لقد عشتُ عمري كلَّهُ في صندوقٍ ورقيٍّ مظلمٍ متسائلًا: هل يُوجدُ عالمٌ غيرُ الذي أسكنُه؟ وهل هناكَ حدودٌ أرحبُ من حدودي؟ كانتِ الأصواتُ

الخارجيةُ التي أسمعُها أحيانًا تردُّ على سؤالي بالإيجابِ؛ فيملؤني أملُ الخروجِ، وحينما يسودُ الصمتُ من جديدٍ، أعودُ لأتساءلَ: هل ما سمعتُ حقيقةٌ أم سرابٌ؟».

«لم أصدقْ عينَي حينما رأيتُ النورَ أولَ مرةٍ بينما كانَ أحدُهم يفتحُ الصندوق. تسارعتْ دقاتُ قلبي، زاغَ بصري، اقتربَتْ يدُ إنسانٍ، حملتْني متجهةً نحوَ شيءٍ ما شاهقِ الارتفاعِ، ظللتُ مترقبًا، خافقَ القلبِ، متسائلًا من جديدٍ: ماذا يحدثُ؟ إلى أن وجدتُ حبلًا يلتفُّ حولي بينما أرتفعُ رويدًا، كادَ قلبي يتوقفُ من السعادةِ؛ اليومَ يتحققُ حُلمي، سأرفرفُ طائرًا، وأجوبُ الأرضَ شرقًا وغربًا... ساعديني يا حِلم».

بدأَ الطابورُ بكلمةٍ من مديرِ المدرسةِ، لم أعِ منها شيئًا؛ فقد كانَ خيالي محلقًا كعَلَمٍ يتذكرُ آخرَ أيامِ امتحاناتِ العامِ الماضي، يومَها لعبتُ كرةَ القدمِ مع أصدقائي في الشارعِ أمامَ بيتي حتى المغيبِ، لم أتناولْ الطعامَ، ولم أشعرْ بالجوعِ، كنتُ على استعدادٍ تامٍّ لمواصلةِ الليلِ كلِّهِ هكذا، لولا مشاجرةٌ كادتْ تحدثُ معَ «بلبل» جاري، فقد كانَ يختارُني دومًا للعبِ في فريقِه، ومع ذلكَ كانَ يسبُّني كلما ضاعتْ مني فرصةُ هدفٍ أمامَ المرمى: «أنت حمار يَلَه»، كنتُ أتمنى تسجيلَ أيِّ هدفٍ ـ فقط ـ لأتجنَّبَ شتائمَه؛ لكنْ حتى بعدما سجَّلتُ هدفًا لم أسلَمْ من لسانِه: «برضو حمار، دي أصولها ببطن الرِّجل... هي جت

معاك كده بالحظ يا كفتجي»، غضبتُ ورددتُ عليه: «إنتَ أصلًا أناني وما بتباصيش، وما بتفهمش في الكورة»، كدنا نتشابكُ لولا أن نادتْني أمي من نافذةِ البيتِ في اللحظاتِ الأخيرة.

عنفتْني:

ـ أنا مش قولتلك ما تتخانقش مع حد.

ـ بيشتمني.

ـ قوله الله يسامحك وسيبه وامشي.

ـ حاضر.

ـ بعد إيه! تكونش فاكر نفسك هتنزل تاني، ده لما تشوف حلمة ودنك.

هكذا كانت أمي تخشَى عليَّ وعلى نفسِها من الشجارِ مع أحدٍ، حتى إنْ كنا على حقٍّ؛ لأنها لم تكنْ تعلمُ كيفَ تنتزعُ ذلكَ الحقَّ، بخلافِ أبي؛ فهوَ عنيفٌ حتى في ملامحِه، معتزٌّ بقدرتِه على إثباتِ حقِّه، حتى إنْ كانَ باطلًا! لا يهمُّ؛ فالانتصارُ أهمُّ.

مرَّ يومانِ، عَفَتْ عني بعدَ أنْ استحلفتْني ألَّا أتشاجرَ معَ أحدٍ، عُدتُ للعبِ معَ بلبل، اختارني مجددًا، بل كانَ يتشاجرُ مع مَن يتحداهُ ويختارُني قبلَه، عادتِ الكَرَّةُ بيننا حتى أصبحتْ عادةً لا نخلفُها.

ابتسمتُ مغتبطًا بتذكرِ تلكَ الأيامِ السعيدةِ؛ لكنَّ الفرحةَ لم تكتملْ؛ فقد أفقتُ على صوتِ مديرِ المدرسةِ حينما ارتفعَ فجأةً

مهددًا كلَّ مَن يخالفُ التعليماتِ. صوتُهُ الجهورُ ذكَّرني بصوتِ أبي أمسِ حينما سألني بحِدةٍ متحفزًا: «حضَّرت جدول الحصص بتاع بكرة؟»، لم نكنْ قد استلمنا الجدولَ أو الكتبَ، ومع ذلكَ رددتُ عليه بالإيجاب.

إنَّ أثقلَ اللحظاتِ التي كانتْ تمرُّ عليَّ طوالَ حياتي، تلكَ التي كنتُ أعكفُ فيها على تحضيرِ جدولِ الحصصِ، حتى أوقاتُ المذاكرةِ لم تكنْ كراهيتي لها كتلك.

انتهتْ كلمةُ المديرِ، بدأَ النشيدُ الوطنيُّ الذي دائمًا ما كانتْ تصاحبُهُ كلماتٌ تشجيعيةٌ، تتردُ على لسانِ أستاذِ «مصطفى عبد العظيم»، معلمِ النشاطِ الرياضيِّ (الألعاب) بصوتِهِ الجهور.

ـ أقووى... أعلى... فووووووق.

كانَ يشعرُ بالفخرِ لتجاوبِنا مع حماسِه. بعضُ الأساتذةِ كانوا يصافحونَهُ بحرارةٍ بعدَ انتهاءِ الطابورِ، أمَّا البعضُ الآخرُ فكانَ ينظرُ إليه بتعالٍ، مهما فعلَ فهوَ بالنسبةِ لهم مجردُ مدرسِ ألعابٍ، أو رياضيٌّ فاشلٌ، لن ترتقيَ مكانتُه إلى جهابذةٍ مثلِهم.

كان الأستاذُ «عادل» مدرسُ الموسيقى ـ المُفترض ـ يدخلُ فصلَنا في جميعِ الحصصِ الاحتياطيةِ، ويسعى جاهدًا لإقناعِنا بفشلِ تلكَ الطريقةِ في الغناءِ، ويأمرُنا بغضبٍ ألَّا نتجاوبَ معَ حماسِ الأستاذِ مصطفى الزائدِ؛ لأنَّ صوتَنا يصيرُ نشازًا، نصرخُ بدلًا من أن نغني! ثمَّ يُكملُ بصوتٍ ناعمٍ: «يا ولاد أهم حاجة

في الغُنا، تناغم الصوت، وانسجامه مع اللحن والإيقاع» ثم يخشنُ صوتُه فجأةً «لكن الجاعورة اللي بتفتحوها في الحوش دي مالهاش علاقة بالغُنا». لم يكنْ يَمَلُّ منَ الحديثِ عن هذا الأمرِ، وفي بعضِ الأوقاتِ كانَ يعزفُ بالدقِّ على أحدِ المقاعدِ لحنَ النشيدِ الوطنيِّ، ثمَّ يقولُ: «قولوا ورايا يا ولاد»، فنردُ وراءَه، وبمجردِ أنْ يسمعَ صوتًا نشازًا، يخرجُ عن طورِه ويكيلُ لنا السبابَ: «حمير بتنهق... جتكم القرف»، كانَ يبذلُ قصارَى جهدِه، ومع ذلكَ كنَّا نتجاوبُ كلَّ يومٍ مع أستاذ مصطفى.

بعدَ ذلكَ تقدَّمَ ثلاثةٌ من طلابِ الكشافةِ الذين يرتدونَ شاراتٍ حمراءَ على أكتافِهم، وقبعاتٍ بيضاويةَ الشكلِ على رؤوسِهم، وقفوا أمامَ العلمِ، ثمَّ تقدَّمَ الذي يتوسطُهم خطوةً للأمام، ووضعَ يدَهُ اليُمنى فوقَ أذنِهِ مباشرةً، وبأعلى صوتٍ ردَّدَ ونحن وراءه: «تحيا جمهوريةُ مصرُ العربية» ثلاثَ مراتٍ.

قبلَ أنْ نخرجَ صفوفًا متجهينَ نحوَ الفصولِ ردَّدَ أستاذُ مصطفى في الميكروفون، بصوتٍ جهورٍ وبنغمةٍ محددةٍ ومعروفةٍ لنا مسبقًا:

ـ مدرسة صفا.

فنردُّ عليهِ محدثينَ صوتًا بأرجلِنا، وهي تُفتحُ كأنَّها أبوابُ المستقبل.

ـ مصر

ـ مدرسة انتباه.

نردُّ بالقوةِ نفسِها، بينما نغلقُ أرجُلَنا، كأنَّ أبوابَ الفشلِ تنغلقُ إلى الأبد.

ـ حرة

كانتِ «اللغةُ العربيةُ» أُولى الحصصِ لذلكَ العام، دخلتْ علينا مِس «كاميليا»، وبعدَ أن كتبَتْ تاريخَ اليومِ على السبورةِ السوداءِ المستطيلةِ، المؤطرةِ ببقايا ورقِ زينةِ العامِ الماضي، واسمَ المادةِ بالطباشيرِ الأبيضِ، التفتَتْ إلينا بخفةٍ لتكشفَ مصدرَ الشغبِ؛ لكننا بمجردِ التفاتِها عُدنا جميعًا ملتزمين. هكذا كانَ شغفُنا الدائمُ في المدرسةِ أن نشاغبَ من خلفِ ظهورِ المعلمين، وندَّعي الالتزامَ أمامَهم بسرعةٍ، ومهارةٍ فائقةٍ، إلى درجةِ أننا كنا نتباهى بتلكَ المهارةِ بينَ أنفسِنا، وإنْ كُشفَ أمرُ أحدِنا، تسارعُ البقيةُ بالسخريةِ منه: «مغفل... عبيط».

في ذلكَ اليومِ خطبتْ فينا مِس «كاميليا» خطبةً جليلةً عن معنى المسؤوليةِ؛ تمهيدًا لإخبارِنا بأننا سنكتبُ هذا العامَ بالقلمِ الجافِّ بدلًا من الرصاصِ، على عكسِ ما حدثَ خلالَ خطبةِ المديرِ، وكلِّ الخطبِ شبهِ اليوميةِ في المدرسةِ، كنتُ في كاملِ تركيزي حينما وثبَ الخبرُ بخفةٍ إلى نفسي مثيرًا ذكرياتٍ سعيدةً.

تذكرتُ أولَ يومٍ رأيتُ فيهِ القلمَ الجافَّ الأزرقَ، منذُ عامينِ في يدِ مِس «سعاد» عندما نادتْني؛ لتطلبَ شيئًا ما، فرأيتُ القلمَ بينَ أصابعها، بينما كانت تكتبُ في كشكولِ التحضير، ثبَّتُّ

نظري عليه، ولم أعُدْ أسمعُ شيئًا من حولي، رأيتُ القلمَ يخطو سريعًا على الورق، تخيلتُه راقصةَ (باليه) كتلكَ التي أشاهدُها يومَ الأربعاءِ على القناةِ الثانيةِ في برنامجِ «اخترنا لك»، غيرَ أنَّ ملابسَها ذاتَ اللونِ الورديِّ تغيرتْ لتصيرَ زرقاءَ، وترددتْ في أذني تلكَ الموسيقى الهادئةُ التي تتماهَى مع حركاتِها، تمايلتُ برأسي يَمنةً ويَسرةً مستمتعًا باللحنِ الذي يتردَّدُ صداهُ على مسامعي.

لم أفِقْ إلا حينما هزتني مِس «سعاد» من كتفي هزاتٍ عنيفةً، وهي تناديني: «عمر... عمر»، نظرتُ إليها محاولًا استيعابَ اللحظةِ، كنتُ أشبهَ بالنائمِ الذي استيقظَ لا يَعي مكانَه. عادتْ إليَّ ذاكرتي بسلامٍ، لم أكنْ قَد سمعتُ طلبَها؛ فسألتُها ببلاهةٍ: «ينفع أكتب بالقلم اللي حضرتك بتكتبي بيه؟»، فردَّتْ بحِدةٍ: «إنت لسه صغير، لما تكبر شوية»، سألتُها ثانية: «إشمعنى؟»، فزادتْ حِدتُها: «عشان القلم ده ما بيتمسحش يا لمض»، ثمَّ أمرتني بأن أعودَ إلى مكاني دونَ أن تعيدَ طلبَها المجهولَ، فكرتُ خلالَ عودتي في أن أسألَها: متى أكتبُ به؟ لكنني آثرتُ السلامةَ، وبعدَ انتهاءِ الحصةِ اقتربتُ منها، بدأتُ بمقدمةٍ طويلةٍ من الاعتذاراتِ، قاطعتْني: «اِخلص... عاوز إيه؟»، سألتُها بسرعةٍ، فأجابتْني وقد ضاقتْ بي: «سنة رابعة إن شاء الله».

اختلطَ حينَها في نفسي شعورٌ بالحزنِ وأملٌ بعيدٌ مشوَّشٌ، إلى أن كانتْ إحدى ليالي الشتاءِ اللاحقةُ، كنتُ مع أمي نشتري بعضَ الأدواتِ المدرسيةِ، رأيتُ ممحاةً مستطيلةً، نصفُها أحمرُ

ناعمٌ، والنصفُ الآخرُ أزرقُ خَشنٌ، سألتُ أمي عنها؛ فردتْ بثقةٍ وعفويةٍ بأن النصفَ الأزرقَ يمحو آثارَ القلمِ الجافِّ، نظرتُ إليها مقطبًا جبيني، عدتُ خطوةً للخلفِ وأطرقتُ متذكرًا كلامَ مِس «سعاد».

كنتُ طوالَ الطريقِ أفكِّرُ، وبعدَ أن عُدنا إلى المنزلِ قصصتُ عليها ما قالتْهُ المعلمة، وسألتُها: «هيَّ ليه خبَّت عليا إن القلم الجاف بيتمسح؟»، لكنها كانتْ شاردةً، ولم تسمعْ مما قلتُ شيئًا، فكررتُ الكلامَ نفسَهُ ثلاثَ مراتٍ، وفي آخرِها انتبهتْ فجأةً قائلةً: «هه». أعدتُ الكلامَ مرةً أخيرةً، ثمَّ ردتْ وهي تنظرُ بعيدًا عنِّي «يمكن»، لم أعِ ما تقصدُهُ بـ«يمكن» تلك، ولم أطلبْ توضيحًا، ثم سافرتُ مع خيالي الذي أخبرني بدورِهِ: «مش يمكن جومة سحرية»، بدا لي ذلكَ التفسيرُ مثيرًا ومريحًا في الوقت نفسِه.

أضعتُ ممحاتي عمدًا، واشتريتُ بدلًا منها ممحاةً سحرية، اعتدتُ أن أضعَها بجواري فأشعرُ بدنُوِّ الأمل.

بدأتْ مِس كاميليا الحصةَ بإملائِنا نشيدَ «مصر العزيزة»، كان إيقاعُها في الإملاءِ سريعًا، وكذلكَ إيقاعُ القلمِ الأزرقِ على الورقةِ، عانتْ أناملي في سبيلِ ملاحقتِها، كنتُ قادرًا على التحكمِ في إيقاعِ القلمِ الرصاصِ، أما الآنَ فأصابعي تجاهدُ على سطحِ الورقةِ، وعقلي يتمنَّى أن تبطئَ المعلمةُ، رفعتُ يدي حتى أشرحَ لها الموقفَ؛ لكنها نظرتْ إليَّ بضيقٍ وأجابت بـ«هشش»، لم أجدْ

نجدتي إلا حينما لاحظتُ الطرفَ الأزرقَ من الممحاةِ السحريةِ، يخرجُ من مقدمةِ «المقلمةِ» القماشيةِ، كأنها تناجيني بلطفٍ: «ثِق بي يا عمر»، حتى إنني تخيلتُها ذاتَ عينينِ تغمزُ لي بطرفِ إحداهما، ابتسمتُ لها، وأكملتُ الإملاء:

مصرُ العزيزةُ لي وطنْ وهيَ الحِمى وهيَ السكنْ
وهيَ الفريدةُ فى الزمنْ وجميعُ ما فيها حَسنْ
لسمائِها الصيتُ البعيدْ ولأرضِها الخصبُ المزيدْ
ولنيلِها الوافي السعيدْ كلُّ الأيادي والمِننْ

أخطأتُ كثيرًا، كتبتُ مثلًا: «وهي الشريدةُ في الزمن»، لمحتُ الخطأَ بطرفِ عيني، بينما أُواصلُ الكتابةَ، فانشغلتُ بِه؛ حتى ضلَّ قلمي الطريقَ؛ فمالتْ الكلماتُ تحتَ السطرِ؛ وارتعشتْ أناملي؛ فتعرَّجتْ خطوطُ قلمي؛ وتشوَّهتْ بعضُ الكلماتِ. وفي محاولةٍ لطمأنةِ نفسي التفتُّ حولي مراقبًا زملائي، تمنيتُ رؤيتَهم يعانونَ مثلي، كان أغلبُهم منهمكًا في الكتابةِ بجدٍ واجتهادٍ، والابتسامةُ تعلو وجوهَهُم؛ فدبَّتِ الرعشةُ في صدري، لقدْ صرتُ وحيدًا.

تنفستُ بعمقٍ محاولًا التماسكَ، وعدتُ أنصتُ للمعلمةِ، لأجدَ أن الجملةَ الأخيرةَ قد فاتتني، رفعتُ يدي لأطلبَ إعادتَها، أجابتْني بـ«هشش»؛ فاضطررتُ لغشِ بعضِ الكلماتِ، ولم أهدأْ إلَّا حينما لمحتُ بطرفِ عيني الممحاةَ السحريةَ، في الوقتِ الذي أخبرتْنا فيهِ المعلمةُ بأنها ستتركُنا ثلاثَ دقائقَ للمراجعة.

التقطُّ الممحاةَ، نظرتُ إليها، قبّلتُها بحنانٍ، شذاها طيبٌ، وألوانُها جذابةٌ، مرَّرتُها فوقَ الكلماتِ الخطأِ برفقٍ؛ لكنها لم تَمحُ أيَّ أثرٍ، نظرتُ إليها واثقًا، ومرَّرتُها على الورقةِ بقوةٍ أكبرَ، دونَ أيِّ فاعليةٍ، بدأَ الشكُ يتسللُ إليَّ، لكنني عدتُ ألصقُ بنفسي التهمَ، وأعصمُها، ثم أمحو بقوةٍ أكبرَ، حتى طُبعتْ ظلالٌ زرقاءُ على الورقة.

نظرتُ إلى الممحاةِ متوسلًا، وصدى الحقيقةِ يتمايلُ أمامي؛ لكنني أبيْتُ رؤيتَهُ، تسارعتْ دقاتُ قلبي، وارتعشتْ أطرافي، ثم جابتْ أناملي أنحاءَ الورقةِ شرقًا وغربًا على جميعِ الأخطاءِ بعنفٍ وتحدٍّ دونَ فائدةٍ، اهتزتْ يدي ومعها ثقتي بالممحاةِ السحريةِ، وبأمي، وتطورَ الأمرُ حتى باتتْ الفوضى تسكنُ أناملي لتتحركَ فوقَ الورقةِ بلا هدًى، وفجأةً... شُطرتِ الورقةُ نصفين!

لم أصدقْ عيني، لكنَّ صدى انشطارِها باتَ يترددُ في أذنَي، حتى أيقنتُ بما حدثَ، نظرتُ إليها بأسًى، ثم نظرتُ إلى المعلمةِ لأجدَها قد بدأتْ في جمعِ الكشاكيلِ من زملائي، شطبتُ على الكلماتِ الخطإِ، وكتبتُ فوقَها الصحيحَ، فعلتُ ذلكَ بسرعةٍ شديدةٍ، وما إنْ انتهيتُ حتى وقفتُ مذهولًا من شكلِ الورقةِ، فانهمرتْ دموعي تبللُها، وتلاشتْ بعضُ الحروفِ كما تلاشى إحساسي بكل شيءٍ حولي.

سلَّمتُ المعلمةَ الكشكولَ بقلبٍ وَجِلٍ، ويدٍ باردةٍ كالثلجِ، كنتُ كَمن يقفُ على حافةِ هاويةٍ، لا يفصلُ بيني وبينَ السقوطِ سوى دَفعةٍ من الخلفِ، أترقَّبُها كلما التقطتْ المعلمةُ كشكولًا أحمرَ ككشكولي، كلُّ صوتٍ يقفزُ إلى أذني أظنُّه دَفعتي المُهلِكة، كُبِّلَ عقلي، أُحيطَ بقضبانٍ حديديةٍ، حاولَ الهربَ دونَ جدوى، وقفَ مواجهًا للقضبانِ وقبضَ عليها بيديهِ، ثم أطلقَ صرخةَ استغاثةٍ لم يسمعْها أحدٌ. أمنيةٌ واحدةٌ سيطرَتْ على كلِّ حواسي؛ أنْ أتلاشى من الفصلِ، أختفي فجأةً، أُغمضُ عينَي وأفتحُهما أجدني في مكانٍ آخرَ.

تخيلتُ أنني سقطتُ من نافذةِ الفصلِ المُحطمِ زجاجُها، سقطتُ على الممرِّ الضيقِ المملوءِ بالمخلفاتِ، ذهبوا بي إلى المستشفى، التفَّ أصدقائي والمعلمونَ حولي يُواسونني، يبتسمونَ في وجهي، يُربِّتونَ على كتفي برفقٍ، دعواتٌ بالشفاءِ تسللتْ إلى سمعي، تمنيتُ أن أظلَّ مريضًا بقيةَ عمري. أفقتُ فجأةً حينما رأيتُ أن مِس كاميليا قامتْ بتصحيحِ جميعِ الكشاكيلِ إلا واحدًا ذا لونٍ أحمرَ، ملقًى بجانبِها بينما يتحدثُ إليها أحدُ زملائِها المعلمينَ الذي دخلَ للتوِّ عليها، لم أسمعْ شيئًا، لكني تخيلتُ أنَّ حديثهما سيطولُ حتى تنتهي الحصةُ فأجدَ حلًّا مناسبًا لمشكلتي، أو ربما جاءَ ليخبرَها بشيءٍ يضطرُّها للمغادرة فورًا، ربما يخبرُها بأنَّ أحدَ أفرادِ أسرتِها مريضٌ، تُغادرُ مسرعةً، وأُخبئُ كشكولي، ثم أدَّعي ضياعَه.

كلما طالَ وجودُ المدرسِ سكنتْ جوارحي، حتى اغترْتُ، واستهنتُ بالأمرِ، وظننتُ في نفسي القوةُ الكافيةُ لمواجهةِ ذلكَ الموقفِ، فتخيلتُ أنِّي أردُّ عليها بجرأةٍ موضحًا ما تعرضتُ له خلالَ الإملاءِ، بل وأتهمُها بأنَّها السببُ في كلِّ ما حدثَ، وسطَ تصفيقٍ حارٍّ من زملائي، حتى إنهم ـ بعدما خرجَتْ من الفصلِ ـ رفعوني على الأعناقِ محتفلينَ بانتصاري.

ثُبتُّ إلى نفسي حينما سمعتُ صوتَ مِس كاميليا وهي تسألُ: «مين فيكم عمر عرفان؟»، ارتبكتُ، ونظرتُ حولي أبحثُ عن مُدرِّسي المنقذِ، فلم أجدْهُ في أي مكانٍ، لُمتُه في نفسي على تخليهِ عني، ولم أجدْ بُدًا من رفعِ يدي ببطءٍ متمنيًا ألَّا تراها، لكنْ سرعانَ ما التقطني بصرُها، رفعتِ الكشكولَ الأحمرَ عاليًا: «إيه ده؟!»، رددتُ عليها بكلِّ الحججِ التي كنتُ قد أعددتُها من قبل، لكنَّ رديَ كانَ في نفسي فقط دونَ أن تتحركَ شفتايَ، كررتِ السؤالَ بغضبٍ وصوتُ ضحكاتِ زملائي يعلو حولي.

سقطتُ على المقعدِ جثةً هامدةً وسطَ صراخِها، وإشاراتِ تهديدِها تلوحُ أمامي، تمنيتُ أن أختفيَ عن عيونِ زملائي، سيطرتْ عليَّ رغبةٌ أن أختبئَ تحتَ التختةِ، أتكوَّمُ في أحدِ أركانِها، أضمُّ قدميَّ إلى صدري، وأدفنُ رأسي فيها حتى موعدِ المغادرةِ، لكنني بقيتُ في مكاني مُراقبًا من الجميع.

لم أفهمْ بقية الدرس؛ فصدى ضحكاتِ زملائي لم يفارقْني، حاولتُ الانشغالَ عنها بشتَّى الطُّرقِ دونَ فائدةٍ، كلَّما هَمَّ أحدُهم بالكلامِ ظننتُ أنه سيتحدثُ عني ساخرًا، وكلَّما نظرَ إليَّ أحدُهم ظننتُه سيُخرجُ لسانَه ضاحكًا.

تخيلتُ أن زملائي أحاطوا بي في فِناءِ المدرسةِ في الفسحةِ وأشاروا إليَّ بأصابعِهم مرددينَ: «العبيط أهو أهو.. العبيط أهو أهو»، تجمَّعوا حولي، دفعني بعضُهم، سقطتُ أرضًا، طأطأتُ رأسي واضعًا يدي على قفايَ لحمايتِه من الضربِ، لكنهم تمادوا، فلم أجدْ بُدًّا من مقاومتِهم، فصرتُ ألوحُ بيدي في كلِّ اتجاهٍ، ثم أفقتُ لأجدَني أصارعُ الهواءَ دفاعًا عن النفسِ، وسطَ قهقهةِ زملائي ومعلمتي، قبلَ أن يدقَّ جرسُ الحصةِ التالية.

٣

«هتطلب مني تشوف الكراسة، حترميها في وشي، «ده منظر كراسة تقابل بيه ربنا»، هتقولي تستاهل، مش هحكيلها. حتى لو ماحكيتش هتاخد بالها، «مكشر ليه؟». حتحجج بأي حاجة، «تعبان شوية»، «إيه اللي تاعبك؟»، «الحصص كتير»، مش هخلص من أسئلتها، «هو جديد عليك؟»، هتزعل لو عرفت إني باكذب، وبرده مش هتسيبني غير لما تعرف. مافيش حل غير إني أعمل مبسوط قدامها، بس لا أنا قادر أضحك ولا أتكلم، أنا عايز أنام.. أوف بأه».

لم أُخبرْ أبويَّ بما حدثَ، ولم يكلفْني الأمرُ إلا ابتسامةً مصطنعةً قابلتُ بها أمي على بسطةِ السلمِ، حيثُ كانتْ تتسامرُ مع جارتِنا «طنط عواطف»، حتى إنها ردتْ سلامي دونَ أنْ تلتفتَ نحوي، فتنهدتُ ارتياحًا بمجردِ تجاوزِها. مررتُ بينهما بصعوبةٍ؛ فقد كان جسدُ «طنط عواطف» الممتلئُ يغلقُ الطريقَ على المارةِ، وبالكادِ جسدُ أمي النحيفُ يستطيعُ ملءَ الفراغِ الباقي من عرضِ البسطةِ. توجهتُ إلى غرفتي بعدَ أن اطمأننتُ أنها نسيتْني وأكملتْ حديثَها الهامس.

تعتادُ أمي الحديثَ مع جارتِها ساعاتٍ دونَ مللٍ، على بسطةِ طابقِنا، قريبًا من بابِ شقتِنا أو بابِ «طنط عواطف»، كيفما اتفقَتا، تتحدثانِ في كلِّ شيءٍ؛ الطبخِ والجيرانِ، العائلةِ والأبناءِ، الزواجِ والطلاقِ، العملِ والتسوقِ. تحكي أمي لها عن زملائِها وزميلاتِها في إدارةِ حيٍّ وسطِ التعليميةِ، حيثُ تعملُ منذُ حصولِها على الدبلومِ، تُنصتُ الأخيرةُ باهتمامٍ خليقٍ بربةِ منزلٍ لم تُكملْ تعليمَها، فمجتمعاتُ العملِ تمثِّلُ لها مكانًا خرافيًّا خارجَ حدودِ عالمِها. فتحتْ لها أمي نافذةً عليهِ؛ فهي لا تخرجُ من البيتِ إلا للتسوقِ والزياراتِ العائليةِ، ونادرًا إلى النزهةِ مع زوجِها وأبنائِها بينَ محطةِ الرملِ والمنشيةِ وبحري.

تتعلقُ أمي ببريقِ الانبهارِ الذي يلمعُ في عينَيْ جارتِها حينما تحكي عن عملِها؛ ما يدفعُها لإطالةِ الحَكيِّ، أو إعادتِه، من نفسِها تارة، وبطلبٍ من طنط عواطف تارة أخرى، دونَ أن تَملَّ إحداهما: «اسكتي.. ده النهارده كان عندنا خناقة لرب السما.. سماح وعفاف مسكوا في بعض، وكانت هيصة»، عاجلتْها جارتُنا بشهقةٍ وضربةٍ من راحةِ يدِها على صدرِها متسائلةً: «أحيه.. والأستاذ عبد الودود سكتلهم؟». تحبُّ جارتُنا أن تُسمِّي الموظفينَ بأسمائِهم، وكأنَّ هذا يرفعُ مِن شأنِها، تُكملُ أمي الحكايةَ بشغفٍ، ولا تنتهي الجلسةُ إلا بعدَ التعليقِ، والتنكيتِ، والسخريةِ، وما يتبعُها من ضحكاتٍ مكتومةٍ خوفًا من سريانِ صوتهما على السلم.

ألقيتُ بجسدي على السريرِ، لم يَغبْ عن بالي مشهدُ الإملاءِ، تسللتُ برأسي تحتَ الوسادةِ، ضغطتُ عليها بقوةٍ في محاولةٍ لإجبارِ عقلي على النسيانِ، لم أكُنْ قد خلعتُ الحذاءَ، فكرتُ في نزعِهِ خوفًا من تعنيفِ أمي، لكنني سوَّفتُ كسلًا: «مش قادر... شوية وحقوم... إن شاء الله مش هتاخد بالها»، تذكرتُ الواجبَ المدرسيَّ، وفكرتُ أنها فرصةٌ جيدةٌ لإثباتِ الذاتِ: «حاكتب بأحلى خط عندي.. هيبقى أجمل من خط المِس نفسها.. حيعجبها، حتنادي عليا وتخلي الفصل كله يصقفلي»، ابتسمتُ، رفعتُ رأسي عن الوسادةِ متشجعًا، لكنني سرعانَ ما تراجعتُ متشككًا في قدرتي على الكتابةِ بالجافِّ بخطٍ حسَنٍ، لقد راوغني في الإملاءِ: «يا ريتني فضلت أكتب بالرصاص»، انشغلَ عقلي بالواجبِ، حاولتُ تشجيعَ نفسي مرارًا، لكنني كلما همَمْتُ بإخراجِ الكشكولِ خارتْ قواي. وفي غمرةِ شرودي قفزَ إلى سمعي صوتُ انغلاقِ بابٍ بقوة.

انتفضتُ، خلعتُ الحذاءَ، ألقيتُه في ركنِ الغرفةِ، فتحتُ البابَ بحذرٍ، خرجتُ على أطرافِ أصابعي أتقصَّى الأمرَ، الأجواءُ هادئةٌ، تطلعتُ نحوَ بابِ الشقةِ لأجدَه لا يزالُ مواربًا، والحديثُ لم ينقطعْ، أطللتُ برأسي من فرجةِ البابِ لأتفحصَ وجهَ أمي، اطمأننتُ حينما وجدتُ الابتسامةَ مرتسمةً على صفحةِ وجهِها الأبيضِ المستديرِ الذي تزينُه عينانِ عسليتانِ واسعتانِ، وغمازةٌ غائرةٌ على خدِّها الأيسر. أحبُّ هذا الوجهَ الذي يقابلُني ببشاشةٍ،

كملاكٍ يظهرُ في الأُفقِ فينيرُ سماءَ الليلِ، وأكرهُ وجهَها الغاضبَ المشتعلَ القادرَ على إحراقِ كلِّ ما يقتربُ منهُ، لا أعرفُ قانونًا يحكمُ تقلُّبَها بينَ الوجهينِ، فالتحوُّلُ يحدثُ في لحظةٍ، دونَ مقدماتٍ، وربما دونَ أسباب.

التقطتْ طنط عواطف طرفَ الحديثِ من أمي، وباتتْ تحكي لها عن يومِها بينَ السوقِ والمطبخِ: «ما اقولكيش بقى يا أمل، عملت النهارده فضلة خيرك دقية بامية باللحمة الضاني... إنما إيه تستاهل بُقك»، ثم أسهبتْ في التفاصيلْ، حتى سالَ لُعابُ أمي؛ إن موهبتَها الفطريةَ في الطهيِ لا تُضاهَى، تشتهرُ في العمارةِ بروائحِ الطعامِ الشهيةِ التي تتسللُ من بابِ شقتِها، تتخذُها أمي مثلًا أعلى، تستشيرُها في كلِّ شيءٍ يخصُّ المطبخَ، حتى صارتْ تلميذتَها النجيبةَ، غيرَ أنها لم تتفوقْ عليها قط.

أعدتُ الحذاءَ إلى مستقرِه، في غفلةٍ عن أمي، وأغلقتُ على نفسي حجرتي، لم أجدْ مفرًّا من مواجهةِ بياضِ الورقةِ ممسكًا بالقلمِ الجافِّ، نزعتُ صفحةً من منتصفِ الكراسةِ لأتدربَ عليها، لكنَّ النتيجةَ لم تكنْ مُرضيةً، مزقتُ الورقةَ، وكتبتُ الواجبَ بالرصاصِ، ثم أعدتُ الكتابةَ على الخطوطِ الرماديةِ بالقلمِ الجافِّ، ومسحتُ ما تبقَّى من آثارِ الأولِ حتى لا تُفتضحَ حِيلتي.

لم أنتبهْ لانتهاءِ حديثِ السلمِ إلا حينما تسللتْ رائحةُ الصلصةِ إلى أنفي، ربما لأنني كنتُ منهمكًا في الواجبِ، أو بسببِ علوِّ صوتِ

الأذانِ الصاعدِ من مكبرِ صوتِ مسجدِ «أنجا هانم» الملاصقِ لعمارتِنا. يقطعُ الأذانُ حديثَ الجارتينِ، تصمتانِ لدقائقَ، ترددانِ فيها بصوتٍ هامسٍ: «اللهُ أكبرُ... اللهُ أعظمُ... يا عزيز يا قوي يا رب»، ثم تتبعانِها بتنهيدةِ رِضا، وغمغماتٍ متقطعةٍ، ثم تكملان حديثَهما بمجردِ انتهائِه.

شعرتُ بألمٍ في معدتي، كعادتي حينما أشمُّ رائحةَ الصلصةِ، لم يكنْ هناكَ مفرٌّ من تجنبِ الرائحةِ؛ فمطبخُنا يتوسطُ البيتَ، على يمينِه حجرةُ نومِ والدَيَّ وغرفةُ الجلوسِ، وعلى يسارِه الصالةُ وغرفتي.

ـ ماما هو إحنا حناكل إيه النهارده؟

ـ دقية بامية باللحمة الضاني يا حبيبي.

ـ يووووه ما أنتي عارفة إني ما بحبهاش.

ـ عشان عبيط، في حد ما يحبش البامية! وبعدين النهارده غير كل مرة، طنطك عواطف قالتلي على طريقة إنما إيه... حتاكل صوابعك وراها، وإبقى قول أمك قالت.

الطماطمُ كالبيضِ من مقدساتِ بيتِنا، صارتْ أمي خبيرةً في شؤونِه بفضلِ جارتِنا، لكلِّ نوعِ طماطمَ بائعٌ متخصصٌ، ولكلٍّ استخدامُه، فما يوضعُ في الطَبخِ، غيرُ السَلَطةِ، غيرُ الصلصةِ وخلطةِ المحشي، وأكثرُ من ذلكَ مما يصعبُ حصرُه، لعلي صرتُ أنا أيضًا خبيرًا في شؤونِ الطماطمِ العليا! إن كنتَ تعيسَ الحظِّ

وزُرتَنا يومًا، وفتحتَ بابَ الفريزر فستجدُه أحمرَ اللونِ، لا تكنْ غرًّا مثلي وتظنُّها فراولةً؛ فهي لا تَعدو عن كونِها طماطمَ، تُخزنُها أمي من العامِ للعامِ، كأنها تخشى انقراضَها. ليتني حبةُ طماطم.

تأففتُ وتركتُها تخاطبُ الأجندةَ الممتلئةَ بوصفاتِ طنط عواطف. تدوِّنُ أمي الوصفاتِ، تتَّبعُ التعليماتِ بحذافيرِها كأنها مدرسٌ لا يُتقنُ مادتَه، ويصححُ اختبارَ الطلابِ من نموذجِ إجابةٍ مُعدٍّ سلفًا، أما طنط عواطف فموهبتُها فطريةٌّ، ورثتْها عن أمِّها، ولم تكتفِ بإرثِها بل أضافتْ إليه، تارةً بالتجربةِ والخطأِ، وأخرى من متابعةِ برنامجِها التلفزيوني الأثيرِ «طبق اليوم»، وكانتْ دومًا ما تسخرُ من أمي: «بتكتبي إيه يا أختي، العلم في الراس مش في الكراس».

كانت طنط عواطف مُخلصةً للمطبخِ، أما أمي فقد كانت مُشتتةً بينَ العملِ والطبخِ وزوجِها وابنِها الوحيد.

بعدَ أن انتهتْ أمي من الطبخِ، وضعتْ طبقًا من الباميةِ التي طهتْها إلى جوارِ الطبقِ الذي أرسلَتْه طنط عواطف مع ابنتِها «عبير»، جعلَتْ تشمُّ رائحةَ هذا وذاكَ وتفاضلُ بينهما، ثم تذوقتْ من هنا وهناكَ، تلمظتْ حينما ذاقتْ طبقَ جارتِها، وأغمضَتْ عينيْها بنشوةٍ ثم غمغمتْ: «آه يا أروبة... تجنن».

كنتُ جالسًا على السُّفرةِ، أتلكأُ في تناولِ الغداءِ، أنفخُ في ملعقةِ أرزٍ بالباميةِ يصعدُ منها البخارُ راقصًا، حينما خطرَ ببالي

أنني لم أمحُ آثارَ القلمِ الرصاصِ جيدًا، تركتُ الطعامَ وتسللتُ إلى غرفتي، فتحتُ الكراسةَ وجعلتُ أدقُ فيها: «مش باين حاجة الحمد لله»، لكنني لم أكتفِ، سحبتُ كرسي المكتبِ، وضعتُه أسفلَ المصباحِ، وقفتُ عليهِ ورفعتُ يدي مقرِّبًا الصفحةَ منهُ، تفحصتُها، فلم أجدْ أثرًا للونِ الرماديِّ، وهممتُ بالنزولِ حينما شعرتُ بأن الكرسيَّ يهتزُ تحتي، حاولتُ التماسكَ، لكنني بِتُّ أتأرجحُ فاقدًا اتزاني، وفي اللحظاتِ الأخيرةِ استطعتُ الثباتَ للحظةٍ، اتكأتُ فيها بقدمي اليُسرى على سطحِ الكرسيِّ ثم قفزتُ واقفًا على الأرض.

أعدتُ الكراسةَ إلى مكانِها، وعدتُ مغتبطًا نحوَ السفرةِ بشهيةٍ مفتوحةٍ، كان الهدوءُ يخيِّمُ على غرفةِ الجلوسِ إلَّا من صوتِ ساعةِ الحائطِ المتواترِ بهمسٍ منتظمٍ، نظرتُ نحوَ البندولِ المتأرجحِ الخارجِ من أسفلِ الإطارِ الخشبيِّ المستطيلِ للساعةِ، المعلقةِ فوقَ الكنبةِ، وتأرجح رأسي معَه، كان العقربُ الصغيرُ يقفُ مترددًا بينَ رقمَي أربعةٍ وخمسةٍ، لم أستطعْ حسابَ الوقتِ بدقةٍ، لكنني اطمأننتُ؛ ففي كلِّ الأحوالِ هي بعيدةٌ عن الثامنةِ مساءً، موعدِ عودةِ أبي من العملِ، حيثُ قررتُ النومَ قبلَ وصولِه؛ خوفًا من استجواباتِه: «عملت إيه النهارده في المدرسة؟»، هو لا يعني بهذا السؤالِ أحوالَ التعليمِ ومستوايَ الدراسيَّ، بل علاقاتي بالمدرسين وزملائي، إذا عرفَ أنني كنتُ اليومَ أضحوكةَ الفصلِ ولم أحركْ ساكنًا فسيعاقبُني، فهو يحثُّني دائمًا على الأخذِ بثأري،

وألَّا أتنازلَ عن حقوقي، أو أبدوَ ضعيفًا أمامَ الآخرينَ، بخلافِ أمي التي تدعوني إلى المسالمةِ، وإنْ أساءَ إليَّ أحدُهم تشجعُني أن أسامَحه، وأدعوَ اللهَ أن يقتصَّ لي منه.

إنني دائمُ الحيرةِ بين هاتينِ الدعوتينِ المتنافرتينِ، لا أُنكرُ أنني في أغلبِ الأوقاتِ أميلُ لدعواتِ أمي بالسلم، بسببِ جسدي النحيفِ وطولي الفارع وانحناءة ظهري التي تُبدي ضعفي، ما يجعلني فريسةً سهلةً للآخرينَ، إلَّا أنه دائمًا ما ينشبُ صراعٌ في نفسي كلما تعرَّضتُ للظلمِ أو الإهانةِ، حينها أتذكرُ كلماتِ أبي، ويدبُّ الحماسُ في نفسي، وتعتريني رغبةٌ في الثأرِ، لكنَّ الخوفَ والضعفَ يُكبلانني، فأتذكرُ كلامَ أمي لأتعزَّى به، وأقنعُ نفسي بأنني أؤمنُ به، وأنه نابعٌ من داخلي، فيبدو الهدوءُ على مظهري فقط، ويكمنُ الغضبُ في نفسي، وفي أحيانٍ تتراءي لي أحلامُ يقظةٍ أثأرُ فيها لنفسي، فأهدأُ وأبتسمُ وأنامُ ملءَ جفني.

٤

لكلِّ بيضةٍ مصيرٌ، تحددُه يدُ الطاهي، وذوقُ آكلِها؛ «فالبيضةُ العيونُ» تفتحُ عينَها على الطاسةِ أعلى الموقدِ، بمجردِ أن تنزلقَ من يدِ الطاهي، لترى ذاتَها منقسمةً إلى جزأينِ، يختلفُ كلٌّ منهما عن الآخرِ، في الشكلِ، والطعمِ، واللونِ، هل تتساءلُ حينَها: أيهما ذاتُها الحقيقيةُ؟ أم أنها تنشغلُ بزوالِها المحتومِ؟ ربما تتعزَّى تلكَ البيضةُ إنْ وجدَتْ إحدى أترابِها على سطحِ الطاسةِ، لكنْ بماذا تشعرُ إنْ صارت وحيدةً؟ أمَّا «البيضةُ الأومليت» فحينما يخفقُها الطاهي تندمجُ مكوناتُها لتصيرَ كيانًا واحدًا، لا تستطيعُ فصلَ أو تمييزَ أحدها عن الآخر، تُرى أيُّهما أسعدُ حالًا؟

ليتني «بيضة أومليت».

في اليومِ التالي استيقظتُ متحمسًا، ارتديتُ ملابسي، وعيناي لا تفارقانِ الكراسةَ ذاتَ الجلادِ الأحمرِ، التي تُزينُ سطحَ المكتبِ، التقطتُها بعنايةٍ ووضعتُها في المنتصفِ بين الكتبِ، داخلَ الحقيبةِ لحمايتِها، كنتُ أعاملُها كقطعةِ حلوى أحفظُها في مكانٍ آمنٍ، متطلعًا للوقتِ الذي سأتناولُها فيه، سرتُ بجوارِ أمي

بمحاذاةِ الترامِ، في طريقِنا إلى «مدرسة سمير الابتدائية»، حيثُ اعتادَتْ أن تُوصِّلَني، ثم تتخطَّى شريطَ الترامِ إلى الجانبِ الآخرِ، حيثُ مقرُّ عملِها بـ«إدارةِ وسط التعليمية»، بشارعِ جرين.

كنتُ أحمل حقيبتي الثقيلةَ على كتفَي، أمسكُ يدَ أمي، وأمرجحُ ذراعيْنا في الهواءِ أمامًا وخلفًا، حينما أتاني هاجسٌ بأنني لم أضعْ الكراسةَ المنشودةَ في الحقيبةِ، توقفتُ فجأةً، وأنزلتُ الحقيبةَ من ظهري لأتأكدَ، وسطَ استعجالِها خشيةَ التأخرِ عن العملِ. وجدتُها، أخرجتُها، اطمأننتُ، ثم أعدتُها برفقٍ، وقبلَ أن أُغلقَ الحقيبةَ، راودني هاجسٌ آخرُ بأن آثارَ القلمِ الرصاصِ ستبدو في ضوءِ النهارِ، فأخرجتُها من جديدٍ، وفتحتُ صفحةَ الواجبِ، وقبلَ أن أتأكدَ من آثارِ الرصاصِ، لاحظتُ بقعةً بنيةَ اللونِ على الصفحةِ، نظرتُ إليها بذهولٍ، وأعدتُ الكراسةَ إلى مستقرِّها قبلَ أنْ تلاحظَ أمي.

تركتُ يدَ أمي، وسرحتُ في أفكاري متسائلًا عن مصدرِ تلكَ البقعةِ، خطرَ ببالي أنها آثارُ الباميةِ، التي ربما علقتْ في يدي بينما كنتُ أفحصُ الواجبَ أمسِ. تحولتْ ابتسامتي الصباحيةُ إلى عبوسٍ، وحماسي إلى فتورٍ، تخيلتُ عقابَ مِس «كاميليا»، وسخريةَ زملائي المحتملةَ، فكرتُ في أن أُخفيَها وأدَّعيَ نسيانَها، لكنني خشيتُ أن تُكتشفَ كذبتي، أو أن يكونَ عقابُ نسيانِها أشدَّ من عقابِ بقعةِ الباميةِ، لم يكنْ أمامي حلٌّ إلا ادعاءُ المرضِ، والغيابُ من المدرسة.

وضعتُ يدي على بطني وتأوهتُ: «ماما عندي مغص جامد أوي»، ثم راقبتُ ردةَ فعلِها بطرفِ عيني. حدسَتْ أنني أتمارض، لكزتني في كتفي: «بطَّل دلع»، أقسمتُ لها أنني أعاني مغصًا شديدًا، ولا بدَّ من عودتي إلى البيتِ، لكنها رفضَتْ وأجبرتني على المُضي قُدمًا. سرتُ أفكرُ في مخرجٍ، بينما أتأوهُ بين كلِّ فترةٍ وأُخرى، حتى أنفي تهمةَ الكذبِ عن نفسي، ولاستعطافِها. اقتربْنا من المدرسةِ، لم أجدْ حلًّا، ولم يرقَّ قلبُها لحالي، وجدتُ ضالتي حينما شعرتُ برغبةٍ في التبولِ، دونَ أن أفكرَ فعلتُها داخلَ ملابسي، وتوقفتُ عن السيرِ والدموعُ تبللُ وجنتي، وعيناي تتهربان من النظرِ إلى وجهِ أمي.

شبّكتُ يدَيَّ خلفَ ظهري، طوالَ طريقِ عودتي إلى البيتِ، في محاولةٍ لإخفاء فضيحتي، وكنتُ أتلفتُ حولي خشيةَ أن يراني أحدُ زملائي على هذه الحالِ، لم أكنْ أسمعُ من لومِ أمي المتواصلِ شيئًا؛ فقد كان عقلي منشغلًا بأملِ العودةِ إلى البيت سريعًا، في الطريقِ راودتْني خيالاتٌ بأن أحدَ زملائي رآني، وركضَ نحوي من الخلفِ، ثم نزعَ سروالي، ووقفَ يضحكُ حتى انتبهَ المارةُ من أترابي، والتفوا حولي وزفّوني أمامَ الجميع. ثُبتُ لنفْسي، لم يكنْ أحدٌ حولي، حمدتُ اللهَ، وأسرعتُ الخُطى بينما ألومُ نفسي وأمي.

ضربتْني أمي بعدَ أن هاتفَتْ رئيسَها في العملِ واعتذَرتْ عن عدم الحضورِ: «كدا تفضحني وسط الناس، وكمان تعطلني

عن الشغل!». استجوبتْني بعدَ أن هدأت، لم أستطعْ المراوغةَ، قصصتُ عليها كلَّ شيءٍ وأنا أبكي، فاتهمتْني بالفشلِ وحذرتْني من ضياعِ مستقبلي. لم يَعُدْ يهمُّها تبوُّلي في الطريقِ، ولم تسألْ أكانتْ فعلتي تلكَ مدبرةً، أم أنَّها حدثَتْ دونَ إرادتي، ولا حتى رقَّ قلبُها لِما تعرَّضتُ لهُ أمامَ الفصلِ أمسِ، كلُّ ما كانَ يهمُّها هو نجاحي، وتفوُّقي الدراسي، كانَتْ تخشَى أن أصيرَ عاملًا في مصنعٍ مثلَ أبي؛ فشيَّدَتْ أحلامًا في خيالِها بأنها ستراني يومًا ما طبيبًا، أو مهندسًا، أو سفيرًا.

لم تقتنعْ بحُججي التي سُقتُها حينما حكيتُ لها عن الإملاءِ: «كلام فارغ، وهو أنت يعني أقل من صحابك، زيك زيهم، هما كمان أول مرة يكتبوا بالجاف، وأنت مش ناقص إيد، بلاش حجج فارغة»، كانتْ تتهمُني دومًا بالفشلِ، ظنًّا منها أن الخوفَ سيدفعُني للنجاحِ، غيرَ أن إحساسي بالفشلِ كانَ يتعاظمُ، وثقتي بالنجاحِ تتضاءلُ يومًا بعدَ يوم.

بعدَ أن استحممتُ تقوقعتُ على سريري، وأغلقتُ بابَ حجرتي، مارستْ أمي هوايةَ الثرثرةِ مع طنط عواطف، بحريةٍ أكبرَ، ووقتٍ أطولَ. راودتْني رغبةٌ في التلصصِ عليهما لأطمئنَّ أنهما لا تتحدثانِ عني، لكنني كسلتُ، أو ربما جبُنت.

كنتُ في قرارةِ نفسي متيقنًا أنها قصَّتْ عليها كلَّ شيءٍ، حمدتُ اللهَ أن «عبير» ابنةَ طنط عواطف لم تزلْ في المدرسةِ،

حتى لا تسمعَ حكايتي فتزيدُ مشاكستي، وتُثبتُ عليَّ الأوصافَ التي تصفُني بها دومًا: «أنت خوَّاف أوي كده ليه، تكونش أنت البنت وأنا الولد»، ثم تضحكُ ضحكةً عاليةً. يبدو أنها تأثرتْ بتربيتِها وسطَ ولدينِ يكبرانِها بعدةِ سنواتٍ، حتى إنها في بعضِ أوقاتِ لعبِنا كانت تطلبُ مني تبادلَ الأدوارِ، فتصيرُ هي العريسَ وأنا العروسةَ، وكنتُ أوافقُها لتشفعَ لِي طاعتي؛ فتقللُ من مشاكستي، لكنني كنتُ أصرخُ في قرارةِ نفسي بأنني ولدٌ، بل رجلٌ، وأنها غبيةٌ، بل حمارةٌ، وقبيحةٌ أيضًا.

منذُ صغري وأنا لا آنسُ إلا بنفسي، ولا أشعرُ بالأمانِ إلا في أحضانِ غرفتي المغلقةِ، ولا أتحدثُ بتلقائيةٍ، ودونَ تحفُّظٍ، إلا في عقلي، بلا صوتٍ، ودونَ أن تتحركَ شفتايَ.

بينما كنتُ أسُبُّ «عبير» في نفسي، سَمِعتُ صوتَ سعالٍ في الشارعِ، أشبهَ بسعالِ والدي، فانقطعَ حبلُ أفكاري، وانتفضتُ واقفًا، نظرتُ من خلفِ خصاصِ النافذةِ، متسائلًا عن السببِ الذي أعادَ أبي من العملِ مبكرًا، ثم فكرتُ: ربما هاتفتْهُ أمي وحكتْ له ما حدثَ فجاءَ ليعاقبَني، لكنني هدأتُ حينما وجدتُه سعالَ رجلٍ غريبٍ. عُدت إلى سريري والأفكارُ تتسلَّى بي كما أتسلَّى بلعبِ «البلي» على أرضيةِ غرفتي، أو في الشارعِ مع بلبل وباقي الجيران.

تردَّدَ سعالُ أبي ونحنحتُه المعتادةُ في أذني، ولم تفارقْ صورتُه عقلي، تخيلتُه متجهًا نحو غرفتي بجسدِه الضخمِ، وشعرِه

الكستنائيِّ القصيرِ، بينما عيناهُ الخضراوانِ تنظرانِ تجاهَ بابي بتحفُّزٍ، وخطواتُه تدبُّ على الأرضِ متوعدةً. تسارعتْ دقاتُ قلبي، وتمنيتُ ألَّا تحكي له أمي شيئًا، لكن ماذا إنْ أخبرَتْه؟ كيف سأواجهُ؟ هل سأهربُ كعادتي بالنوم؟ وهل سيتركُني نائمًا؟ ترددتُ بينَ النومِ والمواجهةِ، تمنيتُ الأخيرة، لكنني لم أكنْ أملكُ الشجاعةَ الكافيةَ لتحقيقِ أمنيتي. ليتني ورثتُ الشجاعةَ وضخامةَ الجسمِ عن أبي، إلَّا أنَّ القدرَ أورثَني لونَي عينيهِ وشعرِه، وملامحَ وجههِ، وعن أمي نحافتَها، وجبنَها، ومسالمتَها.

لا أعرفُ عن أيِّهما ورثتُ الخيالَ، لعله أعظمُ ما أملكُ؛ لذلكَ أشكُّ أنني ورثتُه من أحدِهما. في الحياةِ الواقعيةِ أجدُني دائمَ الترددِ، والشكِّ، والخوفِ، أما في خيالي فأنا حاسمٌ، شجاعٌ، متيقنٌ، واثقٌ، أفعلُ ما يحلو لِي دونَ خشيةِ العواقبِ. تخيلتُ أن أبي دخلَ عليَّ الغرفةَ ووجدنِي منهمكًا في المذاكرةِ، غيرَ عابئٍ بأيِّ مصيرٍ ينتظرُني، واجهَني بأخطائي، اقتربَ مني، صرخَ في وجهي؛ فلفحَني الهواءُ الخارجُ من فمِه الكبيرِ كعاصفةٍ، لكنَّها لم تجدْ أمامَها إلا شجرةً ضخمةً راسخةً، تمدُّ جذورَها في الأرضِ عميقًا، لم تتزعزعْ. واجهتُه بثقةٍ وهدوءٍ وألقيتُ اللومَ على أمي التي لم تصدِّقْ مرضي، فاضطررتُ لعنادِها. راقَ له هذا اللومُ، كأنه كان ينتظرُه، نظرَ إليَّ نظرةَ رضًا، وتحوَّلَ عني ليتشاجرَ معها، أغلقتُ البابَ على نفسي وأكملتُ مذاكرتي غيرَ عابئٍ بشجارِهما.

ليتَ حياتي كلَّها خيالٌ، فبخلافِ النصرِ الذي ظفرتُ به في عقلي، كانت الهزيمةُ مصيري في الواقعِ، فقد كانت أطرافي ترتعشُ كلما اقتربَ صوتٌ من بابِ غرفتي، حتى خطواتُ أمي الخفيفةُ على الأرضِ، حيثُ دخلتْ عليَّ الغرفةَ مرتينِ، من أجلِ تناولِ الفطورِ والغداءِ، لعلها لا ترى أشياءَ جديرةً بالاهتمامِ إلا الدراسةَ والأكلَ، أحضرَتْ لي في الفطورِ بيضتينِ «عيون» وشريحةَ «جبنة تركي»، لم تكن لديَّ شهيةٌ لتناولِهما، فبدأتُ أعبثُ في الصفارِ، فقأتُه، ولعبتُ به فوقَ البياضِ بالشوكةِ، محاولًا خلطَهما، لكنَّ الصفارَ تمنَّعَ وأبَى أن يختلطَ برفيقِه، وبدلًا من ذلكَ لطَّخَه، ولوَّثَ لونَه الأبيضَ. أما الغداءُ فقد كان وِركَ فرخةٍ مع أرزٍ وملوخيةٍ، تأملتُ كثيرًا في مؤخرةِ الدجاجةِ قبلَ تناولِها، متسائلًا عن الكيفيةِ التي تخرجُ بها البيضةُ من هذهِ الفتحةِ الصغيرةِ دونَ أن تنكسرَ قشرتُها الهشةُ، ثم حاولَ عقلي أن يهديَ إليَّ الجوابَ، فتخيلتُ دجاجةً تسيرُ ثم توقَّفَتْ فجأةً ورفعَتْ إحدى قدميْها، لكنها بدلًا من أن تبيضَ، تبرزتْ، شعرتُ بالقرفِ، ولم أتناولْ الطعام.

كنتُ مستلقيًا على سريري، مشغولًا بتتبعِ ظلِّ خصاصِ النافذةِ المنعكسِ على الحائطِ المواجهِ لي، والذي يتحركُ بفعلِ فوانيسِ السياراتِ المارةِ في الشارعِ. حينما سمعتُ صوتَ صريرِ البابِ، ودقاتِ ساعةِ الصالةِ تُعلنُ الثامنةَ، أغمضتُ عينَي فجأةً وحاولتُ النومَ، لكنه تمنَّع عليَّ، وباتَ سمعي رهيفًا لكلِّ حركةٍ في الخارجِ.

يبدو لي أن العمارةَ كلَّها تعرفُ بوصولِ أبي منذُ اللحظةِ التي يتخطى فيها بابَ العمارةِ، فصوتُ خطواتِه الثقيلةِ على السلمِ مميزٌ، لا سِيَّما غلقَه بابَ الشقةِ بقوةٍ، حيثُ يهتزُ زجاجُ شُرَّاعتِه، فأشعرُ بأنه على وشكِ التحطُّمِ، يُلقي السلامَ بصوتِه الجهورِ، ثم يتجهُ نحو الحمَّامِ مباشرةً، ليزيلَ عن يديهِ وجسدِه آثارَ الشحمِ والغبارِ، العالقينِ به من طولِ مكوثِهِ في عنبرِ الخراطةِ بشركةِ «أبو قير للأسمدة»، يمكثُ في الحمَّامِ قُرابةَ نصفِ ساعةٍ، تتصاعدُ إلى آذانِنا من الداخلِ أصواتٌ عاليةٌ، كصوتِ ارتطامِ غطاءِ الكنيفِ في أثناءِ غلقِه، أو صوتِ تبولِه المندفعِ، كأنه خرطومُ مطافئ، وصوتِ غازاتِه المنغمِ، الطويلِ تارةً والمتقطعِ تارةً أخرى، والذي لا يحتاطُ في إخراجِه داخلَ أو خارجَ الحمَّامِ، ثم صوتِ خريرِ الماءِ الذي يتخللُه تمخُّضُه وبصقُه عدةَ مراتٍ، وسقوطُ قدميْه من الحوضِ بعد إنهاءِ الوضوءِ، حتى إنني أخشى في أوقاتٍ أن يصعدَ جارُنا ليتشاجرَ معه، خوفًا من سقوطِ السقفِ عليه.

يصدرُ أبي صوتًا عاليًا في كلِّ أفعالِه، حينما يسيرُ حافيًا تدبُّ قدمُه على الأرضِ بعنفٍ، وحينما يرتدي حذاءً يعلو صوتُ احتكاكِه بالأرضِ، يرتشفُ الشوربةَ والشايَ بصوتٍ عالٍ ثم يتبعُه بتنهيدةٍ، حتى صوتُ أنفاسِه عالٍ في الصحو، وصوتُ شخيرِه يتردَّدُ بين حوائطِ البيتِ ليلًا، وصوتُ اصطكاكِ الملاعقِ والشوكِ في أثناءِ تناولِه الطعامَ، يرفعُ صوتَ التلفازِ لآخره، في أثناءِ مشاهدتِه لأحدِ الأفلامِ أو مباراةٍ لكرةِ القدمِ، حتى إنه اعتادَ

أن يغفوَ والتلفازُ يعملُ لتصحوَ أمي التي تشكو دائمًا من الأصواتِ العاليةِ فتغلقُه. يُخيلُ إليَّ الآنَ أن أبي لا يطمئنُ، ولا تسكنُ نفسُه، وجوارحُه، إلا حينما تطنُّ في أذنِه أصواتٌ عاليةٌ، متداخلةٌ، عنيفةٌ، كأن هذه الأصواتَ تحتويه وتُشعرُه بالأمانِ، وبدونها يبدو كأنه عارٍ، مكشوفٌ، غيرُ آمن.

من سريري، بينما كنتُ أدَّعي النومَ، سمعتُ كلَّ طقوسِه التي ألهتني عن المصيرِ المنتظرِ، إلى أن سادَ هدوءٌ لم أعتدْ عليه في وجودِه، تخيلتُ أنه في غرفتِه، وأن أمي تحكي له ما حدثَ، حاولتُ النومَ أو إلهاءَ نفسي لكنني فشلتُ، نزلتُ من السريرِ، فتحتُ فرجةً من البابِ لأتقصَّى الأمرَ، كان بابُ غرفتِهما مفتوحًا، فسمعتُ ما دارَ بينهما.

بدا على صوتِ أمي التردُدُ حينما قالتْ:

ـ بقولك إيه يا عرفان، عاوزه أحكيلك حاجة عن الواد عمر بس والنبي ما تيجي جنبه، أنا ضربته والموضوع خلص.

ـ خير!

ـ الواد خد صفر في الإملا امبارح.

قالَ بنبرةٍ لا مبالاة:

ـ طب وإيه يعني، إن شاء الله يسقط، هو يعني لو فلح حيطلع إيه؟! موظف شبهكِ عينه تتمقق وضهره يأتب ويقبض ملاليم.

ردَّت بعصبيةٍ:

ـ مش أحسن ما يطلع صنايعي، يلبس عفريته وإيده طول اليوم في الشحم والزيت.

إنها تعرفُ مسبقًا رأيَه في هذا الأمرِ، فلماذا تحكي له؟! ألم يكفِها معاقبتي حينَها؟! أتصوَّرُ أن خوفَها كان السببَ؛ فأمي تخشى أن تتحملَ المسؤوليةَ وحدَها، بل هي تخشى كلَّ شيءٍ، ولا تتشجعُ إلا حينما يستفزُها أبي، فتتحولُ من كتكوتٍ ضعيفٍ إلى ديكٍ شرسٍ يهجمُ على خصومِه في حلبةِ مصارعةٍ بلا رحمةٍ، ولا تستمرُّ تلكَ الحالةُ إلا فترةً وجيزةً تعودُ بعدَها إلى طبيعتِها المستسلمةِ، كأنها كانت تحلمُ واستيقظت.

احتدمَ بينهما الشجارُ، خاصةً حينما عرفَ أبي أن زملائي سخروا مني ولم أُحرِّكْ ساكنًا، وأنني تبولتُ على نفسي في الشارعِ، اتهمَها بأنها السببُ في ضعفِ شخصيتي، وأنها تشكو دومًا من الأمورِ التافهةِ وتتركُ الأمورَ الهامة. بعد فترةٍ هدأَ الصوتُ بينهما، ثم سمعتُ خطواتِ أبي الثقيلةَ تقتربُ، أغلقتُ البابَ وقفزتُ إلى السريرِ، وشددتُ الغطاء على رأسي، منتظرًا مصيري.

دخلَ أبي غرفتي، أضاءَ النورَ دونَ أن يتفوَّهَ بكلمةٍ، تسارعَتْ دقاتُ قلبي، توقعتُ أن تسقطَ يدُه عليَّ في أي لحظةٍ، وكلما زادَ صمتُه زادَ ارتعاشُ أطرافي، كان أهونَ عليَّ أن أنالَ عقابي سريعًا بدلًا من الانتظارِ، وتوقعِ احتمالاتِ العقابِ، وبينما أنا في غمرةِ انتظاري سمعتُ صوتَه يقولُ: «عاملِّي نايم، حتفضل طول عمرك

جبان شبه أمك، قوم فز كلمني راجل لراجل»، لم أعلمْ كيفَ عرفَ ادِّعائي النومَ، رفعتُ الغطاءَ، واتخذتُ وضعَ الدفاعِ بحمايةِ رأسي بيدَيَّ، جلسَ أمامي: «بتشخ على روحك زي العيال! مش عارف إمتى هتبقى راجل!»، قالها وعيناهُ مصوَّبتان نحوي، ثم تجشأَ بصوتٍ عالٍ دونَ أن يديرَ رأسَه، فمرَّ تجشؤهُ عبرَ فمي إلى أحشائي، حتى كدتُ أتقيأ.

أكملَ صياحَه في وجهي، ومع كلِّ صيحةٍ أزدادُ انكماشًا على نفسي، استفزَّهُ صمتي، وجمودي كصنمٍ، رجَّني كعلبةِ ملبِّس، ثم انهالَ عليَّ بالصفعِ والتهديداتِ، التي ابتلعتُها كما أبتلعُ بيضةً مسلوقةً كاملةً دفعةً واحدةً، بينما لساني يردِّدُ كلماتِ الاعتذارِ دونَ وعيٍ: «حرَّمت. والنبي حرَّمت.. والله حرَّمت.. وديني حرَّمت». أنهى مهمتَه ثم خرجَ ليُكمل شجارَه مع أمي، بينما صوتُ نشيجي يترددُ بين جدرانِ غرفتي.

كثيرًا ما احترتُ بين رغباتِ أمي وأبي، ولم أستطعْ التوفيقَ بينهما، لقد عُوقبْتُ مرتينِ وفي كلِّ مرةٍ لأسبابٍ مختلفةٍ، وبدلًا من أنْ أتحلَّى بالشجاعةِ وأتفوقَ في الدراسةِ ليرضَيا عني، أصبحتُ ضعيفًا بليدًا؛ فسخطَا عليَّ.

٥

ترتعشُ يداي وأنا أكتبُ تلكَ السطورَ، ليسَ تأثرًا، بل على العكسِ، فمشاعري متبلدةٌ. يبدو أن قلبي قد شُرِخَ كبيضةٍ نيئةٍ، فسالَ محتواهُ حتى فرغَ، أم ترَاهُ صارَ كالبيضةِ المسلوقةِ التي تُركتْ على الموقدِ أكثرَ من اللازمِ؛ فتحجَّرَ محتواها؟ ترتعشُ يداي لأنَّ الجوَّ باردٌ، والمكانَ الذي أسكنُه بلا بابٍ، مجردُ غطاءٍ خشبي نضعُه على الفتحةِ التي تصلُ بنا إلى الخارج.

أشعرُ بالجوعِ ولا أجدُ في مسكنِنا هذا سوى مجموعةٍ من كراتينِ البيضِ النيءِ، المتراصةِ على شكلِ برجٍ، لقد سئمتُ البيضَ، ومع ذلك لا أكفُّ عن تناولِه، فلا شيءَ غيرَه متاحٌ، نأكلُه بمواعيدَ ثابتةٍ اتفقتُ عليها مع أصدقائي حينما سكنتُ هذا المكانَ، حتى يكفيني لأطولِ فترةٍ ممكنةٍ، فلا يعلمُ أحدُنا متى ينتهي كلُّ شيءٍ، ويُتاحُ لنا الخروجُ والعودةُ إلى منازلنا.

على الرغمِ من كرهي للبيضِ، فإنني لم أكفَّ عن النظرِ إليه، اهتزتْ إحدى البيضاتِ، سمعتُ صوتَ انشقاقِها، وأخذَ الشقُّ يتسعُ حتى انكسرتْ وخرجَ منها كتكوتٌ أصفرُ صغيرٌ. نفشَ ريشَه

وتمطَّى، نظرَ إليَّ، بدا لي أنه بعينٍ واحدةٍ في المنتصفِ، ثم أدارَ ظهرَه. رأيتُ عينَه الثانيةَ ملتصقةً بقفاه، هبطَ من البرجِ متكئًا على أطرافِ الكراتينِ كسُلَّم، تمشَّى متبخترًا حتى وصلَ إلى الطاولةِ التي أكتبُ عليها، تسلقَها فوصلَ إلى السطحِ سريعًا، وجلسَ جوارَ الورقِ، أصبحت الطاولةُ ـ غيرُ متساويةِ الأرجُلِ ـ تتأرجحُ يَمنةً ويَسرةً كلما تحركَ الكتكوت. بمجردِ أن استقرَّ في جِلستِه مدَّ يدَه خلفَ رأسِه، وانتزعَ العينَ الخلفيةَ، ثم أزاحَ الأماميةَ إلى اليسارِ قليلًا، ووضعَ بجوارِها الأخرى.

سألتُه متعجبًا كيفَ فعلَها، فتجاهلَ سؤالي، وأخذَ يدققُ في الورقِ الذي أكتُب فيه، ثم سألَني:

ـ كتبت كام صفحة لحد دلوقتي؟

قلَّبتُ في الأوراقِ سريعًا ثم أجبتُ في شكٍّ:

حوالي ثلاثين.

ردَّ مستنكرًا:

ثلاثين صفحة ولسه في ابتدائي! ايه الملل ده!

تساءلتُ في نفسي، أكانَ يراقبُني من خلفِ البيضةِ، ثم تشككتُ بأن البيضَ كلَّه يراقبُني، تلفتُّ حولي، توجهتُ إلى كراتينِ البيضِ، تفحصتُها بيدَي متشككًا، لكنني لم أجدْ ما يثيرُ الريبةَ، عدتُ إليه ناويًا تجاهلَه، لكنني لمحتُ ابتسامةَ سخريةٍ تعلو وجهَهُ، فأجبتُ مدافعًا عن نفسي، كأنني أنفي تهمةً ما:

ـ أنا معاك إن التفاصيل كتير بس أتحداك إن حد يمل وهو بيقرا.

شَعرَ بارتعاشةِ شفتَي، ثم نظرَ إليَّ بشفقةٍ، وقالَ:

ـ مش لو حد قراه أصلًا.

ـ قصدك إيه؟

تطلَّعَ نحوَ الورقِ، بينما يُجيب:

ـ هو في حد حيقرا ورق فاضي.

فحصتُ الورقَ وَجِلًا فوجدته فارغًا، بحثتُ حولي، لكنني لم أجدْ شيئًا، مررتُ بالقلمِ على ورقةٍ لأختبرَه فارتسمَتْ عليها خطوطٌ عشوائيةٌ، شردتُ للحظاتٍ متسائلًا عمَّا يحدثُ، وحينما أفقتُ لمحتُ الكتكوتَ يُمعنُ النظرَ في الورقةِ ذاتِ الخطوطِ العشوائيةِ، أعدتُ النظرَ إليها فوجدتُ الخطوطَ قد تلاشتْ، شعرتُ بأن الكتكوتَ يتلاعبُ بي، نظرتُ إليه في تحدٍّ واتهمتُه بأنه يمسحُ آثارَ القلمِ بعينيهِ، نظرَ إليَّ مستهزئًا ثم قالَ: «أنت اللي اتعميت».

تشككتُ في نفسي، تحسستُ عينيَّ، قربتُ يدي نحوَهما «حمدًا لله.. يدي في مكانِها» جُلتُ ببصري حولي فوجدتُني أرى كلَّ شيءٍ بوضوحٍ، اقتربتُ من الحوائطِ، لامستُها، تأكدتُ من حقيقتِها «يا لك من ماكر»، عدتُ إلى الكتكوتِ ناويًا اتهامَه بتضليلي، لكنني وجدتُه قد تحوَّلَ إلى اللونِ الأحمرِ، فركْتُ عينَي

وفتحتُهما لأجدَه صارَ أخضرَ اللونِ، مسكتُه في يدي وقربتُه من عينَي فصارَ لونُه ترابيًّا، تملَّكَني الغضبُ، لم أشعرْ بنفسي إلا حينما بدأتُ أخنقُه بيدي، وأنا أصرخُ بكلامٍ غيرِ مفهومٍ. بعدَ لحظاتٍ وجدتُ أحدَ أصدقائي يصفعُني على وجهي محاولًا إفاقتي، ويدي تضغطُ بقوةٍ على إحدى البيضاتِ التي تهشمَتْ قشرتُها، وسالَ محتواها بينَ يدَيَّ.

نهضتُ، عدتُ إلى الطاولةِ، تفحصتُ الورقَ فوجدتُه ممتلئًا بكلماتي، تشككتُ في أنَّ الكتكوتَ قد بدَّلَ الكلماتِ وغيَّر في حكايتي، قرأتُ كل ما كتبتُ فوجدتُ أنَّ كل شيءٍ في مكانِه دونَ تبديلٍ، فكرتُ في كلامِ الكتكوتِ، ثم قررتُ أنْ آخذَ بنصيحتِه وأتخطَّى المرحلةَ الابتدائيةَ إلى ما بعدَها.

٦

عشتُ ما بقيَ لي في المرحلةِ الابتدائيةِ على أملِ الوصولِ إلى الإعداديةِ. لسببٍ ما تخيلتُ أنَّ مجردَ تغييرِ المدرسةِ والدخولِ في وسطٍ جديدٍ، لا يعرفُني، ستُحلُّ كلُّ مشكلاتي، سأكونُ قادرًا على إقناعِ زملائي ومعلميَّ الجددِ بشخصيتي، وسأكتسبُ أصدقاءَ، وتنتهي وحدتي، وسأتفوقُ دراسيًّا؛ فأُرضي أمي، وأكونُ شجاعًا؛ فأُرضي أبي.

عشتُ بهذا الأملِ عامينِ، تحمَّلتُ فيهما كلَّ مصاعبِ الدراسةِ، وسخريةِ زملائي ووحدتي، وشجاراتِ والدَيَّ. لم تكنْ هناكَ تسليةٌ أُسَرِّي بها عن نفسي إلا عادةُ التسوقِ والقراءة.

في ذلكَ العمرِ، اعتادتْ أمي أن ترسلَني للتسوقِ، أحببتُ الوقتَ الذي أقضيه وحدي خارجَ البيتِ، وأصبحتُ أطيلُ السيرَ والتنقلَ بين الباعةِ، وتتثاقلُ قدماي كلما اقتربَ موعدُ العودةِ إلى البيتِ. صرتُ أستمتعُ بالسيرِ بين مَن يجهلُني من الناسِ، وأتسرَّى باللعبِ بموازينِ الباعةِ، أضعُ ما أنتقيهِ من الخضراواتِ على كفةٍ، والسنجةَ الحديديةَ على الأخرى، وأرقبُ تأرجحَ الكفتينِ،

ثم أضعُ ثمرةً إضافيةً كي ترجحَ الكفةُ وتستقرُّ؛ لكنني أسحبُها من جديدٍ متلذذًا بإيقاعِ الميزانِ بينما يتأرجح. كانت رحلةً يوميةً ممتعةً، ولم يكنْ يفسدُ تلكَ المتعةَ إلا بعضُ الخوفِ من ألَّا ترضى أمي عن جودةِ ما أنتقيهِ من خضراوات.

في يومٍ من أيامِ تسوُّقي توقفتُ أمامَ عم شحاتة، صاحبِ نصبةِ الجرائدِ على محطةِ ترام الرصافة، لفتَ انتباهي غلافُ مجلةٍ مصورةٍ، مرسومٌ عليه فتًى صغيرٌ، بشعرٍ أصفرَ يرتدي بالطو ترابيَ اللونِ، كان يحُثُّ الخُطى، ويلحقُ به كلبٌ أبيضُ صغيرٌ، وفي الخلفيةِ مدخلٌ أثريٌّ يقفُ أمامه حارسانِ، يبدوانِ من ملابسِهما أنهما من أحدِ العصورِ القديمةِ، قرأتُ العنوانَ «تان تان وصولجان الملك أوتوكار»، تأملتُ الفتى بإعجابٍ، فتحتُ غلافَ المجلةِ المعلقةِ على حبلٍ غسيلٍ، وأخذتُ أتصفحُ فيها، نهرني عم شحاتة ساخرًا: «أجيبلك كرسي وكوباية شاي بلبن»، لم أردَّ عليه، فأَتبعَ: «روح يا شاطر لو عاوز تقراها هات نص جنيه وتعالى».

عدتُ اليومَ التاليَ بنصفِ الجنيهِ، واشتريتُها. قضيتُ معها اليومَ كلَّه دونَ أن أكلِّمَ أحدًا، كانت تلكَ آخرَ متعِ الإجازةِ، وكان الغدُ أولَ أيامِ الدراسة.

كنتُ قد أعددتُ كلَّ شيءٍ لأفوزَ بيومٍ دراسيٍّ جيدٍ، حرصتُ على أناقتي؛ فلم أرضَ بالمقاساتِ الكبيرةِ، التي اعتادتْ أمي أن تشتريَها لي في المرحلةِ الابتدائيةِ، بحجةِ التوفيرِ. تشاجرتُ

معها في أثناءِ انتقاءِ الحذاءِ؛ فقد كانت مصرَّةً على مقاسٍ أكبرَ من مقاسي بنمرتينِ. للمرةِ الأُولى في حياتي أشعرُ بالنصرِ، حينما رضختْ أخيرًا لرغبتي، بعد أن هددتْني بأنها ستشتكي لأبي.

ألَا ما أروعَ أحلامَ اليقظةِ! عشتُ يومًا في الجنةِ، لاعبتْني الأحلامُ، في صحوي ومنامي، شاركتْني موائدَ الطعامِ، شربَتْ معي من الكوبِ نفسِه، حتى ارتوت وروتْني، رافقتْني في أثناءِ تسوقي، تسامرَتْ معي كصديقٍ، وتخللتْ سطورَ قصص تان تان، التي كنتُ أقرؤها ليلًا في غرفتي.

كانت أحلامَ مجدٍ مُفتقدٍ، رأيتُها طوالَ اليومِ السابقِ للمدرسةِ، رأيتُني وقد استطعتُ أن ألفتَ انتباهَ زملائي، بمجردِ دخولي من بابِ المدرسةِ، نظروا إليَّ بإعجابٍ، وبعضُهم أشارَ نحوي، وقد أسرَّ لرفيقِه ببعضِ الكلماتِ باسمًا، تخيلتُ أنهم يمدحونَ أناقتي، فازددتُ ثقةً وإعجابًا، واستقامتْ هامتي، وبطأتْ خطواتي، تجاهلتُهم وانشغلتُ بالإعجابِ بنفسي، ثم أكملتُ السيرَ في طريقي كديكٍ ينفشُ ريشَه وسطَ الحظيرة.

تقدمتُ صفوفَ فصلي، منتصبَ القامةِ، راسخَ القدمينِ، واثقَ النفسِ، وحينما حانتْ لحظةُ تحيةِ العلمِ، سمعتُ صوتَ الأستاذِ «مصطفى عبد العظيم» ينادي في الميكروفون: «عمر عرفان، أولى أول، يتقدمُ لتحيةِ العلمِ»، تقدمتُ بخطواتٍ مطمئنةٍ واثقةٍ، انتصبتُ بقامتي تحتَ سفحِ العلمِ، ضبطتُ الطاقيةَ بيضاويةَ الشكلِ

على رأسي، غمزتُ بطرفِ عيني للحمامةِ «حِلم» المستقرةِ فوقَ العلمِ، رفعتُ يدي وحييتُ العلمَ بصوتٍ جهورٍ، بدا لي أن أمي سمعتْه في مقرِّ عملِها.

انتهى الطابورُ، عدوتُ بأقصى سرعةٍ في اتجاهِ الفصلِ، كنتُ أَصدِمُ من يحاولُ سباقي فيسقطُ، وحينما وصلتُ إلى الفصلِ كان خاويًا، اخترتُ الجلوسَ على مقعدٍ مميزٍ في منتصفِ الصفِّ الأول، دخلَ باقي الطلبةِ، تخيلتُ أنهم كانوا ينتظرونني في الخارجِ حتى أختارَ مقعدًا يليقُ بمكانتي، وحينما استقرَّ كلٌّ في مكانِه، أتاني طالبٌ ضعيفٌ بنظارةٍ طبيةٍ كبيرةٍ، طلبَ مني أن أُبدِّل معه مقعدي؛ لأنه لا يرى جيدًا من الخلفِ، نظرتُ إليه بمزيجٍ من الشفقةِ والاحتقارِ، ومططتُ شفتي استهزاءً، ثم أشحتُ وجهي عنه، فعادَ مطرقًا إلى مكانِه.

على مدارِ اليومِ الدراسيِّ، جاوبتُ على كلِّ أسئلةِ المدرسينَ، تخيلتُ أن زملاءَ الفصلِ انقسموا إلى قسمينِ أمامَ تفوقي، أحدُهما منبهرٌ بقدراتي، يتودَّدُ إليَّ، وثانيهما يحسدُني، غيرَ أنهم يخشونني فلا يتعرضونَ إليَّ. في الفسحةِ اصطدمَ أحدُ طلابِ الفرقةِ الثالثةِ بي، سبْبْتُه، وتشاجرتُ معه، التفَّ فصلي حولَنا مكونينَ حلقةً دائريةً، وأخذوا يهتفونَ باسمي مشجعينَ، وحينما فزتُ بالضربةِ القاضيةِ وسقطَ خِصمي، تجمعوا حولي ورفعوني على أكتافِهم محتفلينَ، مرددينَ اسمي.

في صباحِ يومِ المدرسةِ الأولِ، استيقظتُ مغتبطًا بأحلامِ اليقظةِ والمنامِ، كنتُ أرتدي ملابسي أمام المرآةِ، حينما شعرتُ أن سروالَ المَدرسةِ أوسعُ مما ينبغي، شككتُ أن أمي بدلته في غفلةٍ مني، سألتُها، فأنكرتْ، وصدقتُها. لُمتُ نفسي: «أين كانتْ عيني حينما اخترتُ ذلك المقاسَ». فكرتُ في حلٍّ، فاستقرَّ رأيي على أن أرتديَ كلَّ ما أستطيعُ من سراويلِ البيتِ تحتَه.

اطمأننتُ للنتيجةِ وأقنعتُ نفسي بأن هذا الامتلاءَ الذي بدا على نصفي السُّفلي في صالحي؛ لأنه سيُوحي بضخامتي، وسيُضفي هيبةً على هيئتي، لكنَّ النتيجةَ كانت على عكسِ ما تمنيتُ، فطوالَ الطريقِ إلى المدرسةِ شعرتُ بنظراتٍ غريبةٍ من المارةِ، البعضُ كان يُقهقهُ، والبعضُ يغالبُ الضحك.

انهارتْ أحلامُ اليقظةِ تمامًا، منذُ اللحظةِ التي تخطيتُ فيها عتبةَ بابِ مدرستي الجديدةِ، «مدرسة الجمعية الخيرية»، أثارَ منظري ضحكَ أترابي؛ فقد كنتُ أبدو ممتلئًا من أسفل، ونحيفًا من أعلى، وكأنني شخصانِ مختلفانِ في جسدٍ واحدٍ، أحدُهما ضخمٌ قويٌّ، والآخرُ ضئيلٌ ضعيفٌ. همَّ أحدُ الطلابِ بسحبِ سروالي لأسفل، لكنه ـ وللهِ الحمدُ ـ لم يسقطْ! وتطوَّعَ آخرُ بضربي على مؤخرتي، وحينما سمعَ التلاميذُ صوتَ ارتطامِ يدِه بكتلةِ الملابسِ، سخروا مني: «حلو اللحاف اللي أنت لابسه ده»، ضجَّ الطلابُ بالضحكِ، وصارتْ عادةً أن يضربَني كلُّ من يمرُّ عليَّ، كأنه يقومُ بفحصِ اللحافِ قبلَ شرائه.

أصبحتُ أضحوكةَ المدرسةِ، ولم أتقدمَ الصفوف في طابورِ الصباحِ، بل تذيلتُها، ولم يكدْ صوتي يخرجُ في أثناءِ تحيةِ العلمِ، وكنتُ آخرَ مَن وصلَ إلى الفصلِ، بعد أن انتقى كلَّ الأوائلِ ما حلا لهم من المقاعدِ المميزةِ، ولم أجدْ لنفسي سوى المقاعدِ الخلفيةِ مع الراسبينَ والمشاكسينَ، وبت كاللعبةِ في أيديهم، يستخدمونني في ألاعيبهم ضدَّ المدرسينَ، فأنالُ العقابَ مكانَهم ويفلتونَ، بل ويتظاهرونَ بالالتزامِ على حسابي.

ساءتْ سمعتي ولم أستطعْ تكوينَ صداقاتٍ، كلما شعرتُ بأن أحدَ أترابي يشبهُني، تلجَّمَ لساني وجبُنتُ عن الاقترابِ منه، ودارتْ في رأسي هواجسُ بأنه سيسخرُ مني كغيرِه. بتُّ ألومُ نفسي، وأحثُّها على المُضي قُدمًا، فأتخيلُ أنني صادقتُه وتعاونَّا معًا على درءِ مكائدِ الطلابِ المشاكسينَ، فيشجعُني هذا الخيالُ على المُضي قُدمًا، لكنَّ الشكَّ يتسللُ إليَّ في اللحظاتِ الأخيرةِ فأتقهقرُ، وتتزاحمُ صورتانِ على عقلي؛ رفضُه لصداقتي، وقبولُه بها، سخريتُه مني ومعاونتُه لي، فيتشوشُ عقلي، وتخورُ قوتي، ثم أكفُّ عن التفكيرِ، وأستسلمُ للنوم.

بالرغمِ من كلِّ ما حدثَ، فإنَّ عقلي كانَ يرفضُ الاستسلامَ، بتُ أتخيلُ أنَّ عملًا بطوليًّا في انتظاري، سيُغيرُ مصيري، ويجبرُ كلَّ زملائي ومدرسيَّ على احترامي، وسيسعى الطلابُ من جميعِ الصفوفِ إلى مصادقتي، وسأتمنَّعُ عليهم وأنتقي أفضلَهم، لكنني كنتُ أجهلُ هذا العملَ البطولي (ما هو؟ ومتى يحدثُ؟ وكيفَ

سأقومُ به؟)، ظللتُ أنتظرُ إلى أن دخلتْ علينا إحدى المعلماتِ في يومٍ من الأيامِ، وسألتْ عمَّن يريدُ الاشتراك في الإذاعةِ المدرسيةِ، فخطرَ ببالي على الفورِ أنه عملي البطوليُّ، وفرصتي لإثباتِ جدارتي، ودونَ تفكيرٍ رفعتُ يدي، وكتبتُ اسمي.

فكرتُ في أن إلقائي في اللغةِ العربيةِ قد تحسَّنَ؛ بسببِ إدماني قراءةَ القصصِ، فوثقتُ أنني سأبهرُ الجميعَ، واستقرَّ رأيي على أنْ أطلبَ من المعلمةِ أن أقدِّمَ الإذاعةَ، وبذلكَ أضمنُ أن أُطيلَ مدةَ وقوفي أمامَ الميكروفونِ، ويزدادُ أمدُ استمتاعي بالبطولة.

بمجردِ أن عدتُ إلى البيتِ راودني هاجسٌ بأنني تسرعتُ في مبادرتي للانضمامِ لفريقِ الإذاعةِ، فلم أكنْ قد تحدثتُ أمامَ جمعٍ قط، بل لعلِّي في المواقفِ العاديةِ أخافُ أن أجهرَ برأيٍ، أو يعلو صوتي أمامَ الناسِ، لقد اعتدتُ ألَّا يرتفع صوتي عن حدودِ سمعي، حتى إن أغلب حديثي بيني وبين نفسي، لكنني كلما رأيتُ القصصَ الملقاةَ على مكتبي، وفي أركانِ الغرفةِ اطمأننتُ، وحاولتُ إقناعَ نفسي بأنني قادرٌ على أداءِ المهمةِ على أكملِ وجه.

بدأتُ التمرينَ، أحضرتُ جريدةً قديمةً مما تستخدمُه أمي كمفرشٍ للسفرةِ، قرأتُ ببطْءٍ خوفًا من الخطأ، وحينما كنتُ أتلعثمُ في كلمةٍ أتهجَّاها في سرِّي عدةَ مراتٍ قبلَ أن أصيحَ بها بصوتٍ عالٍ. وثقتُ في نفسي وألهبني الحماسُ، فعلا صوتي، وتسارعَ إيقاعُ قراءتي، ولم أخطئْ إلا قليلًا، فتحمستُ لرؤيةِ نفسي،

واجهتُ المرآةَ الملتصقةَ بإحدى درفِ دولابي، وقفتُ أتأملُ في شكلي قبلَ شروعي في القراءةِ، وحينما بدأتُ القراءةَ لازمني التلعثمُ، تسربَتِ الثقةُ مني، كأنني تبولتُها داخلَ سروالي.

حاولتُ تهدئة نفسي، بإقناعها بأنني لا أتلعثمُ أمامَ المرآةِ، إلا بسببِ التشتتِ بين النظرِ في الجريدةِ والنظرِ إلى نفسي، وأنني سأقدِّمُ الإذاعةَ في المدرسةِ دونَ المرآةِ، فاطمأننتُ بعضَ الشيءِ، وقررتُ ألَّا أنظرَ إليها إلا بعدَ الانتهاءِ من القراءةِ، وبالفعلِ نجحتْ حيلتي، لكنني بمجردِ نظري لنفسي في المرآةِ، تخايلَ إليَّ أن مجموعةً من زملاءِ المدرسةِ مستلقونَ على الأرضِ، وأصواتُ قهقهتِهم عاليةٌ، التفتُّ حولي فلم أجدْهم! لكنَّ صدى ضحكاتِهم ظلَّ يرنُّ في أذنَي وقتًا طويلًا.

ظللتُ فترةً على هذا الوضعِ، تتأرجحُ محاولاتي بين النجاحِ والفشلِ، الثقةِ والشكِّ، تخيلاتي عن سخريةِ التلاميذِ مني، وانبهارِهم بي. كنتُ في أمسِّ الحاجةِ إلى أنْ أقطعَ الشكَّ باليقينِ، أنْ أستقرَّ على حالٍ، فكرتُ في أنْ أتمرَّنَ أمامَ جمهورٍ، فطلبتُ من أمي أن تمثِّلَ دورَ المستمعِ، وكنتُ في ذلك اليومِ قد استلمتُ النصَّ الفعليَّ الذي سأقومُ بإلقائِهِ في الإذاعةِ، وكانَ اليومُ التالي، هو اليومُ الذي ستبدأُ فيه البروفاتُ أمامَ المعلمةِ، وبمجردِ أن جلستْ أمي أمامي خفُتَ صوتي، وصارَ بالهمسِ أشبهَ، حاولتُ أن أرفعَه دونَ جدوى، كنتُ كمن يتحدثُ إلى نفسِه، فسخرتْ مني وخرجتْ من الغرفةِ بحُجةِ انشغالاتِها.

لم أنمْ طوالَ الليلِ، وقررتُ الهربَ كعادتي، لم أكنْ أملكُ حيلةً سوى التمارُضِ، لكنَّ أمي فطنتْ إليَّ، ورفضتْ غيابي، وأجبرتْني على الذهابِ إلى المدرسةِ. وقفتْ أمامَ بابِ المدرسةِ حتى تأكدتْ أنني دخلتُ، راقبتُها من فتحةٍ في البابِ حتى انعطفَتْ وتوارَتْ عن الأعينِ، فخرجتُ من المدرسةِ لا أعلَمُ لي وجهة.

٧

تسمرَتْ قدمايَ بمجردِ أنْ تنبهتُ إلى أنني للتوِّ قد هربتُ من المدرسة، كنتُ أقفُ في مكانٍ وسطٍ، بين البابِ الأسودِ ذي الدرفتينِ المعدنيتينِ، والمنعطفِ الذي انعطفتْ منه أمي متجهةً إلى عملِها، وقفتُ مشدوهًا لا أعلمُ ماذا أصنعُ! فكرتُ في أن أعودَ إلى المدرسةِ، لكنني تراجعتُ، حينما تخيلتُ مصيري في بروفاتِ الإذاعةِ، فكرتُ في أن أركضَ خلفَ أمي وأدَّعي المرضَ من جديدٍ، لكنني خفتُ أن يحدثَ كما حدثَ في المرةِ السابقة.

ظللتُ أُقارنُ بين البدائلِ مترددًا، حتى سمعتُ صوتَ البابِ الحديديِّ يُغلقُ، ارتعشتُ كأن درفته قد أُغلقتْ على جزءٍ من جسدي، اختبأتُ داخلَ إحدى العماراتِ المواجهةِ للمدرسةِ، وانشغلتُ بتخيُّلِ العقابِ المنتظَرِ من والدَيَّ والمعلمين، تعاملَ عقلي مع الموقفِ كأنَّ جريمتي قد افتُضحتْ بالفعلِ، وبتُّ أبحثُ عن مخرجٍ، ترددتُ من جديدٍ بين الاعترافِ بالحقيقةِ، أو اختلاقِ حجةٍ تُبرِّرُ فعلتي.

«بماذا سأخبرُهم؟! سأقولُ الحقيقةَ: «كنت خايف من الإذاعة»، لكنهم حتمًا سيسخرونَ مني: «ليه هيَّ الإذاعة بُعبُع والا عفريت هيطلعلك بالليل»، ثم تتوالى الضحكاتُ من المعلمينَ والتلاميذِ، وحينما يسمعُها أبي ستهبطُ يدُه الغليظةُ على وجهي: «خايف من إيه يا روح أمك»، ولن يمرَّ الأمرُ دونَ شجارٍ مع أمي، تتعالى فيه صيحتُه الشهيرةُ: «آدي تربيتك يا ست هانم، الواد بقى عامل زي النسوان». أليسَ من الأفضلِ أن أقولَ: «خايف أقرا بصوت عالي قدام الناس»؟ لكن ما الفرقُ؟! إن السخريةَ مصيرُها الحتمي أيضًا: «ليه حيعضوك، والا أنت لسه بتتعلم الكلام، نجيبلك بزازة يا ننوس عين أمك». إذن فلن أُخبرَ أحدًا بالحقيقةِ، سأقبرُها بداخلي لأن أحدًا لن يشعرَ بما يعتملُ في نفسي، أو يفهمَني حقَّ الفهمِ. الحقيقةُ أن أحدًا لم يفهمْني أو يشعرْ بي قطُّ، منذُ أن تفتَّحَ وعيي على هذهِ الدنيا. إن الكذبَ هو الملاذُ، سأُخبر أمي أنني خرجْتُ لشراءِ الحلوى من محلِّ «عم طارق» المواجهِ لبابِ المدرسةِ، وتأخرتُ بسببِ الزحامِ وحينما عدتُ وجدتُ بابَ المدرسةِ مُغلقًا، ولم يسمحْ الحارسُ بدخولِي، ولم أجدْ بُدًّا من جلوسي أمامَ المدرسةِ حتى تأتيَ، ثم أستمعُ لكلمتَي تأنيبٍ ويمرُّ الأمرُ بسلامٍ، لكنْ لماذا أتعاملُ مع الأمرِ كأنَّه افتُضحَ بالفعلِ، أليسَ من الممكنِ أن يمرَّ بسلامٍ دونَ فضيحة؟!».

انقطعَ حبلُ أفكاري حينما سمعتُ بابًا يُغلقُ في العمارةِ التي اختبأتُ فيها. لسببٍ ما تخيلتُ أن أحدَ أقاربي سيهبطُ

من هذهِ الشقةِ ويستجوبُني، وتتجمعُ الناسُ حولي، فينفضحُ أمري، مع أنني كنتُ أعلمُ أنه لا يسكنُ هذه العمارةَ أحدٌ من أقاربي. خرجتُ مسرعًا نحوَ الشارعِ، لمحتُ ثلاثةً من تلاميذِ المدرسةِ يسيرونَ أمامي، فكرتُ في أن أسيرَ وراءهم، وضعتُ «الكابيشو» على رأسي لأُخفيَ ملامحي، وسرتُ وراءهم حتى وصلوا إلى منطقةٍ تُسمى «الإسعاف»، وهي ساحةٌ كبيرةٌ بين البوابةِ الرئيسيةِ لاستادِ الإسكندريةِ ومبنى الإسعافِ، ويستغلُّها الصبيةُ في لعبِ الكرة. قابلوا تلميذينِ من مدرسةٍ أُخرى يرتديانِ زيًّا مدرسيًّا ذا لونٍ مختلفٍ، جلستُ على سورٍ حديديٍّ قريبٍ منهم، أشاهدُهم وهم يتجهزونَ للعبِ الكرةِ، بعدَ دقائقَ أتاني أحدُهم يطلبُ مني الانضمامَ إليهم للعبِ الكرةِ؛ فقد كان ينقصُهم لاعبٌ ليكتملوا فريقين.

لعبتُ معهم، أحرزتُ هدفينِ واكتشفتُ في نفسي مهارةً لم آلفْها من قبل، استحسنَ زملاءُ فريقي لعبي، وتمنيتُ أن يسمعَهم «بلبل» ليعرفَ قيمتي كلاعبٍ. أحببتُهم، بخاصةٍ «معتز» الذي دعاني لألعبَ معهم، وتمنيتُ أن أصادقَهم، لكنهم كانوا أكبرَ مني سنًّا، كانوا في الصفِّ الثالثِ، وحينما علموا أنني ما زلتُ في الصفِّ الأولِ، تعجبوا من هروبي من المدرسةِ في سنٍّ مبكرة! شعرتُ حينها بالزهوِّ، ولم أخبرْهم بحقيقةِ الأمرِ؛ حتى لا تتغيرَ نظرتُهم لي.

غادروا المكانَ قبلي، كنتُ أشعرُ بالرغبةِ في البقاءِ؛ فقد أحببتُ المكانَ، لكنني خشيتُ أن أتأخرَ على موعدِ انصرافِ الطلابِ فتصلُ أمي قبلي ويُفتضحُ أمري. اتجهتُ إلى المدرسةِ، كانوا يسيرونَ أمامي، ظننتُ أنهم ذاهبونَ إلى المدرسةِ مثلي، حشتُ الخُطى، وطلبتُ منهم أن نسيرَ معًا، وحينما عَرفوا وِجهَتي، سألني «معتز» مستنكرًا:

ـ هو أنت رايح المدرسة تعمل إيه؟

أجبتُ بسذاجةٍ:

ـ هستنَّى ماما تيجي تروحني.

انفجروا ضاحكينَ! وعلَّقَ «معتز» ساخرًا، ثم أتبعَ متباهيًا موجهًا حديثَهُ لصديقيْهِ، بأنه يذهبُ إلى المدرسةِ ويعودُ منها وحدَه منذُ الصفِّ الثالثِ الابتدائي.

أطرقتُ عابسًا، وتباطأتْ خطواتي، حتى تباعدتْ المسافةُ بيننا، اعتملتْ في نفسي مشاعرُ متباينةٌ، كان بريقُ السعادةِ يخفتُ، وحبِّي الوليدُ لمعتز خالطَهُ سخطٌ عليه، وآمالُ التفوقِ الرياضيِّ التي اجتاحتْني في أثناءِ اللعبِ خالطَها شكٌّ، ولمتُ نفسي على عدمِ قدرتي على الدفاعِ عن نفسي. حينما اقتربتُ من المدرسةِ تذكرتُ الجُرمَ الذي اقترفتُهُ؛ فجلسَ الخوفُ فوقَ كلِّ تلكَ المشاعرِ، كأنه قمةُ هرمٍ جاثمٍ على أنفاسي!

في طريقِ العودةِ سألتْني أمي كعادتِها عن يومي في المدرسة، اختلقتُ أحداثًا وقصصتُها عليها، لم أكنْ أعرفُ عن نفسي تلكَ

القدرةَ على الكذبِ العفوي! فقد خرجَ مني الكلامُ بتلقائيةٍ وثقةٍ، دونَ تلعثمٍ، شعرتُ بالزهوِّ، وفكرتُ في أن أكتبَ تاريخَ هذا اليومِ على حائطِ غرفتي، متفائلًا بأنني اكتشفتُ فيهِ اثنتينِ من المهاراتِ التي لم أعهدْها في نفسي.

في ذلكَ اليومِ، انشغلتُ بإقناعِ أمي بالسماحِ لي بالذهابِ إلى المدرسةِ والعودةِ منها وحدي، كنتُ على علمٍ بصعوبةِ موقفي؛ فهي عظيمةُ الحدبِ عليَّ، ردتْ بتلقائيةٍ: «ليه؟ بتستعر من أمك!»، لم أكنْ قد ذكرتُ لها أيَّ مبرراتٍ بعدُ، ولا أعلمُ لماذا جالَ بخاطرِها أنني أخجلُ من مرافقتِها، أكدتُ لها أنني أفتخرُ بها، ثم أوضحتُ لها أنَّ كلَّ أصدقائي يذهبونَ ويعودونَ من المدرسةِ وحدَهم، وأنهم يسخرونَ مني، وأريدُ أن أثبتَ لهم أنني لم أعُدْ طفلًا بعدَ الآن، وقادرٌ على الاعتمادِ على نفسي؛ نهرتني وقالت: «وانت سيبتهم يشتموا أمك وسكت؟!»، لم أكن قد ذكرتُ أيَّ شيءٍ يدلُّ على سببِهم لها، ولا أعلمُ أيضًا لماذا فسرتْ الأمرَ على هذا النحوِ، لقد كانت تُؤوِّلُ دائمًا الأمورَ كما تعتقدُ وتتخيلُ، لا كما تحدثُ في الواقع، حتى ظننتُ أنها لم تسمعْني.

في محاولةٍ أُخرى لإقناعِها قلتُ لها: «دي حتى «عبير» بنت طنط عواطف اللي هي أسمها بنت بقت بتروح المدرسة لوحدها»، لكنها ردت بتصميم: «ولو.. ما لناش دعوة بحد.. خليك في نفسك»، يئستُ، وفكرتُ في أن أستعينَ بأبي، قلتُ

لنفسي إنه يدفعني دومًا إلى أن أصيرَ رجلًا، وينهرُني حينما أبدو أمامَه ضعيفًا، أو حينما أتبعُ أمي، فيجبُ أن يساعدَني على تحقيقِ الرجولةِ، لكنني كنتُ أخشى مفاتحتَه.

عادَ أبي، كنتُ في غرفتي، أقضي أغلبَ الوقتِ أمامَ المرآةِ أتدربُ على محادثتِه، وكنتُ بين فترةٍ وأُخرى أضعُ أذني على بابِ غرفتي لأتقصَّى أحوالَه: «صوت الحنفية، وخرير مياه، إذن ما زالَ في الحمامِ، هل أفاتحُه حينما يخرجُ أم أنتظرُ بعد الصلاةِ؟ ربما يكونُ مزاجُه أفضلَ بعدَ الصلاةِ، بل يجبُ عليَّ أن أنتظرَ حتى ينتهيَ من تناولِ الطعامِ؛ لأنه يحبُّ الأكلَ حبًّا شديدًا، لعله مثلي؛ فأنا أكونُ في أسعدِ أوقاتي حينما أتناولُ الحلوى، حينها أشعرُ بأنَّ عقلي يرفعُ جسدي لأعلى فأطير، إذن فالأفضل أن أحادثَه في أثناءِ طيرانه، ربما حينَها يكونُ مستلقيًا فوقَ السحابِ، بينَ اليقظةِ والنومِ، سابحًا بين الأحلامِ، وطعمَ الأكلِ لا يزالُ يدغدغُ مشاعرَه، لا يمكنُ أن يرفضَ طلبي وهو على هذه الحال». هكذا سبحَ عقلي في الأفكارِ، حتى تراءتْ لي صورةُ أبي مستلقيًا فوقَ سحابةٍ على شكلِ بساطٍ، خُيِّلَ إليَّ أنه أخضرُ اللونِ، وأنه مخططٌ كملاعبِ الكرةِ، ويستلقي أبي في ركنٍ من أركانِ المرمى ذي الأضلاعِ الخشبيةِ الثلاثةِ، ثم تراءى لي أنني صعدتُ إليه، ركبتُ سحابةً صغيرةً كمكوكٍ فضائي، كنتُ أرتدي زيَّ الكرةِ، وقفتُ داخل خط الـ١٨، وجدتُ بجواري كرتَي قدم، إحداهما سوداءُ والأخرى بيضاءُ، راقبتُ أبي حتى تأكدتُ أنه يقظٌ، فأخذتُ

أستعرضُ مهاراتي في الكرةِ أمامَه، لكنَّ الكرةَ السوداءَ كانت ثقيلةً لم تسعفْني، فقذفتُ بها بعيدًا، وبرعتُ في المهاراتِ الفرديةِ بالبيضاءِ، فانتبَه لي أبي وجلسَ على السحابةِ متكئًا على قائمِ المرمَى وصفَّقَ لي بحرارة.

ثُبتُ إلى نفسي، لأجدَ أبي قد أنهى طعامَه وذهبَ ليشاهدَ التلفازَ، لمتُ نفسي لعدمِ انتباهي، وشعرتُ بأنَّ الفرصةَ الذهبيةَ التي حلمتُ بها قد تبدَّدت، طارتْ كبخارِ ماءٍ في الهواء، وبينما أنا على تلكَ الحالِ، تسلَّلَ إلى سمعي صوتُ التلفازِ، يذيعُ مباراةَ كرةِ القدمِ؛ فدقَّ قلبي فرحًا.

كانتِ الأوقاتُ التي يشاهدُ فيها أبي مبارياتِ كرةِ القدمِ مصدر سعادةٍ لي، يعمُّ فيها السلامُ البيتَ، فلا ينشبُ أيُّ شجارٍ بينَه وبينَ أمي، وينشغلُ فيها أبي عني؛ فأشعرُ بالحريةِ، وأفعلُ ما يحلو لي، أمَّا في تلكَ اللحظةِ فقد فكرتُ في مشاركتِه المشاهدةِ، وأن الفرصةَ ستكونُ سانحةً لمفاتحتِه في موضوعي، دخلتُ عليه بهدوءٍ، جلستُ على الكنبةِ المجاورةِ له، وسألتُه: «مين ومين يا بابا؟»، رد عليَّ والانفعالُ بادٍ على وجهِه «الأهلي والاتحاد».

تذكرتُ أنَّ أبي قالَ لي ذاتَ مرةٍ أنَّه يُشجعُ الناديَ الأهليَّ دومًا، إلا حينما يلاعبُ ناديَ الاتحاد السكندري، حينها يتمنَّى فوزَ الأخير. تمنيتُ أن يفوزَ نادي الاتحاد حتى يعتدلَ مزاجُه، وأوفَّقُ في مسعاي، لكنْ من متابعتي لتشجيعِه شعرتُ أنَّه لا يُرجِّحُ

كفةَ فريقٍ على الآخرِ، وأنه سيحزنُ إن فازَ أحدُهما، يبدو لي الآنَ أنه كان يعاني صراعًا بين حبِّه للنادي الأهلي وشعورِه بالانتماءِ لنادي المحافظةِ التي نشأَ فيها، هل كان يشعرُ بالخيانةِ إن فرحَ لفريقٍ دونَ غيرِه؟

كان أبي منبهرًا بمهارةِ أحدِ اللاعبينَ فقالَ بحماسٍ: «دي الكورة لازقة في رجله ابن الكلب، ده لعيب شوارع مأصل، جايبها من تحت»، اخترقَتْ كلمةُ شوارعَ أذني، وشعرتُ بالزهوِ، وتمنيتُ أن أخبرَه بأنني أيضًا لاعبُ شوارع، ثم أحكي له عمَّا فعلتُ اليومَ، لكنني خشيتُ العواقبَ، وبدلًا من ذلكَ سألتُه: «بابا، تعرف منطقة اسمها الإسعاف؟». قال إنه يعرفُها جيدًا، ولعبَ فيها الكرةَ أيامَ شبابِه الأول، ثم قصصتُ له ـ مُحرِّفًا الحقيقةَ ـ أنني اليومَ لعبتُ في المدرسةِ مباراةَ كرةِ قدمٍ، وأظهرتُ مهارةً استحسنَها زملائي والمعلمونَ، وأحرزتُ هدفين. نظر إليَّ بشكٍ! ثم قال: «في المدرسة برده والا في الإسعاف»، ارتبكتُ ولم استطعْ الرد، ثم أطرقتُ خجلًا، لكنه أطالَ النظرَ إليَّ ليُشعرني أنه كشفَ أمري، انتظرتُ أن ينهرَني، لكنه لم يفعل! بل وجدتُه يتبادلُ معي الحديثَ بأريحيةٍ وسعادةٍ، كأنه يكافئُني!

انتهى الشوطُ الأولُ بالتعادل، انتهزَ أبي الفرصةَ وحكى لي عن موقفِ كلِّ فريقٍ في جدولِ الدوري، وما يحتاجُ إليه الاتحادُ لتجنبِ خطرِ الهبوطِ لدوري الدرجةِ الثانيةِ، وما يحتاجُ إليه الأهلي للحصولِ على درعِ الدوري. انتهزتُ الفرصة أيضًا

وفاتحتُه في موضوعي، فأيَّدَ موقفي، وقال إنه سيُقنع أمي، وقبل أن أتركَه قالَ لي: «إيه رأيك، تحب أقدملك في اختبارات الكرة في النادي الأوليمبي؟»، لم أصدقَ أُذنَي، وقفزتُ من مكاني وألقيتُ نفسي في أحضانِه بينما أمطرُه بالقبلاتِ وكلماتِ الشكر.

أكملَ أبي حديثَه معي في بدايةِ الشوطِ الثاني، حينما أظهرتِ الكاميرا أشهرَ لاعبي النادي الأهلي، ثم قالَ لي: «يا سلام يا واد يا عمر لو تشرفني وتنجح في الاختبارات، وتبقى مشهور زي طاهر أبو زيد أو حسام حسن، وتروح تلعب في الأهلي»، رددتُ عليه بحماسٍ: «إن شاء الله يا بابا أبقى أحسن منهم كلهم»، ثم أتبعَ: «إنت عارف دول بياخدوا كام؟ ألوف مؤلفة يا ابني، مش تقولي مذاكرة وخيبة».

لم أعِ أهميةَ المالِ بعدُ؛ فلم تحفزْني تلكَ الألوفُ المؤلفةُ؛ لكنني تحفزتُ بشدةٍ؛ لأصبحَ لاعبَ كرةٍ مشهورًا، أظهرُ على شاشاتِ التلفازِ، ويشيرُ الناسُ إليَّ في الشوارعِ، يطلبونَ التقاطَ الصورِ معي، وأرى نظراتِ الفخرِ في عيون أبي وزملاءِ المدرسةِ والمعلمين، كنت أشعرُ برغبةٍ في جعلِ زملائي يندمونَ على أن أحدًا منهم لم يفكرْ في مصادقتي يومًا.

خلالَ الشوطِ الثاني، غابَ عقلي عن الوعيِّ، ولم أنتبهْ لِما حدثَ في المباراة، وبدأتُ أتخيلُ أيامَ مجدي القادمة، كنتُ كلما نظرتُ تجاهَ أبي أشعرُ بحبٍّ لم أعهدْه في نفسي تجاهَه، ورغبةٍ

في تقبيلِه، ويقينٍ بأن صفحةً جديدةً في حياتي تبدأُ. وعلاقتي بأبي الحبيب لن تفسدَ بعد الآن.

عدتُ إلى غرفتي كالمُخدَّر، وصادقَني الخيالُ كعادتِه، لعله أخلصُ صديقٍ يمكنُ أن يفوزَ به إنسان، فلا تخلو صحبتُه من متعة، وأستطيعُ تحقيقَ كلِّ أحلامي معه، وأن أتحدثَ عمَّا يجيشُ في نفسي دونَ خجلٍ، وأن أتخلصَ من كلِّ عيوبي، فأتصالحَ مع نفسي والآخرين.

مرتْ كلُّ أحداثِ اليومِ على عقلي، راقبتُ نفسي بينما أُحرزُ الهدفينِ، وفي كلِّ مرةٍ أشعرُ بلذة لا أرغبُ في مفارقتِها، وأُعلِّقُ على مهارتي «يا ابن اللعيبة»، تخيلتُ أني أُحرزُ هذين الهدفينِ في أماكنَ عدةٍ غيرِ الإسعاف، فقد أحرزتُهما في المدرسةِ بدوري الفصولِ، بينما يشاهدُني كلُّ التلاميذ، ورفعَني زملاءُ فصلي على أعناقِهم، وظلوا يهتفونَ باسمي، ثم أحرزتُهما مع فريقي الجديدِ «النادي الأوليمبي»، تخيلتُ أننا كنا نُلاعبُ نادي الزمالك، وفُزنا عليه بالهدفينِ اللذينِ أحرزتُهما، ولم يرغبْ عقلي في أن يتخيلَ أنني أُلاعبُ النادي الأهلي حتى لا يغضبَ أبي. ثم عرَّجَ بي الخيالُ لأراني أذهبُ إلى المدرسةِ وأعودُ منها وحدي، وأتباهَى أمام زملائي الذين لم تزلْ أمهاتهم تقلُّهم.

كنتُ في غمرةِ نشوتي حينَ سمعتُ صوتَ شجارِ والدَيَّ يترددُ في أذنَي، استأذنتُ الخيالَ للحظاتٍ أتأكدُ فيها مما يحدثُ،

أكَّدتُ عليه ألَّا يغادرَ لأنني سأعودُ قريبًا، ذهبتُ جهةَ البابِ بينما يعلو صوتُ الشجارِ الذي أكدَ لي هواجسي، وحينما عدتُ لم أجدْ صديقي!

في تلكَ اللحظةِ كرهتُ أمي وتذكرت كلَّ لحظاتي التعيسةِ معها، وعقابها، وتناسيتُ كلَّ اللحظاتِ السعيدةِ ومكافآتها. بتُّ أغذي عقلي بكلِّ ما يجعلُني أكرهُها، ويؤكدُ لي أنها تكرهُني. جالَ بخاطري أنها تُحبُّ «طنط عواطف» وأبناءها أكثرَ مني؛ لأنها تقضي معظمَ الوقتِ معها، ودائمًا ما تقابلُ أولادَها ببشاشةِ وجهٍ قلَّما تقابلُني بها. يبدو أنَّ هذهِ الأفكارَ كانت سبيلي للتحرُّرِ من مشاعرِ الذنبِ حينما أُصرِّحُ بيني وبين نفسي بكرهي لها.

عزمتُ على ألَّا أذهبَ معها لجدتي إنْ تركتِ البيتَ كما تفعلُ دومًا في المشاجراتِ الكُبرى، أجرَى هذا الخاطرُ ابتسامةً على وجهي؛ لأنني تخيلتُ أنني سأنفردُ بأبي، سنشاهدُ مبارياتِ الكرة بشكلٍ يومي، وسأذهبُ إلى المدرسةِ وحدي، وأهربُ منها كلَّ ثلاثاء للعبِ الكرةِ مع معتز وباقي الشلة، وأعودُ لأحكيَ لأبي ما حدثَ دونَ خوفٍ من العقاب، لكنَّ ابتسامتي استيقظتْ على صوتِ تحطمِ زجاجٍ ترافقُه صرخةٌ من أمي.

هرولتُ بأقصى سرعةٍ ناحيتَها، وعقلي يتخيلُ أسوأَ السيناريوهاتِ متسائلًا: هل أبي ألقى عليها مزهريةَ الصالة؟ هل حدثَ لها مكروهٌ؟ هل تحققتْ أمنيتي على أسوإِ طريقةٍ ممكنة؟

هل سأرى أمي حيَّةً بعد الآن؟ كان قلبي يخفقُ بعنفٍ، وتمنيتُ أن تعودَ الأمورُ لِما كانت عليه منذُ ساعةٍ، فلا أجلسُ مع أبي، ولا أتمنى هذهِ الأمنية. حينما وصلتُ إلى الصالةِ وجدتُ أمي ساقطةً على الأرضِ، تلمستُ ملامحَ الحياةِ في وجهِها، لاحظتُها تغمضُ عينيْها وتفتحُهما متأوِّهةً، تحاولُ القيامَ، بدا لي أنها تعثرتْ في طرفِ السجادةِ، وسقطتْ على طاولةٍ تحملُ مزهريةً، فسقطتْ بدورِها وتناثرَ حطامُها على الأرض.

هممتُ بمساعدتِها، لكنها أشاحَتْ بيدِها، ثم قالت والإشفاقُ بادٍ على ملامحِها: «أبعد أحسن رجلك تتعور».

عدتُ من حيثُ أتيتُ مشفقًا عليها، لكن عزمي لِما نويت لم يفترْ، وبالفعل حينما أزالت آثارَ الزجاجِ، دخلتْ عليَّ غرفتي وأمرتْني بأن أجهِّزَ نفسي لأذهبَ معها إلى جدتي، فرفضتُ بتصميم، فاغتاظتْ وتركتْني قائلةً: «أحسن! خليك قاعد في أرابيز أبوك، وأبقوا وروني بقى هتعملوا إيه من غيري»، كانت تعلمُ أن أبي بالكادِ يستطيعُ أن يصنعَ لنفسِه كوبًا من الشاي؛ لذلكَ كانت تراهنُ على فشلِه في القيامِ بدورِها في البيتِ، وتفوزُ دومًا بالرهانِ دونَ مجهودٍ؛ فأبي، وإن بدا أنه صعبُ المراسِ، قويُّ الشكيمةِ، متحكمُ الرأيِّ، إلَّا أنه يتنازلُ بسهولةٍ عن قراراتِه، وربما عن أيِّ شيءٍ ـ حتى كرامتِه ـ في سبيلِ ألا يتأثرَ مزاجُه الذي يحرصُ عليه كلَّ الحرصِ، ومزاجُ أبي في أن يُخدمَ بينما يجلسُ أمامَ التلفازِ وفي يديْهِ سيجارتُه التي لا تلبثُ أن تنتهي حتى يُشعلَ غيرَها،

وتتوافدُ عليه أكوابُ الشايِّ وفناجينُ القهوةِ، بينما يُقلبُ بين قنواتِ التلفاز، فما إن تنتهي مباراةٌ، حتى ينتظرَ موعدَ المسلسلِ الذي يتابعُ حلقاتِه، وفي السهرةِ يتابعُ فيلمًا عربيًّا أو أجنبيًّا، بينما أطباقُ الحلوى تتناوبُ عليه، حتى يبتلعَه النوم.

يُخيَّلُ إليَّ أنَّ شجاراتِه ـ حتى مع أمي ـ لم تكنْ بالنسبةِ إليهِ إلا أحدَ الأمورِ التي تُقوِّمُ مِزاجَه المعتلَّ؛ فهو لا يريد أن يتسلطَ عليها، أو أن ينتصرَ لرأيِهِ بقدرِ ما يرغبُ في الصراخِ والصياحِ ليُخرجَ شيئًا ما محبوسًا في صدرِه.

تراجعَ أبي وذهبَ إلى جدتي في اليومِ التالي لإحضارِ أمي، شعرتُ أنه خذلَني، وغضبتُ منه؛ لكنَّ غضبي لم يَدمْ طويلًا؛ ففي اليومِ التالي لعودةِ أمي أخبرتْني بموافقتِها على الذهابِ إلى المدرسةِ والعودةِ منها بمفردي؛ لكن بشرط، أن أقومَ بتوصيلِ «عبير» في طريقي، وإعادتِها؛ لأنَّ والدتَها لم تعدْ تطمئنُ لذهابِها بمفردِها إلى المدرسة في الآونةِ الأخيرة. وافقتُ على الفورِ، وشعرتُ بأن امتيازًا جديدًا في طريقِه إليَّ؛ لكنني في قرارةِ نفسي كنتُ أتساءلُ بشكٍّ: كيف سأحميها وهي التي اعتادتْ أن تحميَني من غاراتِ الصبيةِ المشاكسينَ؟! وكيف خُيِّلَ لأمي و«طنط عواطف» أنني قادرٌ على حمايتها؟ تذكرتُ أن «عبير» كانت تتفننُ في إخفاءِ طبيعتِها المشاكسةِ وعنفِها الذكوري عن أمِّها؛ لأنَّ طنط عواطف كانت تعاقبُها بسببِ تقليدِها إخوانَها، وتحذرُها بأنَّ

هذه العادةَ ستُفقدُها أنوثتَها، وستجعلُها «مسترجلة» على حدِّ تعبيرِها، وأنَّ هذا سيؤدي إلى ركودِ سوقِ زواجِها حين تكبر، وكانت تحُثُّها على الرقة. أصبح ادِّعاءُ الطيبةِ والمسالمةِ مزاجًا يُسعدُ «عبير»، ويُزيدُ ثقتَها في نفسِها، فأصبحتْ تتعالَى عليَّ متباهيةً بتعدُّدِ مهاراتِها.

أحببتُ «طنط عواطف» حينما علمتُ أنها مَن أقنعتْ أمي، وتيقنتُ من أنها طيبةُ القلبِ، بل ملاكٌ طاهرٌ، وتعجبتُ في نفسي متسائلًا: كيف يُنجبُ هذا الملاكُ، شيطانًا كـ«عبير»؟! وفكرتُ في أنَّ لطنط عواطفَ هدفًا غيرَ معلنٍ، ظننتُ أنها فعلتْ ذلكَ لأنَّها تريدُني أن أساعدَها في تغييرِ طباعِ «عبير» التي لا تُعجبُها، أمَّا أنا فلم أكُنْ أهتمُّ بتغييرِ «عبير»، بل كنتُ أرغبُ في فرضِ سيطرتي عليها بما خُوِّلَ إليَّ من سلطةٍ عليها.

اكتملتْ فرحتي بعدَ بضعةِ أيامٍ حينما دخلَ أبي عليَّ ليلةَ الثلاثاءِ وأخبرَني بأنَّ اختبارَ كرةِ القدمِ سيُقامُ في صباحِ يومِ الجمعةِ القادم، وأنَّه سيتغيبُ عن العملِ كي يرافقَني، ثم قالَ كلمةً حُفرتْ في عقلي: «اجهز بقى يا بطل، عاوزك تشرفني».

مكتبة ياسمين

٨

متى يتكوَّنُ وعيُ الكتكوت؟ هل يعي وهو جنينٌ داخلَ البيضةِ أم أن وعيَهُ لا يتشكلُ إلَّا بعد الخروجِ منها ورؤيةِ عالمِه الفسيح؟ أتخيلُ أن للكتكوتِ قدرةً على الفهمِ والتفكيرِ حتى وهو منكمشٌ على ذاتِه داخلَ البيضة، وأتصورُ أَن الانتظارَ هو محورُ أفكارِه ومشاعرِه. لعله يشعرُ بأمهِ حينما ترقدُ عليه، ويتمنى ألَّا تقومَ عنه أبدًا حتى لا يفقدَ الدفءَ والأمان، وحينما تبعدُ عنه مضطرةً يقضي وقتَه منتظرًا عودتَها.

تُرى كيف تمرُّ عليهِ أوقاتُ الانتظار؟ هل يتطلعُ نحوَ المستقبلِ بشوقٍ ممنيًا نفسَه بلحظاتِ دفءٍ واطمئنانٍ يتلذذُ بها عند عودةِ أمِّه، أم يقضيها متحسرًا على بُعدِها عنه، مشفقًا على نفسِه من تلكَ اللحظاتِ التي يعيشها بعيدًا عنها في قلقٍ وخوفٍ، أم أن انتظارَه يتخلله مزيجٌ من المشاعرِ بين هذا وذاك؟

لعله أيضًا يقضي أوقاتًا أخرى منتظرًا أن تتشققَ قشرةُ البيضةِ التي تحجبُه عن العالم، فتتفتحَ عيناه، ويرى النورَ ويهجرَ الظلامَ إلى الأبد. تُرى بماذا يشعرُ حينما يرى النورَ لأول مرة؟ هل يسيطرُ

عليه الانبهارُ بالضياءِ، فيُنسيَه الظلمةَ وضيقَ البيضة، ويتمتعُ بالنورِ والبراحِ، أم أنه يحنُّ للظلامِ والضيقِ اللذين ألفَهما فترةً حتى اعتادَ عليهما؟

وبعد أن يقضيَ فترةً خارجَ البيضةِ، ربما حينَها يشعرُ برغبةٍ في الكبرِ، وأن يصيرَ دجاجةً كأمهِ أو ديكًا كوالدِه، فيعيشُ مرةً ثالثةً منتظرًا. وفي حالاتٍ ربما تكونُ نادرةً يرى الكتكوتُ عصفورًا ذا ريشٍ أصفرَ مثلَه، يراه يطيرُ فيتمنى أن يطيرَ مثلَه، وأن يجوبَ العالم. حينَها تتصارعُ الأماني داخلَه، جزءٌ منهُ يتمنى أن يكونَ دجاجةً، وجزءٌ آخرُ يطمحُ أن يطيرَ كالعصفور، فتتنازعُه الرغبتانِ، ويؤلمُه صراعُهما، ويتمنى أن يتخلَّص من هذا الصراعِ وأن يستقرَّ على أمنيةٍ واحدةٍ، أملٍ واحدٍ، حياةٍ واحدةٍ؛ لكن الأمنيتين عظيمتان، ولا تستطيعُ إحداهما التغلبَ على الأخرى، فيقضي بقيةَ عمرِه منتظرًا إنهاءَ الحربِ بينهما، حتى يتسنى له العيشُ في سلام.

* * *

عشتُ يومينِ مترقبًا اختبارَ كرةِ القدمِ بفارغِ الصبرِ، لم يخلُ هذانِ اليومانِ من سعادة، بل لعلهما أسعدُ ما عشتُ من أيام. لم أهتمَّ بوحدتي، ولم أشعرْ داخلَ المدرسةِ بأنني منبوذٌ، ولم أخجلْ من السيرِ وحدي وسطَ التلاميذ، بل سرتُ مزهوًّا بنفسي، مشفقًا على كلِّ تلاميذِ المدرسةِ من أن أحدًا منهم لم يصادقْ

البطلَ «عمرَ عرفان»، قلتُ لنفسي: «مساكين. لا يعرفون عمر الذي سيصيرُ غدًا بطلًا، سيتمنونَ لو أنهم صادقوني من قبل، كانت الفرصةُ ستُتاحُ لهم حينها للتباهي بمعرِفتي، وسيقصُّونَ في مجالسِهم كيف تعرَّفوا عليَّ، وماذا يجدونَ في صحبتي، وكيف أنني أتمتعُ بمزايا عديدةٍ بجانبِ مهاراتي الكروية، سيحكونَ عن طيبتي وشهامتي، عن حِلمي على من يُسيءُ إليَّ رغم قدرتي على القَصاصِ منه، وغيرِ ذلك مما يطولُ الحديثُ عنه من شِيمي»، ثم فكرتُ في عدمِ استحقاقِهم هذا الفخرَ، وأنني وحدي من أستحقُّ المجدَ وكلَّ ما يتبعُه من سعادةٍ.

كنتُ أسيرُ جوارَ «عبير» منتصبَ القامةِ، أتمهلُ حينما أمرُّ جوارَ سيارةٍ حتى أرى نفسي في زجاجِها فأزدادُ إعجابًا بها. أحاولُ الاقترابَ من «عبير» حتى يتأكدَ المارةُ من أنها تسيرُ معي. أودُّ أن أقولَ لهم إنها في حمايتي، وإن أمَّها هي من طلبتْ أن أرافقَها خوفًا عليها. لكي أصلَ إلى مدرسةِ «عبير» ـ مدرسةِ العروةِ الوثقى الإعداديةِ بنات ـ كان ينبغي أن أمرَّ على مدرستي أولًا، حينها أتمهلُّ الخُطى ليراني أكبرُ قدرٍ من التلاميذ، وحينما ألاحظُ أحدَهم يتبعني بنظراتِه، أتجاهلُه، وأومئُ لـ«عبير»، وأهمسُ في أذنِها بأي كلامٍ يتفقُ لي، حتى أزيدَ من فضولِ من يتبعُني، ثم أتخيلُ أنه تحدثَ عني لزملائه بانبهارٍ، وأن سمعتي قد سرَتْ بين التلاميذِ كحامٍ للبنات، حيثُ أرافقُهن بطلبٍ من أمهاتِهن خوفًا عليهن، ولسببٍ ما تخيلتُ أن بنجاحي في مهمتي

مع «عبير»، ستتوافدُ عليَّ الأمهاتُ لأرافقَ بناتِهن، فلا يتعرضْن لأذى. تراءى لي أن الأمهاتِ تجمهرنَ على بوابةِ مدرستي يرفعْنَ لافتاتٍ باسمي ويبحثْنَ عني، وبمجردِ رؤيتي تجمعْنَ حولي يتدافعْنَ، كلٌّ منهن تحاولُ أن تصلَ إليَّ قبل الأُخرياتِ حتى ألبِّيَ طلبَها. بعدها رأيتُ التلاميذَ ينظرونَ إليَّ بإكبارٍ؛ لقد أصبحتُ نجمَ المدرسةِ الأولَ، بل نجمينِ في آنٍ واحدٍ، أحمي الفتيات، وأسطعُ في سماءِ الكرةِ السكندرية، بل المصرية.

طوالَ سيري إلى المدرسةِ لم يكنْ لي حديثٌ إلا عن الكرة، كنتُ قد بدأتُ شراءَ جريدةِ «الكورة والملاعب» الرياضيةِ بانتظام، أقرأُ كلَّ الأخبارِ، واتفقَ أن هذا العامَ شهدَ تأهلَ منتخبِ مصرَ لكأسِ العالمِ في سابقةٍ لم تحدثْ قبلَ خمسينَ عامًا، ولا يعلمُ أحدٌ متى ستتكرر. عرفتُ لاعبي المنتخبِ، وحفظتُ أسماءَهم وأسماءَ أنديتِهم، وكنتُ أحكي لـ«عبير» كلَّ هذا متباهيًا بمعرفتي، معقبًا بأنني سأكونُ أحدَهم في المستقبل؛ لكنها لم تكنْ تهتمُّ بالكرةِ وتقابلُ حكاياتي بفتورٍ، واندهشتُ كيف تُفوِّتُ على نفسِها متعةَ متابعةِ كرةِ القدم، وكيف تعيشُ دونَها. تعاملتُ مع الكرةِ على أنها فرضُ عينٍ على كلِّ مصري، وبتُّ أتساءلُ كيفَ يطيقُ أحدُهم العيشَ دونَ متابعتها، وظننتُ أن «عبير» ومن لا يهتممْنَ بكرةِ القدمِ مثلها تعيسات.

في أغلبِ الأوقاتِ كانت تُقاطعُني: «كفاية كورة بقى، أنت ما بتزهقش؟!»، كنت أصمتُ حتى لا يزدادَ غضبُها، وتلتقطَ

هي طرفَ الحديثِ لتحكيَ عن مغامراتِها في المدرسةِ مع صديقاتِها. والحقيقةُ أنني كنتُ أستمعُ لها بشغفٍ، وفي بعضِ الأحيانِ بحسدٍ من قدرتِها على اكتسابِ أصدقاءٍ جُددٍ في طرفةِ عين، دونَ أيِّ مجهودٍ يُذكر، ومن شجاعتِها التي تجعلُها تُلقي بنفسِها في أتونِ أي مغامرةٍ، وتخرجُ منها دونَ عقابٍ؛ لكنني كنتُ أتركُها وفي نفسي رغبةٌ لم ترتوِ من الحَكي، أن أُخرجَ ما في نفسي لأحدٍ. فكرتُ في أنَّ أبي سيُحبُّ الاستماعَ إليَّ، بتُّ أجلسُ إلى جوارِه، وأتحدثُ إليه؛ لكنه لم يكنْ ينتبهُ إلا قليلًا، كان دائمَ الشرودِ أمامَ التلفازِ يكتفي بالإيماءِ ليوهمَني بأنه ينصتُ إلى حديثي ويوافقُ عليه، كنتُ أتمنى أن يقاطعَني، ويسألَني، وأردَّ عليه ونتجاذبَ أطرافَ الحديثِ كما يفعلُ الأصدقاء.

على الرغمِ من احتياجي للصداقةِ الحقيقيةِ في هذا الوقتِ، فإنَّ الحزنَ لم يعرفْ طريقَه إلى نفسي، وكنتُ أعتبرُ أن أيَّ منغصاتٍ في تلك الفترةِ صغائرُ لا يَجدرُ بي الالتفاتُ إليها، ثم وجدتُ في أحلامِ اليقظةِ ملاذًا، فغرقتُ فيها، ولم أخرجْ من مياهِها إلا حينما حانتِ اللحظةُ المنتظرةُ التي كانت بالنسبةِ لي أعظمَ من أيِّ حُلم.

اجتزتُ الاختباراتِ بنجاحٍ، واختارني المدربُ كلاعبٍ في الفريق، بدا لي أن سعادةَ أبي في ذلك اليومِ فاقتْ سعادتي، فلم يكفُّ عن الحديثِ في طريقِ عودتِنا، واشترى لي كلَّ ما أشتهي من الحلوى، حتى بدا لي أنها تكفيني شهرًا.

تحدَّثَ أبي طوالَ عودتِنا عمَّا يمكنُ أن يفعلَه بالأموالِ التي ستُغدَقُ عليَّ، تخيلَ أنني حينما أصلُ إلى عُمرِ الثامنةِ عشرةَ ستنهالُ عليَّ عروضُ الشراءِ من الأنديةِ الكُبرى، وأوصاني بألَّا أختارَ سوى الأهلي؛ وهو على كلِّ الأحوالِ أعظمُ أنديةِ مصرَ ثراءً، وأكثرُها قدرةً على دفعِ الأجور، وأنه كفيلٌ بأنْ يتفاوضَ من أجلي ليصلَ إلى أجرٍ يليقُ بموهبتي، ثم استرسلَ في الأحلامِ بصوتٍ عالٍ كأنه يخاطبُني، غيرَ أنه كان يتحدثُ إلى نفسِه. قال إنه تخلَّى عن الحُلمِ الذي كانَ يراودُه قديمًا بأن يقيمَ مصنعَ خراطةٍ، هذا الحُلم الذي راودَه حينما كان للعمالِ في الدولة شأنٌ، أما الآن فقد فكرَ في أنَّ أنسبَ المشروعاتِ القادرةِ على أن تُدرَّ دخلًا كبيرًا هو امتلاكُ سوبر ماركت ضخمٍ، بأرقى المناطقِ، يبيعُ فيه كلَّ المنتجاتِ غاليةَ الثمنِ المستوردةِ والمحلية.

أغرقَني في أحلامِه حتى فقدتُ لحظتي الخالدةَ. وكانت لي قدرةٌ على التماهي مع أحلامِ الغيرِ وطموحاتِهم، فنسيتُ نفسي وتوحدتُ مع آمال أبي، ولم تخلُ تلكَ اللحظةُ من سعادةٍ؛ فقد شعرتُ بقدرتي على تحقيقِ أحلامِ أقربِ الناسِ إليَّ.

عدتُ إلى البيت، اختليتُ بنفسي في غرفتي؛ لأنعمَ بصحبةِ الخيال. أتساءلُ الآنَ: لماذا كانت خلوتي بالخيالِ هي أكثرُ ما أنتظرُه في يومي؟ ربما لأنني كنتُ في تلكَ الأوقاتِ أحققُ أحلامي في لمحِ البصرِ دونَ انتظارٍ، لم يكن هناك للوقتِ قيمةٌ أو سلطةٌ. إن الخيالَ هو الشيء الوحيدُ الذي أتحكمُ فيه بكاملِ

إرادتي، أحققُ فيه كلَّ شيءٍ، دونَ أن أكونَ مضطرًّا لصراعِ إراداتٍ أُخرى تسيرُ عكسَ رغباتي؛ لكنني في ذلكَ اليومِ خُذلتُ لأولِ مرةٍ من أقربِ الناسِ لقلبي؛ فقد كان عقلي مشوّشًا، أتردَّدُ في أحلامي بين ما يتمناهُ أبي وما آملُه، بينَ هديرِ الجماهيرِ في المدرجاتِ، وصوتِ صريرِ بابِ المحلِّ الصاجِ المتعرِّجِ، بين صورةِ المرمَى والشبكةُ تحتضنُ الكرةَ، ودُرجِ الطاولةِ الذي ترقُدُ فيه الأموالُ، بينَ توافُدِ الجماهيرِ عليَّ لمصافحتي، ورفعي على الأعناقِ، ومرورِ أبي على المحلِّ مادًّا يدَه لتناولِ الغلة.

الأحلامُ لديَّ بمثابةِ صديقٍ لا جسدَ له، شعرتُ بأنني أريدُ معاقبتَه على خيانتِه لي، وظننتُ أنني ببُعدي عنه سيعرفُ قيمتي، ثم يأتي إليَّ طائعًا.

كنتُ أسيرُ بجوارِ «عبير» واصطدمَتْ قدمي بغطاءِ زجاجةِ «كوكاكولا» أحمرَ. فكرتُ في أن صديقي يحتاجُ إلى أنْ يشعرَ بالغيرة. كان الغطاءُ خفيفًا، فأدَّى اصطدامي به إلى أن يبتعدَ عني مسافةً كبيرةً، لا أعرفُ لماذا رأيتُه حينها كرةً، وقلتُ في نفسي آملًا أن يسمعني الخيالُ: إن الكرة هي الصديق الوفي بحقٍّ. ثم نظرتُ إلى نفسي بعجبٍ وشعرتُ بأنَّ قدمي قويةٌ؛ إذ استطاعتْ أن تركلَه بعيدًا، وأن هذا دليلٌ آخرُ على موهبتي، تسارعتْ خطواتي حتى قابلتُ الغطاءَ مرةً أخرى، وبدأتُ ألعبُ به ككرةٍ فأذهبُ بعيدًا وأتركُ «عبير» خلفي، ثم أعودُ إليها، وأراوغُها، وأركلُ الغطاءَ،

وحينما يبتعدُ أهتفُ: «جووووول»، وكانت هي طائشةً تحبُّ اللعبَ والتحدي، فراقتْ لها اللعبةُ، وبدأتْ تُجاريني؛ لكنني كنتُ أمهرَ منها، وتعمدتُ إحراجَها، فأراوغُها ثم أركلُ الغطاءَ بين قدميْها صارخًا: «كوبرري»، وكانت تلك أولَّ مرةٍ تعترفُ فيها «عبير» بمهارتي وتفوُّقي عليها في شيءٍ ما، وكانت سعادتي غامرةً بهذا الاعترافِ، وحينما عدتُ في المساءِ إلى البيتِ وجدتُ أن الخيالَ قد تلقَّنَ الدرسَ، وعادتْ سُلطتي عليه كاملة.

قضيتُ القسمَ الثاني من العامِ الدراسيِّ الأولِ بين المدرسةِ والنادي، وكان أبي يحضرُ بعضَ تدريباتي، وكنتُ حينها أجتهدُ أكثرَ من أي وقتٍ آخر، أنظرُ إليه وهو جالسٌ في المدرجاتِ من فترةٍ إلى أُخرى، أتلمسُ منه بعضَ التشجيع، كنتُ أسعدُ حينما أجدُه في كاملِ تركيزِهِ معي، وهي فتراتٌ قليلةٌ؛ فقد كان يطيبُ له في بعضِ الأوقاتِ أن يشردَ مع سيجارتِه في عالمٍ آخرَ لا أعرفُه، كانت مهاراتي تقلُّ حينها، ويخبو الحماسُ في نفسي، وأنتظرُ إلى أن يعيدَ تركيزَه فأعودُ ماهرًا، وأراوغُ، وأحرزُ الأهداف.

أصبحتُ أفضلَ مهاجمٍ في الفريقِ، هكذا قالَ لي المدربُ حينما وعدني بأنْ أبدأَ أساسيًّا في المباراةِ القادمة، ثم أتبعَ بأنه يعوِّلُ عليَّ كثيرًا في الفوز، أخبرتُ أبي فورًا، ورأيتُ نظرةَ الفخرِ تملأُ عينيهِ، وعدني بأن يأتيَ مع أعمامي لتشجيعي، وللتباهي بي أمامَهم، ولأولِ مرةٍ سيصبحُ لديَ جمهورٌ يعرفُني ويشجعُني

باسمي! راودتني رغبةٌ في أن أخبرَ زملاءَ فصلي، وبالفعلِ تجرأتُ تلكَ المرةَ، ولم يَعُقْني أيُّ تردُّدٍ، كنتُ أتمنى أن أقفَ على مقعدٍ وسطَ الفصلِ وأمسكُ بميكروفون، وأُلقي خطابًا يليقُ بالمناسبة؛ لكنني بالطبعِ لم أفعلْ، واكتفيتُ بإخبارِ زميلي على المقعدِ، وهو بدورِه أخبرَ الفصلَ كلَّه، وحضرَ زملائي الواحدُ تلوَ الآخرِ إلى مقعدي يهنئونني، ووعدني بعضهم بالحضور.

أملتُ في أن يطولَ اليومُ الدراسي؛ فتُتاحُ لي الفرصةُ لمصادقتِهم جميعًا في يومٍ واحدٍ والحديثِ إليهم، فقد كنتُ أتمنى الإفراجَ عمَّا بداخلي من كلامٍ، بدا لي أنني لو تحدثتُ عامًا بأكملِه لن يكفيَني. لم أنتبهْ للدروسِ يومَها، فقد جلستُ بجسدي في الفصلِ وعقلي يتسكعُ خارجَه، رأيتُ أنني أحكي لأصدقائي الجُددِ كلَّ شيءٍ عن حياتي؛ معاناتي، أحلامي المجهضة، وحدتي، تأخري الدراسي، علاقتي الملتبسة بوالدَيَّ، وظننتُ أن انبهارَهم سيزدادُ؛ لأنني تخطيتُ كلَّ تلكَ الصعابِ ونجحتُ دونَ مساعدةِ أحدٍ؛ لكنَّ هاجسًا قطعَ استرسالَ الأحلامِ، وجعلني أتشككُ في قدرةِ تلكَ الحكاياتِ على تأجيجِ انبهارِهم، فانشغلَ عقلي بما يمكنُ أن أتحدثَ به إليهم. لم تكنْ لديَّ الخبرةُ الكافيةُ لتكوينِ أصدقاء، فأصبحَ عقلي يتأرجحُ طوالَ اليوم بين البدائل التي ظننتُ في كلٍّ منها أنها قادرةٌ أن تُعلي من شأني أمامَهم.

بعد يومينِ، تجمَّعَ حولي مجموعةٌ من زملاءِ الفصلِ، وأخبروني بأنهم كتبوا لافتةَ قماشٍ باسمي. تأججتْ أحلامي،

وأصبحتُ في أثناء التمرين ألتفتُ نحوَ المدرجاتِ الفارغةِ متخيلًا أبي وأعمامي جالسين، وأصدقائي يحملونَ اللافتةَ يهتفونَ باسمي، وأنا ألوِّحُ إليهم بيديَّ مبتسمًا. بعد التمرينِ كنتُ أصعدُ إلى المدرجاتِ لمعاينةِ مكانِ جلوسِهم، وتقييمِ زاويةِ رؤيتِهم، جلستُ في أماكنَ متعددةٍ، وكلما رأيتُ الملعبَ وتفاصيلَه من مكانٍ أفضلَ من آخرَ، تمنيتُ أن يجلسوا فيه، ثم أعودُ للملعبِ من جديدٍ، وأتخيل أنني أحرزُ هدفًا، فيخرج أصدقائي عن طورهم، ويهبطونَ إلى الملعب، ويحملونني على الأعناقِ، فيزدادُ وجهي إشراقًا، وأعودُ إلى البيتِ قريرَ العينِ، مغتبطًا.

٩

بدا لي يومُ المباراةِ مشرقًا أكثرَ من أيِّ يومٍ آخرَ، استيقظتُ مبكرًا، نشطًا، شغوفًا، وقبلَ موعدِ المباراةِ بساعتينِ كنتُ مع زملائي في غرفةِ خلعِ الملابسِ، منتظرينَ المدربَ قبلَ بدءِ عمليةِ الإحماءِ؛ لسماعِ تعليماتِه، حينَها راودتْني فكرةُ التسللِ إلى أرضيةِ الملعبِ لأطمئنَّ على وصولِ والدي وأعمامي والأصدقاءِ، وبالفعلِ وجدتُهم جميعًا، كانوا يجلسونَ خلفَ المكانِ المخصصِ للجهازِ الفنيِّ والبدلاءِ، فوجئتُ بأن الأستاذَ «مصطفى عبد العظيم» مدرسَ الألعابِ يجلسُ معَهم، كدتُ أظهرُ إليهم لتحيتِهم؛ لكنني لمحتُ بطرفِ عيني «بلبل»، فدُهشتُ! وبدأَ الخوفُ يدقُّ بابي وتسمَّرتُ مكاني.

لقد أفسدَ عليَّ اللحظةَ! وترددتُ بين الظهورِ للتفاخرِ وبين الاختفاءِ عن أنظارِهم، تخيلت أنني في وسطِ الملعبِ وصوتُ بلبلٍ يعلو: «عمر يا كحول»، «يا لعيب كفتجي»، وغيرها من كلماتِ الذمِّ التي كان يلقيها في وجهي، ثم تخيلتُ أنني ألعبُ في وجودِه، وأضيعُ الأهدافَ خوفًا منه ومن نبرةِ صوتِه التي تفقدُني

ثقتي أمامَ المرمى. كاد أن يفسدَ لحظاتِ زهوي، قررتُ التراجعَ؛ لكنَّ أبي لمحني قُبيلَ استدارتي فأشارَ نحوي، والتفتَ الجميعُ نحوَ إشارتِه؛ فلم أجدْ بُدًّا من التقدُّم. كانت خطواتي بطيئةً، وقلبي يخفقُ، بذلتُ جهودًا مُضنيةً لأُثبِّتَ رأسي ناحيتَهم. دارتْ عيناي بحثًا عن «بلبل» مترقبًا ردةَ فعلِه، كان الجميعُ يلوِّحونَ لي هاتفينَ باسمي، لم أصدقْ عينَي حينما وجدتُ «بلبل» يشاركُهم الهتافَ، بل ويرفعُ لافتةً باسمي، ورقم قميصي (٧). من شدةِ الصدمةِ تلاشتْ أصواتُ الجمعِ، وأصبحَ صوتُه وحدَه يرنُ في أذنَي، عدتُ إلى نفسي، وتبخترتُ في مشيتي، ولوَّحت إليهم بيدي مبتسمًا، كنت فخورًا وسعيدًا بانضمامِ «بلبل» إلى مشجعيَّ، لقد كان أبعدَ شخصٍ أطمحُ في تشجيعهِ وثنائِه عليَّ؛ لكنَّ المعجزةَ حدثتْ، ولم أعلمْ سببًا لحدوثِها.

عدتُ إلى غرفةِ خلعِ الملابسِ مسرعًا، متمنيًا بدءَ المباراةِ، وقلبي يخفقُ بشدةٍ من فَرطِ الحماسِ، وجدتُ مدربَ الفريق قد حضرَ، وبدأَ توجيهاتِه، وبدا لي أن جزءًا منها قد فاتني، غضضتُ الطرفَ، وتابعتُه وهو يرسمُ التشكيلَ على الورقِ، ويشرحُ طريقةَ اللعبِ والدورَ المطلوبَ لكلِّ مركز، كان زملائي في الفريقِ ينظرونَ إليَّ كلما تحدثَ المدربُ عن دورِ المهاجم، كنت أبادلُهم النظراتِ في زهوٍ، شاعرًا بأن شيئًا غريبًا يتوارى خلفَ نظراتِهم، وظننتُ أنهم يحسدونني على موقعي ومهاراتي التهديفيةِ، ويتمنون أن ينالوا هذه المنزلة، ويتمتعوا بمهاراتي نفسها.

في أثناءِ إلقاءِ التعليماتِ لمحتُ لاعبينِ جديدينِ في الفريقِ، نظرتُ إليهما نظرةً فوقيةً لا تخلو من الشفقةِ، فلا بد أنهما سيعانيانَ كما عانيتُ، قبلَ أن يمنحَهما كابتن «أسامة» شرفَ اللعبِ في الفريقِ الأساسي. انتهت المحاضرة، وفي طريقنا للخروجِ إلى الملعبِ لنُجري عمليةَ الإحماء، وجدتُ أحدَ زملائي في الفريقِ ـ وهو يلعبُ في مركزِ صانعِ الألعابِ ـ يربِّتُ على كتفي قائلًا: «هارد لك»، لم أفهمْ، وسألتُه عن قصدِه فأخبرني أن الكابتن أسامة أعلنَ عن التشكيلِ في الفترةِ التي كنتُ متغيبًا فيها، ولم يضُمَّنا إليه «لا أنا ولا أنت!».

لم أصدق! ظننته يمزحُ معي؛ لكن مع جديتِه وإصرارِه بدأَ القلقُ يتسربُ إليَّ، وتذكرتُ تحيةَ أبي وأصدقائي بالملعبِ، وخشيتُ العواقبَ، ثم سألتُه باستنكارٍ: «إزاي؟! ده وعدنا، وبعدين مين اللي هينزل مكانا؟!» التفت نحوَ اللاعبينِ الجديدينِ، كأنه يجيبُ دونَ أن ينبسَ بكلمةٍ، فجنَّ جنوني وسألته: «مين دول؟!»، ثم رددتُ على نفسي قبلَ أن يجيبَ: «دول أول مرة يحضروا معانا.. وما اتمرنوش مع الفريق ولا مرة»، فقال لي والأسى يعلوه، إنه سمع أن لديهم صلةَ قرابةٍ برئيسِ النادي، وتلك تعليماتُ الإدارةِ، ولا يستطيعُ كابتن «أسامة» أن يخالفَها.

ذهبتُ إلى المدرب، للتحققِ من الأمرِ. صدَّق على كلامِ زميلي، وألقى في وجهي حججًا واهيةً عن جاهزيَّتي، حينما واجهتُه بوعدِه لي، قال دونَ مبالاةٍ: «معلش مرة تانية، مش هيحصل

حاجة لما تقعد دكة المرة دي، وبعدين انت متسربع على إيه، انت لسا صغير، والفرص قدامك كتير»، لم أجدْ بدًّا من مواجهتِه بما سمعتُ عن صلةِ قرابةِ اللاعبيْنِ برئيسِ النادي، فهبَّ في وجهي صارخًا: «مش شغلك».

قفزتْ أمامَ عيني صورةُ أبي، وأعمامي، وأصدقائي. لا يمكنُ أن أعودَ إليهم مخذولًا، ولن أسمحَ بسخريةِ «بلبل» وزملاءِ المدرسةِ من جديدٍ، بعد أن تحققتِ المعجزةُ وآمنوا بموهبتي. هل هناك معجزةٌ عمرُها بضعُ دقائق؟! فلأدافع إذن عن معجزتي، ليطولَ عمرُها، ولم يكنْ دفاعي عنها إلا بالتوسلِ، ذهبتُ إلى الكابتن «أسامة»، توسلتُ إليه، بل ركعتُ والدموعُ تنسابُ على وجنتي، استجديتُ موافقتَه على لعبِ هذه المباراةِ فقط لحفظِ ماءِ وجهي أمامَهم، رفضَ ولم ينظرْ إليَّ. بدا لي أن معاناتي ومظهري أمام أصدقائي وعائلتي بالنسبةِ إليه مجردُ «لعب عيال»، أصبحَ خروجي من التشكيلِ مؤكدًا، ومع ذلك ظلَّ الأملُ يراودُني إلى آخر لحظةٍ، كأنَّ معجزةً من السماءِ ستحدثُ لأعودَ سالمًا إلى التشكيل.

خرجتُ من غرفةِ الملابسِ إلى الملعبِ، لإجراءِ عمليةِ الإحماءِ، مطأطئَ الرأسِ، متجنبًا النظرَ نحوَ جمهوري. كنتُ أسمعُ صوتَ هتافِهم يعلو في حماسٍ وهم يرددونَ اسمي، ويرفعونَ اللافتاتِ التي عليها رقمُ قميصي، فأغمضتُ عينَي

بقوةٍ وصممتُ أُذنَيَّ عنهم؛ لكن هيهاتَ؛ فقد كان الصوتُ يعلو ويعلو، حتى تخيلتُه أعظمَ من دوي القنابلِ في ساحاتِ القتالِ، كأنه يتلذذُ بقتلي، فتمنيتُ أن تصطدمَ الكرةُ برأسي بقوةٍ لأفقدَ الوعي، سيكونُ حينَها مبررًا قويًّا للخروجِ من التشكيلةِ الأساسيةِ، بل ولمزيدٍ من المواساةِ المحببةِ إلى قلبي، وبعضِ التمنياتِ الصادقةِ بحظٍّ أوفرَ في المراتِ القادمةِ. بعدها يمكنُني اختلاقُ معركةٍ وهميةٍ مع المدربِ، وادِّعاءُ أنها حدثتْ لاختلافِ وجهاتِ النظرِ، ثم أتبعُها ببعضِ الذمِّ في المدربِ والشكوى من أنه لا يعرفُ شيئًا عن كرةِ القدمِ، ولم يلتحقْ بمهنتِه إلا بالواسطةِ؛ لكنني استيقظتُ من الأحلامِ على صوتِ هتافِهم يعلو أكثرَ فأكثر. لم أجدْ بُدًّا من الالتفاتِ إليهم وتحيتِهم؛ لكنها خرجتْ تحيةً باهتةً، فاترةً، لا روحَ فيها، ولا حياة. كلُّ ذلك وما زالَ خيطُ الأملِ يسكنُني.

أوشكتِ المباراةُ أن تبدأَ، رأيتُ المدربَ المساعدَ يهمسُ في أذنِ كابتن أسامة، مشيرًا إلى المكانِ الذي أجلسُ فيه جوارَ زميلي، الذي تم إقصاؤه معي، فتهللتْ أساريري، وظننتُ أن خيطَ الأملِ الذي تعلقتُ به قد أنقذني من الهلاكِ، وأن كابتن أسامة عادَ لرشدِه فلا يصحُّ إلا الصحيح.

ظلَّ الأملُ يعلو، خاصةً حينما لاحظتُ أن المدربَ المساعدَ يتوجهُ ناحيتَنا، فتخيلتُه يأمرُنا بالاستعدادِ لبدءِ المباراة، ثم التفتُّ إلى أبي و«بلبل» وباقي الأصدقاءِ، ونظرت إليهم نظرةَ تفاؤلٍ

والبسمةُ تعلو وجهي، وما إن وصلَ إلينا، حتى أمرنا بإحضارِ صندوقِ المياهِ من غرفةِ الملابسِ في الحالِ دونَ تأخيرٍ. تسمرتُ مكاني وثبتُّ عينَي على المدرب، كنتُ أرى شفتيْهِ تتحركانِ؛ لكنني لم أعدْ أسمعُ شيئًا، وفي عقلي أمنيةٌ واحدةٌ فقط؛ أن يعودَ الزمنُ إلى الوراء.

رفضَ زميلي تنفيذَ الأمرِ بعصبيةٍ، ملوِّحًا بيديهِ نحوَ المدربِ المساعدِ معربًا عن التمردِ، أعجبتني ردةُ فعلهِ التي كانت تتناسبُ مع قوةِ جسدهِ وصوتِه العالي، وعنفِه التلقائي الذي يظهرُ حتى في سلامِه باليدِ. تمنيتُ في قرارةِ نفسي أن ينجحَ في تمردهِ، ويجبرَ الكابتن على إعادتِه إلى التشكيلِ الأساسي، ظننتُ أن التمردَ على حملِ صندوقِ المياهِ يمكنُ أن يعيدَه إلى التشكيلِ الأساسي، وظننتُ أيضًا أن عودتَه تعني بالضرورةِ عودتي، لذلك تمنيتُ له النجاحَ، بينما كنتُ مترددًا في مشاركتِه التمردَ، يتقدمُ قلبي برغباتِه وسطَ المعركةِ، بينما تتقهقرُ قدماي وإرادتي معًا؛ لكنَّ الأمرَ انتهى إلى رضوخِ زميلي بعد أن هدَّدَه المدربُ المساعدُ أن يظلَّ على الدكةِ طوالَ الموسمِ، فتراجعَ خائفًا.

ذهبْنا معًا إلى غرفةِ الملابسِ وتناولْنا صندوقَ المياه، كلٌّ منَّا يقبضُ عليه من أحد جانبيه مطرقيْنِ بصمتٍ. لم أستطعْ إبعادَ صورةِ أصدقائي من مخيلتي، بدأتْ المباراةُ فورَ وصولِنا، كان أبي، وأعمامي، وأصدقائي يتلفتونَ حولَهم بحثًا عني،

وما إن وقعتْ أعينُهم عليَّ حتى ظهرتِ الصدمةُ على وجوهِهم، وسقطتْ اللافتاتُ من أيديهم. حينها أدرتُ ظهري تاركًا الملعبَ، راكضًا بلا وعي.

* * *

أظلمتِ الدنيا في وجهي، وتملكتْني رعدةٌ، انزويتُ في ركنٍ من النادي، شاردًا في حالي، استباحتْني مشاعرُ متباينةٌ، كنتُ أخشى مواجهةَ أبي و«بلبل» وزملاءِ المدرسة، وشعرتُ بالظلمِ والفشلِ والعارِ في آنٍ واحدٍ. ندمتُ مؤنبًا نفسي على أنها صدَّقتِ الأحلامَ، وسارتْ وراءَ آمالٍ لم تكنْ في الحقيقةِ إلا زيفًا وسرابًا، كرهتُ نفسي، وبدأتُ أتشككُ في كلِّ شيءٍ، وسيطرتْ عليَّ رغبةٌ في الاختفاء.

صادفتُ عمي «عبد الحميد»، وهو ضابطُ شرطةٍ، كان الوحيدَ الذي ظلَّ من جمهوري، وبات يبحثُ عني في كلِّ مكانٍ، جلسَ معي مدةً طويلةً يواسيني، ويلتمسَ الأعذارَ لأبي حينما وجدني حزينًا؛ لأنه تركني وعادَ إلى البيت، سمعتُ منه طرفًا من تاريخِ أبي ومعاناتِه؛ لكنني لم أكن أعرفُ ما علاقةُ تاريخِه بما يحدثُ لي الآنَ، وبمغادرتِه دونَ حتى أن يسمعَ مني ما حدث. كنتُ أشعرُ أنني لا أحتاجُ إلى المواساةِ من عمِّي بل من أبي، أبي فقط، ولن أغفرَ له تخليهِ عني في هذه اللحظةِ أبدًا.

تغيبتُ أسبوعًا عن المدرسةِ، ولم تعارضْ أمي بعدَ أن بدوتُ لها مُحطمًا تمامًا، وباتت تلومُ أبي على ما حدثَ لي. حاولتْ إقناعي بأنني لستُ مذنبًا؛ لأنني صغير، للتوِّ أكملتُ الثانيةَ عشرةَ، هشًّا لم أختبرِ الحياةَ بعدُ، وأنه من الطبيعي في هذا العمرِ أن تُسيطرَ عليَّ أحلامُ مجدٍ خياليةٍ، أما أبي فهو المذنبُ الحقيقي؛ لأنه خلقَ في نفسي تلكَ الأحلامَ الزائفةَ وأجَّجَها بدلًا من أن يدعمَني بخبرتِه بشيءٍ من الواقعية يعيدُ للكفةِ اتزانَها.

لقد وقعَ رأيُ أمي في نفسي موقعًا حسنًا، وبدأتُ أُلقي على أبي تبعةَ ما حدثَ، واستغلتْ هي اقتناعي لتُذكرني بآرائها السابقةِ، قالتْ لي إن قلبَها انفطرَ من كثرةِ ما أخبرتني بأن مستقبلي يجبُ أن يعتمدُ في المقامِ الأولِ على التفوقِ الدراسي، شعرتُ بالندم لتجاهلي آراءها، والتحزُّبِ لأبي؛ لكنَّ شيئًا ما في نفسي يحنُّ للأيامِ التي كنتُ أجلسُ فيها مع أبي نحلمُ معًا، ونخططُ لمستقبلي الكروي، لذلك فقد كانت تمرُّ عليَّ أوقاتٌ أضطربُ فيها اضطرابًا شديدًا، وتتأرجحُ مشاعري بين لومِ أبي وتحميلِه التبعاتِ، وبين الحنينِ له؛ لكنَّ لومَه كان يزدادُ يومًا بعد يومٍ، ويتوارى الحنينُ، خاصة حينما سمعتُه ـ في أثناءِ شجارِه الذي بات يوميًّا في تلك الفترة ـ يُلقي اللومَ عليَّ، ويوصمُني بالفشلِ، ويبرِّئُ نفسَه، ثم يتهمُني بالضعفِ، ويُعيدُ نغمتَه الأثيرةَ بأنني ابن أمي، وأنها مَن أفسدتْني. بكيتُ على حالي، وتمنيتُ أن أدافعَ عن أمي في ذلك

اليومِ أكثرَ من أي وقتٍ مضى؛ لكنني جبُنتُ كعادتي، وعوَّضتُ هذا الجبنَ بانتصاري لرأيِ أمي، حتى أصبحَ يقينًا لا يتزعزعُ داخلي، واقتربتُ منها أكثر، وشعرتُ أنها الوحيدةُ التي تحبُّني، وتستطيعُ إسعادي.

في المدرسةِ صرتُ أضحوكةَ الفصلِ لفترةٍ طويلةٍ، وصارَ كلُّ من أمِلتُ يومًا في مصادقتِهِ عدوًّا لي، وقَلَّتْ رغبتي، أو ربما تلاشتْ في تكوينِ صداقاتٍ، وازدادتْ وحدتي، وحزني، وانطوائي على ذاتي. كنتُ أواجهُ كلَّ هذا باستسلامٍ ويأسٍ، لم أعُدْ أرغبُ في شيءٍ، لقد كفرتُ بكلِّ شيءٍ، بل قل إنني كفرتُ بنفسي ذاتِها، وأصبحتُ أخشى أحلامَ اليقظةِ التي كانتْ في الماضي مصدرَ أملي وسعادتي، وتساءلتُ عن جدواها؛ فوجدتُ أنها لم تكنْ إلا مصدرًا لخيباتِ الأمل، وفكرتُ في أنها تُحقِّقُ سعادةً وقتيةً، وشقاءً أبديًّا، فبدأتُ أقاومُها بكلِّ ما أوتيتُ من قوةٍ؛ لكنها كانت أقوى من أن تُقاوم، فهي رفيقةُ الوحدةِ، بمجردِ أن أختليَ بنفسي تراودُني رغمًا عني.

لم أيأسْ، مضيتُ في طريقِ مقاومتِها، أما هي فقد تحايلتْ، وجدتْ لها متنفسًا؛ فخلقتْ لي متعةً أُخرى مأمونةَ العواقبِ، جعلتني أعيشُ أحلامَ الغيرِ، أتماهى مع رغباتِهم، وتلاشتْ رغباتي، اختفتْ، ابتلعتْها أحلامُ الغيرِ وأمانيهم، وكانت دومًا تُطمئنُني بأنَّه لا خوفَ عليَّ من تلك الأحلامِ، فإنْ تحققتْ؛

سأشعرُ بالرضا، وإنْ لم تتحققْ فلن يكونَ حزني عظيمًا، وسرعانَ ما سيطوي النسيانُ كلَّ شيء.

في تلك الفترةِ لم يكنْ لي رفيقٌ إلا «عبير»، وكانت قد تخلَّتْ عن مشاكستي مؤقتًا، لا شفقةً على حالي، لكن لأنَّ ردةَ فعلي اللامبالية لم تكن تُشجعُها على الاستمرارِ، فقد كان استفزازي هو الوقودُ الذي يدفعُها لمشاكستي. كنا نمضي أوقاتَنا ذهابًا وإيابًا من المدرسة في الثرثرةِ، أو قُل كنتُ أستمعُ لثرثرتِها، وكانت في أغلبِها حكاياتٍ عن مغامراتِها في المدرسةِ، والدروسِ الخصوصيةِ، والمقالبِ التي تُحيكها لأخويْها في البيتِ، فقد كانت دومًا تحاولُ إثباتَ أنها أفضلُ منهما؛ لأنهما يتمتعانِ بامتيازاتِ الذكورةِ دونَها، مع أنها كانت ترى نفسَها لا تقلُّ عن أحدِهما، بل تفوقُهما ذكاءً وجرأةً. حينها كانت تسترسلُ في أحلامِها، وأفكارِها، فتبوحُ لي بأمنياتٍ كثيرةٍ؛ هي أحلامٌ على بساطتِها، كانت شديدةَ الحدبِ عليها.

كنتُ أنشغلُ بآمالها، وأُعبر عن أسفي لأنها لم تحققْ منها شيئًا بعدُ، ثم يتفرَّعُ حديثُنا للوسائلِ التي يمكنُ أن تُساعدَها على تحقيقِ ما تريد. كانت تجنحُ بأفكارِها إلى التمرُّدِ والمغامرةِ، غيرَ عابئةٍ بالمخاطرِ، وكنتُ أكبحُ جماحَ نزواتِها بأفكارٍ أكثرَ مسالمةً، وآمنَ عاقبةً؛ لكنها كانت تسخرُ من تلك الأفكارِ، بل تدفعُها آرائي للعنادِ والتشبثِ بأفكارِها، وكنتُ أواجهُ ذلك التشبثَ بالصمتِ؛

لأنني أثقُ بها أكثرَ من ثقتي بنفسي، وأخشى أن أتشبثُ بأفكاري فتفشلُ، وتُلقي عليَّ باللوم، وتبعةِ خسارتها، بل كنتُ أظنُّ حينها أنها ستتهمُني بأنني بارعٌ في إجهاضِ الأحلامِ التي تخصُّني وغيري، وأنني شؤمٌ عليها وعلى كلِّ من أرافقُه، وقد يتسببُ هذا في قطعِ علاقتِها بي.

كنتُ حينما أختلي بنفسي، أراجعُ حديثَنا، ألومُ نفسي على آرائي التي سخِرتْ منها، وأتخيلُ أنني أبدلتُها آراءً أظنُّ أنها ستُشيدُ بها، وأُدَرِّبُ نفسي على تغييرِ آرائي لترضى عني؛ لكنني حينما أقابلُها، أتراجعُ وأظلُّ أقترحُ عليها الآراءَ المسالمةَ التي تستفزُّها، وتدفعُها للسخريةِ مني، وأقضي أيامًا ولياليَ في صراعٍ بين رغبتي في إرضائِها، وفشلي في تغييرِ طباعي. كادت أحلامي تتسمَّمُ، إلا أن الخيالَ جمحَ بي في يومٍ فحلمتُ بأن «عبير» حققتْ أحدَ أحلامِها بمساعدتي، فوجدتُ حينَها ضالتي، وفكرتُ في أن أتخلَّى عن كلِّ آرائي، وأساعدُها فقط على تنفيذِ ما تراه صوابًا.

صرتُ أكتفي بهزِّ رأسي دليلًا على الموافقةِ، في حضرتِها، وأنظرُ لها نظرات إعجابٍ، ثم أسألُها مشجعًا عن بعضِ التفاصيلِ، فيدفعُها سؤالي للاسترسالِ في وضعِ خطةٍ محكمةٍ لمغامرةٍ مُقترحةٍ، وكانت تسعدُ بذلك سعادةً بالغةً، وحينما ينتهي تدافُعُ أفكارِها وتختمُ حديثَها، تنظرُ لنفسِها نظرةَ رضا، وإليَّ نظرةَ امتنانٍ آسرةً، تجعلُني هذه النظرةُ أتفرَّسُ في ملامحِها واهمًا نفسي

بجمالها، أما في غيرِ تلكَ الأوقاتِ فأنظرُ إلى وجهِها نظرةَ شفقةٍ من قبحِها، وأحمَدُ اللهَ على جمالِ خِلقتي.

حينما كانت ترسمُ لي دورًا في خطتِها، يخبو الحماسُ في عينَي، وأتراجعُ مترددًا، متلعثمًا، ولا أردُّ بجوابٍ قاطعٍ، بل آخذُ في التسويفِ، فتحاصرُني، تارةً بنظراتِها، وتارةً أُخرى بكلامِها الحادِّ الذي يدفعُني للموافقةِ على استحياءٍ، وعندَ التنفيذِ أتراجعُ غيرَ عابئٍ بغضبِها. كنتُ كلما خذلتُها أجلسُ مع نفسي جلساتٍ شديدةَ الوطأةِ، أضطربُ فيها اضطرابًا عظيمًا، وألومُ نفسي على تراجُعِي، وجُبني، متخيلًا حينها أنها تسبُّني، وحينما تقابلُ صديقاتِها تتحدثُ عني وتجعلُني أضحوكةَ مجلسِهن؛ لكنني في نهايةِ كلِّ خلوةٍ، أنجحُ في اختلاقِ الأعذارِ لتخاذُلي، فتارةً أرى أنها فاجأتْني ولم تمهلْني الوقتَ الكافي لتهيئةِ نفسي لمثلِ هذه المهامِ، وتارةً أصفُها بالغباءِ؛ لأنها لا تستطيعُ أن تتعاملَ مع طبيعتي الخاصةِ، وعليها أن تقترحَ مهامَّ تتناسبُ معي، وغيرُ ذلك من أعذارٍ كانت كفيلةً بأن تُخرجَني من حالةِ السخطِ على نفسي.

أخيرًا استطعتُ انتزاعَ رضا «عبير»! أتساءلُ الآن لِمَ كلُّ هذا الحدبِ على إرضائِها؟ هي ليست بالفتاةِ الجميلةِ التي أحبُّ أن أتودَّدَ إليها، كما أنها تُشاكسُني، وتسخرُ مني بلا رحمةٍ، فكرتُ في هذا السؤالِ كثيرًا دونَ قدرةٍ على التيقنِ من الجوابِ، المهمُ

أنني استطعتُ انتزاعَ رضاها، كما تمنيْت. ذاتَ يومٍ كذبتْ على أمِّها قائلةً إنها ستعودُ إحدى صديقاتِها المريضةَ في مستشفى بمنطقةِ «سيدي بِشر»، وهي منطقةٌ تبعدُ عن «محرم بك» مسافةً طويلةً جدًّا، واختارتْ تلك المنطقةَ تحديدًا لتبريرِ طولِ مدةِ غيابِها، وطمأنتْها بأن والدَ إحدى صديقاتِها سيقومُ بتوصيلِها هي وأُخريات، ذهابًا وإيابًا. وبدلًا من أن تذهبَ لعيادةِ صديقتِها خرجتْ للتنزهِ في شوارعِ محطةِ الرمل، مع (شلَّةٍ) لها ميولُ التمرُّدِ نفسُها، تعرفتْ عليهنَّ في أحد الدروسِ الخصوصيةِ، تنزهتْ حتى وقتٍ متأخرٍ من الليلِ، فقد كانت ترى أن السهرَ خارجَ البيتِ امتيازٌ تستحقُّه أكثرَ من أخويهْا اللذينِ ينعمانِ به دونَ معرفةِ قيمتِه، أو قدرتِهما على استغلالِه بأفضلِ طريقةٍ ممكنةٍ، ثم انكشفتْ كذبتُها، فعاقبتْها أمُّها.

في تلك الليلةِ، سمعتُ صراخَها من غرفتي، فأسرعتُ نحوَ أمي وأخبرتُها أن «طنط عواطف» تُعاقبُ «عبير» بالضربِ، وينبغي علينا إنقاذُها، فتحمستْ وأسرعتْ إلى بيتهما، وكنتُ وراءها أراقبُ الموقفَ، حيث فرَّقتْ أمي بينهما، وتشفَّعتْ للفتاةِ عند صديقتِها التي قبلتْ شفاعتَها دونَ كثرةِ نقاشٍ، بل اكتفتْ بسبِّ «عبير» في أثناءِ قيامِها عنها، وفرَّغت غضبَها بالثرثرةِ والشكوى لأمي من طباعِ ابنتِها، ودأْبِها في تقويمِها. غمزتْ لي «عبير» بعينيْها من وراءِ ظهرِ أمِّها، فشعرتُ بسعادةٍ غامرةٍ؛ لأنها فهمتْ

من تلقاءِ نفسِها أنني من حرَّضتُ أمي بالتشفعِ لها، والحقيقةُ أنني كنتُ دومًا أُعجبُ بذكائها الفطريِّ. عدتُ إلى البيتِ مغتبطًا شاكرًا لأمي ما فعلتْ، شاعرًا بامتنانٍ نحوَها لا نظيرَ له.

وفي اليومِ التالي، كانتِ «عبير» أرقَّ ما يكونُ في تعاملِها معي، دفعتْني النشوةُ إلى أن أقترحَ عليها الهربَ من المدرسةِ وقضاءِ الوقتِ معًا، اندهشتْ من مبادرتي، وشجعتْني عليها آملةً أن تكونَ هذه بدايةً جديدةً، وعلامةً على تغيُّرِ طَبعي. كانت سعيدةً بهذا القرارِ أكثرَ من سعادتِها بما فعلتُه أمسِ؛ لأن هذا يعني أنها أثرتْ عليَّ، وهي دائمةُ التباهي بقدرتِها على التأثيرِ فيمن حولَها، وكنتُ أنا عصيًّا على التغيُّرِ، فكانت تشعرُ نحوي بالعجزِ، وأودُّ هنا أن أسجلَ أنها كانت أولَ وآخرَ مرةٍ أبادرُ بشيءٍ كهذا. خلالَ سيرِنا كنتُ أشعرُ من ملامحِ وجهِها ـ على غيرِ العادةِ ـ بالشفقةِ نحوي، وكنتُ أسألُها عن سببِ تلكَ النظراتِ؛ لكنها كانت تراوغُني، ومن فترةٍ إلى أُخرى أشعرُ بأنها على وشكِ البوحِ بما يعتملُ في صدرِها؛ لكنها كلما همَّتْ تراجعتْ، وقبلَ أن نعودَ إلى البيتِ بنصفِ ساعة، باحتْ!

أخبرتْني بأنها تشعرُ بالأسفِ؛ لأنها تواطأتْ مع أمي وأمِّها عليَّ! قالتْها ثم طالَ صمتُها؛ اضطربتُ، وشعرتُ في نفسي بأنَّ أمرًا عظيمًا قد حدثَ، وأن هذا الأمرَ كفيلٌ بأن يُفسدَ عليَّ يومي، ويبدِّلَ سعادتي تعاسةً، وتأرجحتْ مشاعري، بين الندمِ لإلحاحي

عليها بالبَوحِ، والفضولِ الذي يجعلني أتمنى أن تُكملَ ما بدأتْ، عشتُ لحظاتٍ بين الخوفِ والترقُّب، أكملتْ ما بدأتْ وقالتْ لي إن أمي لم تكن تثقُ في قدرتي على الذهابِ وحدي إلى المدرسةِ، ومن ناحيةٍ أُخرى كانت تثق بها ثقةً كبيرةً، وفي الوقت نفسِه كانت تُشفقُ عليَّ من شدةِ إلحاحي للذهابِ إلى المدرسة وحيدًا، فكان الحلُّ أن توهمَني برغبةِ «طنط عواطف» في مرافقةِ «عبير» ذهابًا وإيابًا لحمايتِها، مع أن ما يقصدانِه كان خلافَ ذلك، وشدَّدا على «عبير» بألَّا تُخبرَني بشيءٍ مما دارَ بينهُن.

١٠

الحمامةُ كلمةٌ مؤنثةٌ؛ لكنها في الواقع ذكرٌ!

على الرغمِ من ذكورتِها فإنها تبيض!

يكفي لكلِّ حمامة بيضتانِ لإثباتِ ذكورتِها.

الشائعُ عندنا، أنَّ شرفَ الفتاةِ كعودِ ثِقابٍ، لا يَشتعلُ إلَّا مرةً واحدةً. كلُّ مَن يعولُ أنثى يحرصُ على سلامةِ ذلك العودِ ذي الرأسِ الأحمرِ، ويَطمئنُّ عليه متسائلًا: هل تفحَّمَ أم ما زالَ يحتفظُ بطلاءِه؟

ذاتَ مرةٍ بينما كنتُ أساعدُ أمي في المطبخِ، لاحظتُها تطفئُ عودَ ثقابٍ بمجردِ إشعالِ عينِ موقدِ الغازِ، لم تُلقِ به في القمامةِ كما توقعتُ، بل وضعَتْهُ جانبًا، وبعدَ دقائقَ التقطتْهُ، وأشعلتْه من جديدٍ بتعريضِهِ للعينِ المُوقدةِ، وأشعلتْ به باقي عيونِ الموقدِ الأربع، فعلى الرغمِ من تفحُّمِ الرأسِ الحمراءِ، فإنَّ عودَ الثقابِ استُخدمَ مراتٍ عديدةً، ما دامَ أنَّه لم يحترقْ عن آخرِه، ولهذا فكلما طالَ، كثُرَ استخدامُه، فالمشكلةُ ليست في إشعالِه بقدرِ ما هي في قِصَرِه، إذن فوصمةُ العارِ الحقيقيةُ في القِصَر.

* * *

مرتْ ثلاثةُ أعوامٍ، وصلتُ للصفِّ الأولِ الثانوي، والتحقتُ بمدرسةِ «المشير أحمد بدوي» بشارعِ «منشا»، كانَ حزنُ أمي عظيمًا؛ لأنها مدرسةٌ سيئةُ السُّمعةِ، لا يلتحقُ بها إلا الفاشلونَ، كانت تتمنى أن ألتحقَ بمدرسةِ «العباسية»، وهي مدرسةٌ عسكريةٌ للمتفوقين، سُمعتُها ممتازةٌ. التحقتْ «عبير» بالمدرسةِ التي تقابلُها «مدرسة نبوية موسى الثانوية بنات». خلالَ السنواتِ الثلاثِ السابقةِ، كان الشكُّ في قدراتي ومَن حولي يزدادُ يومًا بعدَ يوم، كلُّ موقفٍ أتعرَّضُ له، أشكُّ في قدرتي على التعاملِ معَه، وكلُّ تجربةٍ تُعرضُ عليَّ أشكُّ في قدرتي على خوضِها، وكلُّ إنسانٍ أقابلُه أتعاملُ معَه بحذرٍ متشككًا في نواياه، وفي قدرتي على إقامةِ علاقةٍ طويلةٍ سويةٍ بيننا، وحينما تطولُ العلاقةُ، أنتظرُ نهايتَها في كلِّ لحظةٍ من اللحظاتِ، بل وأتخيلُ أسوأَ نهايةٍ ممكنة.

أصبحتُ شديدَ التردُّدِ في كلِّ قراراتي؛ كلما عُرِضَ عليَّ أمرٌ فكرتُ فيه طويلًا، وفاضلتُ بين احتمالاتِه، لا أستطيعُ ترجيحَ كفةٍ على الأُخرى، فكلٌّ منهما تحملُ في طياتِها ميزةً وعيبًا. كان عقلي كثيرًا ما يتجاهلُ المزايا ويفكرُ في العيوبِ، كلما تناولَ عيبًا تخيَّلَ العواقبَ التي يمكنُ أن تصيبَني بسببِه، فيتضخَّمُ ويصيرُ في عينَي جبلًا شاهقًا أخشى تسلُّقَه، ولو تسلقتُه سقطتُ من فوقِه صريعًا! هكذا يظلُّ عقلي يفكرُ ويفكرُ، ثم لا يستتبعُ هذا التفكيرَ أيُّ فعلٍ! بات التسويفُ والمماطلةُ طبعينِ أصيلينِ في نفسي لا يفارقاني، وكذلكَ الانتظارُ والترقُّبُ والقلقُ، هم حالي الدائم.

خلالَ تلك الفترةِ كانت علاقتي بوالدَيَّ تسوءُ يومًا بعدَ يوم، تتسعُ الهوَّةُ بيننا؛ فلا أجدُ منهما من يشعرُ بما يعتملُ في نفسي أو يُقدِّرُه، أو حتى يسألُ عنه، لا نتناقشُ إلا فيما يخصُّ روتينَ الحياةِ اليومي، فتعيشُ أمي بين العملِ، وعلاقتِها بجارتِها، والمطبخِ، وتلبيةِ رغباتِ أبي، ولا تخلو حياتُها بالطبعِ من اهتمامٍ بي، وباحتياجاتي؛ لكنه اهتمامٌ ظاهريٌّ، بالطعامِ والشرابِ، الصحةِ والمرضِ، بالمذاكرةِ والواجبِ المدرسيِّ، النجاحِ والرسوبِ، ولم تفكرْ قطُّ في أيِّ شيءٍ آخرَ؛ مشاعري، سعادتي، حزني، فرحي، آمالي، أحلامي، أفكاري. كانت كلما سألتْها «طنط عواطف» عن سببِ الحزنِ البادي في نظرتي، ردَّتْ مستنكرةً، ومدافعةً، كأنها تُلقي عن نفسِها تهمةً ما: «ده واكل، شارب، نايم، وكل طلباته مجابة»، ثم تتابعُ بثقةٍ وتأكيدٍ: «يا أختي ده وحيد أمه، يعني متشال على كفوف الراحة»، ثم تسوقُ إليها دليلًا، فتُخبرُها بما صنعتْ لي اليومَ من أصنافِ الطعامِ التي أحبُّها، فتنظرُ إليها «طنط عواطف» نظرةَ إعجابٍ، وتأييدٍ، فتُسرُّ أمي، ثم تتابعُ مطمَئنةً: «ده فيه غيره مش لاقيين اللقمة ولا الهدمة، ومع ذلك ناجحين ومتفوقين ومشرفين أهاليهم. متحطيش في بالك هو شوية كده وهتلاقيه راق».

ولم يزلْ أبي يعيشُ في صومعتِه الأبديةِ أمامَ التلفازِ، بين الأفلامِ والمسلسلاتِ ومبارياتِ كرةِ القدمِ، والنفخِ في سيجارتِه التي لا تفارقُ فمَه، لم يكن له أصدقاءٌ يشاركُهم اهتماماتُه، أو يجلسُ

معهم في المقهى كلَّ بضعةِ أيام، كزوجِ «طنط عواطف»، بل كان منطويًا، وكان هذا الانطواءُ سببًا يضاعفُ شقائي؛ فوجودُه الدائمُ في البيتِ يُشعرُني بالتقييدِ، ويجعلُني دائمَ الترقُّبِ لنشوبِ شجارٍ بينَه وبينَ أمي، وهي شجاراتٌ صارتْ كثيرةً، ومتنوعةَ الأسباب، إلى درجةٍ تُشعرني بأننا في ساحةِ قتالٍ، وأنني جنديٌّ صغيرٌ يتمنَّى إعلانَ الهُدنةِ، ولو ليوم واحدٍ يغيبُ فيه أبي عن البيت.

كنتُ من جهتي أُنفِّذُ تعليماتِهما بلا نقاشٍ، وبحركاتٍ آليةٍ دونَ مشاعرَ: «كُل، اشربْ، نامْ، ذاكرْ، تسوقْ، ساعدْ، اذهبْ، تعالَ، فكرْ، اِكبرْ، اِعقلْ، اخرسْ»، وكنتُ أجدُ في هذهِ الطاعةِ راحةً تتوافقُ مع طبعي المسالمِ، حتى وإن دفعتْني لفعلِ أمورٍ لا أرغبُها؛ وتكوَّنتْ عندي، نتيجةَ هذا، قدرةٌ عظيمةٌ على التحمُّلِ، وقدرةٌ أعظمُ على تجاهلِ رغباتي والتماهي مع رغباتِ وآمالِ الآخرين، بل وتبنِّيها وإيهامِ نفسي بأنها رغباتي، من صُنعي، ومن بناتِ أفكاري، ومع ذلكَ في بعض الأحيان تنفلتُ مشاعري فأغضبُ؛ لكنني لم أُنفِّسْ هذا الغضبَ في أيٍّ منهما قط، بل كنتُ أقتصرُ على لومِ نفسي، والبكاءِ وحيدًا في غرفتي، وكلُّ تلك العاداتِ صارتْ تتعاظمُ مع الأيام.

وكانت علاقتي بـ«عبير» تتأرجحُ بين الشجارِ والمسالمةِ، بين الحبِّ والبغضِ، الثقةِ والشكِّ، الصداقةِ والقطيعةِ، حتى نظرتي إليها كانت ملتبسةً؛ فلونُ بشرتِها ناصعُ البياضِ كان يقعُ في نفسي موقعًا حسنًا، وصفحةُ وجهِها الرائقِ الخالي من البثورِ أيضًا

كان يروقُ لي؛ لكنَّ عينيها وفمَها وأنفَها كانت من الضخامةِ بما لا يتناسبُ مع وجهِها الصغيرِ، إلى درجةٍ تجعلُني أنفرُ من إطالةِ النظرِ إليها، ومع ذلك فشعرُها الطويلُ الأسودُ الناعمُ يروقُ لي، خاصةً حينما يطيرُه الهواءُ فيغطي وجهَها فلا يظهرُ ما يسوؤني، كما أنها بمجردِ وصولِها للصفِّ الثالثِ الإعداديِّ بدأت تظهرُ مفاتنُ لم أعتدْها فيها، فقد بدَتْ أنوثتُها في عينَي طاغيةً، وأصبحَتِ انحناءاتُ أردافِها كاملةَ الاستدارةِ، غَضَّةً لينةً. وكنتُ أُسَرُّ حينما أراها من الخلفِ، أكثرَ من سروري من مواجهتِها، فقد كانت تبدو لي حينها بلا عيوبٍ.

لم أكن قد بلغتُ الحُلم بعدُ؛ لكنني كنتُ أشعرُ بشيءٍ ما يدغدغُ مشاعري، ويبثُّ السرورَ في نفسي حينما ألمحُ طيف فتاةٍ، سواءٌ ظهرتْ مفاتنُها أم لم تظهرْ. في الحالةِ الأُولى، أجدُ عينَي تتسعان، وضرباتِ قلبي تتسارعُ، وعقلي يتغزلُ في ما يرى صامتًا خجلًا، وشيئًا ما يسكنُ أسفلَ بطني يداعبُني، يطلقُ صرخةَ استغاثةٍ، كأنه حبيسٌ يريدُ أن ينطلقَ؛ لكنني كنتُ أجهلُ كيفَ أحرِّرَه، فيخبو وينكمشُ، حتى يتلاشى.

أمَّا في الحالةِ الثانية، فكنتُ كلما رأيتُ فتاةً محتشمةً، يُثار فضولي، وأتساءلُ عمَّا تُخبئُه تلك الملابسُ الفضفاضةُ، يظنُّ عقلي أنها تُخفي أجملَ قوامٍ وأمشقَه، وأرقَّ جسدٍ وألينَه، وأن الفائزَ بها سيقطفُ منها أنضرَ ثمارٍ وأنضجَها؛ لذلك فهي عظيمةُ الحدبِ على ما تملكُ، فيتضاعفُ فضولي، وأتحينُ الفرصَ لرؤيةِ

أيٍّ من مفاتنِها، ويحلو لي ظهورُ جزءٍ من جسدِها عَرَضًا، كجزءٍ من ساقِها حينَ ترفعُ إحدى رجليها لتصعدَ درجاتِ سُلمِ الحافلةِ العاليةِ، فأُثبِّتُ نظري حتى لا يفوتَني هذا المشهدُ الذي ـ وإنْ كانَ قليلَ الفائدةِ إذا قُورنَ بمشاهدَ لأجزاءٍ أُخرى من الجسد ـ يُضفي الاحتشامُ عليه طابعًا أسطوريًّا ويُثمِّنُهُ في خيالي، ولا أعرفُ لهذا سببًا. لم أكن أكتفي أو أرتوي بتلك النظرةِ الخاطفةِ، فكنتُ أغمضُ عينَي، وأتخيلُ الجسدَ كاملًا، كما يتناسبُ مع ما رأيتُ، لونًا، وطولًا، وعرضًا، فتتجسدُ أمامي إحدى حوريات الجنة.

في تلك الفترةِ من عمري كان الحديثُ عن البلوغِ والجنسِ شائعًا بين التلاميذِ في المدرسةِ، تنبهتُ لهذا الأمرِ سابقًا في الصفِّ الثالثِ الإعدادي، كانت فكرةُ البلوغِ تستأثرُ بعقولِهم أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخرَ، وكان هذا الأمرُ يثيرُ فضولي بالطبعِ؛ لكنني لم أجرؤْ على الحديثِ فيه على الملأِ؛ فقد كنتُ أشعرُ بخجلٍ شديد، بتُّ أسترقُ السمعَ على هذه الأحاديثِ، فأصبحَ لديَّ حصيلةٌ جيدةٌ من المعلوماتِ، وكنتُ متيقنًا من صحتِها دونَ تمحيصِها أو السؤالِ عن صحتِها. كان الزهوُّ يعلوني، وأظنُّ أنني استطعتُ الإلمامَ بالأمرِ أكثرَ من أيِّ طالبٍ آخرَ، ثم أتخيلُ أنني أجالسُ بعضَ الأصدقاءِ، ونتطرقُ في حديثِنا إلى هذا الموضوعِ فأتفاخرُ بمعلوماتي، وأصحِّحُ لهم ما يعرفونَ. والحقيقةُ أن بعضَ ما علمتُه قد أصابَني في البدايةِ بالاشمئزازِ والرغبةِ في التقيؤِ، والبعضَ الآخرَ تعجبتُ له.

كان همُّهم كلُّه مُنصبًّا على هذا العضوِ الغريبِ الذي استيقظَ في جسدِهم فجأةً، وكان أول ما علمتُ وتعجبتُ له أن الطفلَ ينامُ ويستيقظُ ليجدَ نفسَه رجلًا، وتتبعتُ مسارَ هذا الأمرِ لأعرفَ كيفيةَ حدوثِه، فعلمتُ من أكثرَ من مصدرٍ أنهم قد راودتْهم أحلامٌ ممتعةٌ جمعتْهم بفتياتٍ حسناواتٍ، وأدَّى هذا الاجتماعُ إلى نزولِ سائلٍ أبيضَ لزجٍ من مكانِ التبولِ، ثم يستيقظون ونشوةٌ عظيمةٌ تملؤهم.

تعجبتُ من قدرةِ هذا العضوِ على إخراجِ نوعينِ مختلفينِ من السوائلِ، وتساءلتُ في نفسي عن كيفيةِ حدوثِ ذلك، كيف يمكنُ استدعاءُ كلِّ نوعٍ؟ وماذا يحدثُ إذا نويتُ استدعاءَ أحدِهما فحضرَ الآخرُ على غيرِ رغبتي؟ كانت أسئلةً خياليةً لا تخرجُ إلا من شخصٍ لم يختبرِ الأمرَ قطُّ. وسمعتُ أيضًا عن الانتصابِ، وأنَّ هذه العمليةَ لا تحدثُ إلَّا والعضوُ منتصبٌ، وكنتُ قد جربتُ الانتصابَ حينما كنتُ أدافعُ بولي، فكان ينتصبُ عضوي رغمَ إرادتي كلما زادَ حبسي البولَ، كأنه يخلقُ لنفسِه مساحةَ تخزينٍ أكبرَ، وحينما كان يحدثُ ذلك كنتُ أشعرُ بألم، فوقعَ في نفسي أن هذه العمليةَ مؤلمةٌ بالضرورةِ، وكنتُ في بعضِ الأحيانِ أشعرُ فعلًا بألمٍ من كثرةِ الحديثِ عنه، لذلك كنتُ أنتظرُ لحظتي الموعودةَ بمزيجٍ من الترقُّبِ والخوفِ.

وكان يحلو لي في بعضِ الأوقاتِ أن أجلسَ في الصفِّ الأخيرِ من الفصلِ لسببٍ أو لآخرَ، وكنتُ حينَها ألاحظُ بعضَ التلاميذِ في الفترةِ التي تفصلُ بين الحصصِ يُخرجونَ أعضاءهم لبعضِهم،

لا لشيءٍ إلا لمجردِ التباهي بكبرِ حجمِه، وطولِه، وضخامتِه، حيث كانوا يعتقدونَ أن مقدارَ ضخامةِ العضوِ، ومدى طولِه هو الذي يحدِّدُ مدى فحولةِ كلٍّ منهم، وكنتُ أخجلُ من هذا أشدَّ الخجلِ، ولا أجرؤُ على الالتفاتِ نحوَهم، بل أهربُ من المكانِ عدوًا، متضرِّجَ الوجهِ، وكانوا يسخرونَ من خجلي، ويلوكونَ سمعتي بألسنتِهم بأنني خجولٌ كالنساء، وأنني «مخصيٌّ». وكنتُ أبعدُ عنهم لأتحسسَ عضوي للتأكدِ من وجودِه.

عانيتُ في تلك الفترةِ بسببِ تأخرِ بلوغي. شعرتُ بأنني الوحيدُ في المدرسةِ الذي لم يبلغْ بعد، وأخفيتُ هذا الأمرَ خوفًا من وصمةِ عارٍ محتمَلة، وادَّعيتُ بأنني بلغتُ منذ عامينِ، وكنتُ أخشى أن يلاحظَ أحدٌ من زملائي بأن وجهي لم يظهرْ عليه حَبُّ الشباب بعدُ، أو أن شاربي لم يَخُطَّ، أو أن صوتي لم يخشنْ، وحينما كان يتفوَّقُ لي مجالسةُ جمعٍ من التلاميذِ يتحدثونَ في هذا الأمر، أرتعدُ خوفًا، وأبقى صامتًا، حتى لا يلتفتَ إليَّ أحدٌ، فينتبهُ لوجهي، أو يوجِّهُ إليَّ حديثًا فيفتضحُ كذبي، وكنتُ أجاهدُ لأتماسكَ أمامَهم، وأستميتُ في ألَّا يظهرَ قلقي على وجهي، وأحاولُ تقمُّصَ دورِ الواثق الذي لا يخشى شيئًا.

راودَني بسببِ هذا التأخُّرِ خوفٌ مرضيٌّ، وشعرتُ بأنني لستُ رجلًا، لذلك كانت تنتابُني حالاتٌ محمومةٌ من الرغبةِ في إثباتِ الرجولة، فأجلسُ في غرفتي وحيدًا أحاولُ إنزالَ مائي

قصدًا بالحركاتِ الآليةِ التي سمعتُ عنها من زملائي، والتي كانوا يختلفونَ في تسميتِها، فبعضُهم يقولُ عنها «العادة السرية»، وآخرون يسمونَها «ضرب العشرة»، وآخرونَ يطلقونَ عليها «السرتنة»، وكنتُ أنفرُ من التسميةِ الأخيرةِ، وأخافُ الأولى، وتستهويني الثانيةُ؛ لكنني كنتُ أخجلُ من نطقِها بصوتٍ عالٍ، حتى بيني وبين نفسي.

كنتُ أفعلُها بحذرٍ شديدٍ، بعدَ التأكدِ من أنني في البيتِ وحدي، فلم أكنْ قادرًا على فعلِها بينما أسمعُ صوتَ أبي أو أمي، أو حتى حركاتِهم في الخارجِ، وكنتُ أندفعُ لها اندفاعًا محمومًا، راغبًا في إنهائِها بأسرعِ وقتٍ، لا استعجالًا للنشوةِ، إنما للتثبُّتِ من رجولتي، ولدفعِ ما ينتابُني من هواجسَ بسببِ تأخُّرِ البلوغ. كنتُ أشعرُ بأنني مخدرٌ، وأنني لم أكن لأجرؤَ على فعلِها إذا كنتُ واعيًا كلَّ الوعي، أكملُ الحركاتِ الآليةَ اليدويةَ مترقبًا، وَجِلًا، كنتُ في النهاية أُكافأُ بالنشوةِ؛ لكنْ دونَ القذفِ الذي سمعتُ عنه ولم أرَهُ حتى هذا الوقت، فتختلطُ في نفسي مشاعرُ متباينةٌ، بين النشوةِ، والذنبِ، والتعجبِ، وكنتُ أتشككُ بعضَ الأحيانِ في صحةِ ما يُقالُ، وأحاولُ إقناعَ نفسي بأنَّ تلكَ العمليةَ لا ينبغي أنْ يُقذفَ الماءُ في نهايتِها، وطالما أن النشوةَ حضرتْ فلا بأسَ، وبهذا تصحُّ رجولتي؛ لكنني أعودُ وأتذكرُ أن القذفَ من الأمورِ التي أجمعَ عليها كلُّ التلاميذ، وأنه من غيرِ المعقولِ أن يكذبوا جميعًا، فأضطربُ من جديدٍ، باحثًا عن الماء.

كنتُ قد أفلتُّ من التعرُّضِ لعمليةِ «كشف الحمامة» في المرحلةِ الإعداديةِ؛ وهي عمليةٌ يتزعمُها دائمًا قادةُ الشغبِ في المدرسة، وكانت تتمُّ غالبًا وقتَ الفسحةِ، وفي الحمَّامِ أو ما يحيطُ به من أماكنَ خفيةٍ يمكنُ أن يختبئوا فيها عن أعينِ المدرسينَ إنْ كُشفَ أمرُهم، كانوا يسيرونَ في جماعةٍ، ويتخيَّرونَ ضحاياهم بعنايةٍ، يبحثونَ عمَّن يسيرُ وحيدًا بلا صحبةٍ، ومَن يَحدسونَ بأن حمامتَهم صغيرةٌ ليسخروا منهم. كنتُ أخشى من التعرُّضِ لتلك العمليةِ، وحمدتُ اللهَ أن المرحلةَ الإعداديةَ مرَّتْ بسلامٍ، وظننتُ أنني أفلتُّ إلى الأبدِ؛ لكنني وجدتُ أنها في المرحلةِ الثانويةِ أشدُّ شراسةً، فأصبحتُ أسيرُ بجوارِ الحائطِ محاولًا التخفِّي عن عيونِ المشاغبين، أُسرعُ في خُطاي، وأتوارَى خلفَ أيِّ جماعةٍ أجدُها في طريقي، وبمجردِ أن تتمَّ عمليةُ الكشفِ في يوم، أتحرَّرُ من خوفي، ويتملكُني الفضولُ، فأقتربُ من الكاشفينَ والمكشوفِ عنهم، لأتقصَّى نتائجَ العملية، في كثيرٍ من السعادةِ الخفيَّةِ؛ لأن الدورَ لم يُصبنِي.

كنتُ أتأملُ حمامتي في أثناء قضائي حاجتي، متسائلًا عن حجمِها: هل تُعدُّ ضخمةً أم ضئيلةً؟ طويلةً أم قصيرةً؟ وهل هناك مقياسٌ متعارفٌ عليه للحجم، والطول؟ وهل هذا المعيارُ ثابتٌ على الجميعِ أم أن لكلِّ مدرسةٍ معيارُها؟ تُرى ما هي وحدةُ قياسِ الحمامةِ؟ هل تُقاسُ بالسنتيمتر طولًا وعرضًا أم سُمكًا؟

أم أنها تُقاسُ بالبوصةِ كالتلفازِ؟ أم تُقاس بالشِّبرِ؟ أم أنها تُقاسُ بالنظرِ؟ وهل المقياسُ ينطبقُ على الحمامةِ في حالةِ نومِها أم يقظتِها؟ وهل يعيدونَ الكشفَ إنْ وجدوا الحمامةَ نائمةً؟ وهل يمكنُ لتلك العمليةِ أن تفضحَ كذبي في البلوغ؟ عشراتُ الأسئلةِ التي لم أجدْ لها إجابةً، ولم أكن أجرؤُ على السؤالِ عنها علانيةً، وكلما مرَّ الوقتُ دونَ أن أتعرضَ لتلكَ العمليةِ، أُهملُ التفكيرَ فيها، وتتوارى الأسئلةُ التي كانت تشغلُني من قبل. وفي غَمرةِ نسياني، كُشفتْ حمامتي في غفلةٍ مني.

حدثَ ذلك ذاتَ يوم، حينما دافعَني البولُ في الفسحةِ، خشيتُ دخولَ الحمَّامِ، فحبستُ بولي، على أن أُفرجَ عنه بعد تأكُّدي من انتهاءِ عمليةِ الكشفِ لهذا اليوم، وتظاهرتُ بمتابعةِ مباراةٍ لكرةِ قدمٍ قائمةٍ في منتصفِ الِفناءِ، كان يتابعُها عددٌ كبيرٌ من التلاميذِ فاختبأتُ وسطهم، ناحيةَ المرمى، ملتصقًا بعارضتِه الأسطوانيةِ الضخمة. وبعدَ أن سمعتُ الهرَجَ، والمرَجَ، والفضائحَ التي تتبَعُ عمليةَ الكشفِ، دخلتُ الخلاءَ عَدْوًا، مطمئنًّا، تكادُ مثانتي تنفجرُ، فانشغلتُ بها حتى فرغتْ، وبينما أهُمُّ بالخروجِ وجدتُ أحدَ أعضاءِ عصابةِ الكشفِ يقضي حاجتَه، ويتطلعُ نحوي في كثيرٍ من الفضولِ، رأيتُ في عينيهِ نظرةَ تآمرٍ، وتعجُّبٍ، كأنه يُحدِّثُ نفسَه: «كيف أفلتتْ منا هذه الفريسةُ؟!»، ثم ولَّى مُدبرًا، فأوجستُ أنه سيأتي بأصدقائِه، فخطرَ لي أن أختبئَ في المكانِ نفسِه

مع الجماهيرِ الذين يشاهدونَ المباراة؛ لكنني لمحتُهم يركضونَ نحوي، فارتبكتُ «كيف استعدُّوا بهذه السرعةِ؟!» وأخذتُ أعدو في الاتجاهِ المعاكسِ، وقلبي يَخفِقُ بشدة.

أملتُ في أن أُفلتَ منهم، معتمدًا على سرعتي، وفكرتُ في أن أحتميَ بأحدِ المعلمين؛ لكنني خجلتُ من ذكرِ السببِ، فقررتُ أن أتحايلَ وأخبرَ مَن أقابلَه من المعلمينَ بأنَّ أحدًا ما يطاردُني رغبةً في ضربي؛ لكن من سوءِ طالعي وجدتُ اجتماعَ مدرسينَ في غرفةِ ناظرِ المدرسةِ، فتضاعفَ خفقانُ قلبي، فقد خطرَ لي بأنَّ عمليةَ الكشفِ يمكنُ أن تكونَ أكثرَ شراسةً في ظلِّ هذا الجوِّ الخالي من الرقباء، بل وأطولَ أمدًا، وخشيتُ أن يتسببَ هروبي في استفزازِهم، فيكونُ العقابُ أشدَّ.

التفتُّ نحوَهم لِأحتاطَ لنفسي، وجدتُهم قد تفرَّقوا، فتشتتَ فكري بين احتمالينِ؛ أحدُهما أنهم سئموا من مطاردتي، أو ربما وجدوا فريسةً أكثرَ إغراءً مني، فزهدوا في ملاحقتي، والثاني أنهم يخططونَ لمحاصرتي. انشغلَ فكري، فقلَّتْ سرعتي، والتفتُّ نحوَهم مرةً أُخرى فلم أجدْ أحدًا، فأبطأتُ خُطاي متلفِّتًا حولي باحثًا عنهم، وفجأةً وجدتُهم يحيطونَ بي في دائرةٍ، كأنَّ الأرضَ انشقَّتْ عنهم فجأةً، أو هبطوا من السماءِ؛ ارتبكتُ، ولمحتُ بطرفِ عيني ثغرةً في دائرتِهم، لو استطعتُ الخروجَ منها سأتَّجهُ نحوَ مباراةِ الكرة، ثم أختفي وسطَ الجمهور. بالفعلِ نجحتُ

في الفرارِ منها، وتخطيتُ الجمهورَ؛ لكنهم انطلقوا خلفي كالسهامِ، فلم يكنْ بُدٌّ من اختراقِ الملعب، عدوتُ خلالَه، وفي منتصفِه تعثرتْ إحدى قدمَي فسقطتُ، وحينما هممتُ بالوقوفِ مرةً أخرى وجدتُهم فوقي. توقفتِ المباراة، واقتربَت الجماهيرُ من موقعِ الحدث بفضول.

أصبحَ أفرادُ العصابةِ يقتربون مني ببطءٍ، حتى تلاشتْ ملامحُهم من عينَي، ورأيتُهم أشباحًا يرتدون ملاءاتٍ سماويةَ اللونِ، لا تظهرُ منها إلا أعينُهم وأياديهم، اقتربوا أكثرَ فأكثرَ، حتى لامسوا جسدي، تفرقتْ أياديهم بسرعةٍ وخفَّةٍ، كلٌّ منها تعرف هدفَها، فبعضُها قبضَتْ على يدَي، والبعضُ على قدمَي، والبعضُ كمَّمني حتى لا أصرخَ، والبعضُ بدأَ عمليةَ الكشف، وبمجردِ سقوطِ السروالِ وحواشيه، بانتِ الصدمةُ على وجوهِهم، وشهقتْ الجماهيرُ، كأن هدفَ فوزِ فريقِهم أُحرزَ للتوِّ.

لم أفهمْ ما تَعنيهِ تعبيراتُ وجوهِهم إلا بعدَ أن سمعتُ صراخَ أحدِهم: «الحقوا ده الواد عمر لسه مبلغش!»، وعلا الهرجُ والمرجُ، وحضرَ كلُّ فردٍ من الجمهورِ ليتثبَّتَ مما قيلَ بشفقةٍ، أو ظفرٍ، أو شماتةٍ. غابَ عقلي عن الوعيِّ للحظاتٍ، واستيقظتُ على صوتِ أحاديثَ جانبيةٍ، سألَ فيها البعضُ عن الكيفيةِ التي عُرفَ من خلالِها أنني لم أبلغْ، فردَّ صوتٌ خشنٌ، بنبرةِ العارفِ، بأنَّ شَعرَ عانتي لم ينبتْ بعدُ. كانت مقاومتي قد انهارتْ، وكنتُ أرقدُ مستسلمًا،

ولاحظتُ أن أفرادَ العصابةِ انفضُّوا عني، وبينما أهُمُّ بسترِ نفسي، وجدتُ مجموعةً من لاعبي المباراةِ يرفعونني، ويلقونَ بي خارجَ حدودِ الملعبِ، متعجلينَ، من أجلِ إكمالِ المباراة.

لم أستطعْ البقاءَ في المدرسةِ، هربتُ قفزًا من السورِ، وسرتُ شاردًا في الشوارع.

١١

«تماسكْ، لا تبكي، كن رجلًا.. هل يكفي الامتناعِ عن البكاءِ لإثباتِ رجولتي؟! إن مئات التلاميذِ الآنَ مقتنعونَ بأنني لستُ رجلًا.. البكاءُ لن يضرَّني، ولن ينفعَني، فالمصيبةُ قد حلَّتْ، والأخبارُ تسرَّبتْ، وسُمعتي تلوكُها الألسنةُ.. إنَّ الماءَ ينزلُ من عيني، آآآه لو نزلَ من حمامتي، لأمنتُ شرَّ الفضيحة.. ليتني غبتُ اليومَ، فأفلِتَ بحمامتي، ومن أينَ لي بتوقُّعِ ما حدثَ، ليتني أعلمُ الغيبَ... ما هذه الكرة؟ ربما سقطتْ من فوقِ سورِ المدرسةِ، هل هي الكرةُ التي كانوا يلعبونَ بها؟ سأمزِّقُها.. للأسفِ ليس معي سكينٌ، إذن فسأُلقيها بعيدًا حتى يفقدوا أثرَها... لا، إنها تخصُّ هذا الطفلَ الذي يبكي في الشُّرفةِ، ويشيرُ نحوَها، يا له من محظوظٍ! إنَّ كلَّ آلامِه تتلخصُ في فقدانِه الكرةَ، لا الرجولةَ... ما أضخمَها كرةً! تُرى هل لأحدٍ خصيةٌ في حجمِها؟ إذن ماذا سيكونُ حجمُ حمامتِه؟ لعلها في حجمِ ساقِ هذا الحصانِ الذي يتبخترُ إلى جواري، آآآه، لو أن لي حمامةً مثلَها، لكنتُ تفاخرتُ بها أمامَ المدرسةِ كلِّها... ليتهم صبُّوا اهتمامَهم على حجمِ

الحمامة، على الأقلِّ كنتُ سأعرفُ الآن تقييمَها، أقصيرةٌ هي، أم طويلةٌ؟ أضئيلةٌ، أم ضخمةٌ؟.. لن يكُفَّ الطفلُ عن البكاءِ، مسكينٌ، سأُلقي له الكرةَ لعله يبتسمُ، إنه في الطابقِ الرابعِ، يا له من ارتفاعٍ! لن تستطيعَ ركلتي أن تصلَ إلى هذا العلو، سأفشلُ، حتى الأطفالُ سيسخرون مني! يا لي من تعِسٍ! لأتركْه وشأنَه، فليساعدْه أحدٌ غيري، أقوى، أضخمُ، بالغٌ، لديه شَعرٌ في العانةِ كثيفٌ... أو ليساعدْه أبوه، أو أمُّه، فهما أولَى بآلامِه... وأنا، مَن بآلامي؟!.. تقول من؟!.. لا لن أخبرَهما فإنَّ ردودَ أفعالِهما كفيلةٌ بأنْ تزيدَ الأمرَ سوءًا... تخيَّلْ أنهم عرفوا بطريقةٍ أو بأُخرى، كيف ستكونُ صورتي أمامَهما؟ يا لي من تعِسٍ... هل تأخَّر بلوغي بإرادتي؟! ماذا كان يُفترضُ بي أن أفعلَ لتعجيلِ الأمرِ؟ هل لعاملِ الوراثةِ سببٌ في ذلك؟ أتكونُ تعاستي في هذا الأمرِ أيضًا بسببهما؟ لعلَّ أمي هي السببُ؛ فأنا ضعيفٌ مثلُها؛ لكنني ذكرٌ مثلُ أبي، أو يُفترضُ أن أكونَ مثلَه، في النوع فقط... إنَّ وجهَ هذه الفتاةِ جميلٌ، ولونَ زيِّها المدرسيِّ أجملُ، هل ستلتفتُ إليَّ مُعجبةً؟ لِأمحُ آثارَ الدموعِ من وجهي، حتى لا تلحظَها... لماذا هي خارجُ المدرسةِ؟ هل هربَتْ مثلي؟ لكنْ كيف قفزتْ من فوقِ السورِ بهذه التنورة؟! لعل ساقيها كُشفتا، ليتني كنتُ بجوارِ سورِ مدرستِها، فأراهما... لماذا تنظرُ إليَّ هكذا؟! إنني ألمحُ السخريةَ في عينيها؟ هل وصلتْ سُمعتي لمدرسةِ البناتِ بهذه السرعة؟!

ولماذا تركِّزُ بصرَّها على سروالي؟ هل ترغب في التأكدِ من الشائعات؟ سأبعدُ عنها، سأسلُك طريقًا آخرَ».

في تلك الليلةِ نمتُ مبكرًا، أتتني الفتاةُ ذاتُ التنورةِ في المنامِ، كانت تقفزُ من أعلى سورِ مدرستِها، اختبأتُ داخلَ العمارةِ المقابلةِ، أغلقتُ البابَ، وتلصصتُ عليها من ثقبٍ دائريٍّ واسعٍ، بدَتْ لي ساقُها ناصعةَ البياضِ، تعلَّق طرفُ تنورتِها في مسمارٍ بارزٍ بمنتصفِ السورِ، فعلقتْ به التنورةُ، وكُشفَ نصفُها السفليُّ كلُّه. كان ردفاها يكتسيانِ باللونِ الأحمرِ القاني، وتتداخلُ معه دوائرُ بيضاءُ ذاتُ قطرٍ واحدٍ، ارتعشتْ قدمي، وخفقَ قلبي، وأنزلتُ من على كتفي حقيبةَ المدرسةِ، في اللحظةِ التي تمزَّقتْ فيه التنورةُ وعلقَ جزءٌ منها بالمسمارِ. سقطتْ الفتاةُ على الأرضِ تحاولُ سترَ ساقيْها.

هرولتُ نحوَها وأنا أخلعُ سترتي، وألقيتُها على ساقيْها، لففتُها حولَها، نظرتْ إليَّ بامتنانٍ، رفعتْ جذعَها عن الأرضِ، وفتحتْ ذراعيْها عن آخرِهما، ثم ابتسمتْ، بدا لي أنها تدعوني لحملِها، مِلتُ بجذعي نحوَها، شذاها مُسكرٌ، وعيناها ساحرتانِ، رأيتُ فيهما أمواجًا زرقاءَ، تندفع نحوي فتغرقُني، ثم تنحسرُ عني فأسعى وراءها لاهثًا، غيرَ عابئٍ بابتلالي. التقطتُها وانتصبتُ واقفًا، ملمسُها ناعمٌ، وجسدُها غضٌّ لينٌ، ضممتُها إلى صدري، ثم استدرتُ سائرًا نحوَ مدخلِ العمارة. لم أشعرْ بثقلِها، كانت خفيفةً على يدَي، وعلي قلبي أيضًا، تعلقتْ بيديْها على رقبتي،

ورفعتْ رأسَها نحوي، فتقاربَ وجهانا، شعرتُ بدفءِ أنفاسِها، يتسربُ إلى جسدي حتى غمرني، لم أعُدْ أشعرُ ببرودةِ الجوِّ، ولم ألحظْ أن قطراتِ المطرِ بدأتْ في الهبوطِ، لطيفةً، رقيقةً كابتسامتِها. تسارعتْ خُطى قدمَيَّ المرتعشتين، تخطيتُ عتبةَ البوابةِ، وأغلقتُ مصراعِها بكعبِ قدمي اليُسرى، نزلتْ عني، فسقطتْ السترةُ عنها؛ قوامُها رشيقٌ، وساقاها تسطعانِ وسطَ العتمةِ، أطاحتْ بحذائها في الهواءِ، وطِئتْ السترةَ بقدميْها الحافيتينِ، ثم تسلَّلَ إلينا سنا برقٍ من فتحاتِ البوابةِ، أحاطَها بهالةٍ من ضياءٍ، اقتربَتْ مني، طوقتْني بذراعيْها، التصقَ جسدانا، وزفرتْ بأنفاسٍ حارةٍ، ملتهبةٍ، ثم قبلتْني قبلةً طويلةً، في الوقتِ الذي هطلَ المطرُ فيه غزيرًا.

حينما استيقظتُ، شعرتُ بابتلالٍ تحتَ سروالي.

* * *

في تلك الفترةِ، اتخذتُ طريقًا مغايرًا من وإلى المدرسةِ، بعيدًا عن بوابتِها، لأبتعدَ بـ«عبير» عن بؤرةِ الفضيحةِ، خوفًا من تنامي الأخبارِ إليها، ومع ذلك فقد كنتُ أتوجسُ من سريانِ الفضيحةِ إلى مدرستِها؛ فقد كان بعضُ تلاميذِ مدرستِنا يصادقونَ تلميذاتٍ من مدرستِها؛ لكنَّ الأمرَ مرَّ بسلامٍ ولم تعرفْ شيئًا. وكنتُ أُغالي في الاعتدادِ بنفسي أمامَها، لأُداري مشاعرِ العار التي تملَّكتني.

بمرورِ الوقتِ، زهدَ التلاميذُ في ترديدِ فضيحتي، وباتوا يتباهونَ بالسبْقِ في معرفةِ الفضائحِ الجديدةِ، وكنتُ أُغالي في ذكرِ كلِّ ما يُستجدُّ من حالاتِ الكشفِ، وأشعرُ بسعادةٍ بالغةٍ كلَّما نما إلى سمعي خبرُ عمليةٍ جديدةٍ، فأركضُ بأقصى سرعةٍ، في محاولةٍ للِّحاقِ بها ومشاهدتِها كاملةً، مقتربًا من بؤرةِ الحدثِ بشجاعةٍ. وفي طريقي كنتُ أتخيلُ ضحيةَ اليوم، وأتمنى أن تتعرضَ إلى أبشعِ طرقِ الكشفِ، وأن تُفضحَ أشدَّ أنواعِ الفضيحةِ، ثم أسمعُ الحكايةَ من أكثرِ من شاهدٍ، فأُصبحُ بذلكَ المصدرَ الأكثرَ ثقةً لنقلِ المعلومات، وترويجِ الشائعات.

في تلكَ الفترةِ تولَّدتْ لديَّ عادةٌ في مراقبةِ التلاميذ، وكنتُ أميلُ إلى هؤلاءِ ذوي الشخصياتِ القويةِ، أتتبعُهم متأملًا في صمتٍ، وألاحظُ بإعجابٍ كيف يتصرفونَ بحسمٍ، يسيرون بزهوٍ، ويُبهرون الكثيرَ من التلاميذِ ـ وأنا منهم ـ ويثيرون غَيرةَ القليلِ. وكنتُ أُفاضلُ بين مزاياهم، وأتلمسُ مصدرَ القوةِ في كلِّ شخصيةٍ، هذا في ضخامةِ جسدِه، وذاك في نظرةِ عينيهِ الحادةِ، وهذا في شجاعتِه، وذاكَ في عصبيةِ مزاجِه وشراستِه، ثم أحدِّسُ كيفَ سيتصرفون في المواقفِ التي يتعرضونَ لها أمامي، وأُسَرُّ حينما يصحُّ حدسي.

كنتُ كلما سمعتُ شجارًا داخلَ المدرسةِ أو خارجَها، أبادرُ بمشاهدتِه، وأستمتعُ صامتًا متأملًا أطرافَ النزاع. بعد فترةٍ اكتسبتُ خبرةً، وأصبحتُ أتوقعُ النتائجَ وأحلِّلُ الشجارات. أبدأُ

بتأملِ ملامحِ طرفَي النزاعِ، فأوجسُ مَن يتملَّكُه الغضبُ أكثرَ من الآخر، ومَنَ الجاني ومن المَجنيُّ عليه، ومَن أشجعُ من الآخرِ، ومَن يحبسُ مشاعرَ الخوفِ، ثم أتأملُ جسديْهما، وأحدسُ من أقوى من الآخرِ، ومَن كفيلٌ بإنهاءِ الصراعِ لصالحِه، ثم أنظرُ حولَهما، لأصنفَ المتجمهرين، وأتخيلَ من منهم سيغضبُ لصاحبِه ويواليه، ومَن سيجبُن هاربًا، ومن سيكونُ على الحيادِ محاولًا فضَّ الشجارِ وتقليلِ الخسائر.

كانت تتولدُ لديَّ رغبةٌ في أن يتطورَ الصراعُ، ويُصابَ أحدُهم إصاباتٍ بالغةً، وتُعلنَ حالةُ الطوارئ، كنتُ أُمنِّي نفسي بمشاهداتٍ أطولَ وتسليةٍ أكبر، ثم أطوفُ بخيالي متوقعًا أنَّ المدرسةَ قد أُغلقتْ بسببِ أعمالِ الشغبِ، وأنني قضيتُ الوقتَ في البيتِ مستمتعًا بوحدتي في غرفتي.

ذاتَ يومٍ، في نهايةِ الصفِّ الثاني الثانوي، تشاجرَ أحدُ زملاءِ فصلي، وهو «صلاح الرفاعي» مع طالبٍ من مدرسةِ «شدوان» المجاورةِ لمدرستِنا، كان «صلاح» أكثرَ شبابِ الفصلِ قوةً، وإنْ لم يكنْ أضخمَهم جسدًا، وكان أشجعَهم قلبًا، تبدو الصرامةُ على ملامحِه، وعروقُ رقبتِه السمراءِ تنتفخُ حينما يغضبُ، وقوتُه تبدو في يديْه حينما يصافحُ أحدًا، حتى إنني شعرتُ ذاتَ مرةٍ بأنَّ يدي ستنخلعُ عند مصافحتِه. كنتُ أخشى نظرتَه الحادةَ الثاقبةَ التي لا تُعطي مَن يواجهُها فرصةً للتفكيرِ، بل تُجبرُه على الطاعةِ، وعلى الرغمِ من خشيتي من تلكَ النظرةِ حتى حينما تُسلَّطُ على غيري،

فإنني أيضًا كنتُ معجبًا بها، وبقدرتِها على النفاذِ إعجابًا شديدًا. وكانت شجاعتُه لا تبدو فقط مع مَن يكافئُه في القوةِ، بل تتخطى إلى مَن يكبرُه سنًّا، ويفوقُه قوةً، وضخامة.

في ذلك اليومِ، خرجتُ متجهًا إلى مدرسةِ «عبير» لمقابلتِها في مكانِنا المعهود، فوجدتُ تجمهرًا كبيرًا يعطِّلُ حركةَ المرورِ بشارعِ «منشا»، وكانَ «صلاح» في بؤرةِ هذا التجمهرِ، يقفُ شامخًا، ويسحبُ الحزامَ من سروالِه، يقابلُ غريمَه بصدرٍ مفتوحٍ دونَ خوفٍ، وينزلُ على رأسِه بطرفِ الحزامِ الحديديِّ، ويحيطُ به بعضُ زملاءِ فصلي؛ تحسُّبًا لتطورِ الأمرِ، وحولَ خصمِه عددٌ آخرُ من شبابِ مدرستِه، يتحيَّنونَ الفرصةَ لإشعالِ المعركةِ. كانت الشتائمُ تعلو الأفواهَ من الطرفينِ، وبعضُ الواقفينَ يسألونَ عن سببِ الشجارِ، وبعضُ المارةِ من كبارِ السنِّ يحاولون التهدئةَ؛ لكنْ لم ينجحْ أحدٌ في الحيلولةِ دونَ تنامي الصراع؛ فقد التحمتِ الأجسادُ، وصارتْ كتلةً واحدةً تتحركُ كالموجِ الذي يجرفُ كلَّ مَن يقفُ أمامَه.

لمحتُ «عبير» تقفُ في مكانٍ بعيدٍ متطلعةً إلى الشجارِ في فضولٍ وحولَها بعضُ صديقاتِها، تواريتُ عن نظرِها خشيةَ اتهامي بالجُبنِ، اختبأتُ خلفَ شجرتينِ ملتصقتينِ، إحداهما ضخمةٌ، وارفةُ الأوراقِ والظلالِ، والأُخرى ضئيلةٌ، متساقطةُ الأوراقِ، متهالكةٌ، تتكئُ على جارتِها كي لا تسقطَ. رأيتُ من موقعي بعضَ الكشاكيلِ والكتبِ تدهسها الأرجلُ، كان «صلاح»

يستنكفُ الذهابَ إلى المدرسةِ بحقيبةٍ، وبدلًا من ذلك كان يكتفي بكشكولينِ وكتابينِ، متداخلينِ في بعضهم بعضًا، يمسكُها بأطرافِ أصابعِه في استهتارٍ، وقلمٍ يضعُه في جيبِ سروالِه الخلفي. تناولتُ الكشاكيلَ الملقاةً على الطريقِ لأجدَ اسمَ «صلاح» مدونًا على بعضِها، سررتُ، وبتُ أبحثُ عن غيرِها فوجدتُ باقي الكتبِ والكشاكيلِ التي تحملُ اسمَه، وكتبًا أخرى لا تخصُّه، ألقيتُ بها غيرَ عابئٍ.

حملتُ مقتنياتِ «صلاح» بحرصٍ، وكأنني أحملُ كنزًا أخشى ضياعَه، وانشغلتُ بها عن الشجارِ محاولًا إصلاح هيئتِها، وخيالي يسبحُ في مكافأتي المنتظرةِ حينما يعلمُ أنني الوحيدُ من بين زملاءِ الفصلِ الذي اهتمَّ بالتقاطِ متعلقاتِه والحفاظِ عليها، لم أكنْ أطمحُ إلَّا في نظرةِ رضًا، وكلمةِ شكرٍ باسمةٍ، كان ذلك سيَعني لي الكثيرَ، وكنتُ سأعيشُ على ذكراه أوقاتًا طويلةً، وتراءى لي أنني أتباهى أمامَ الزملاءِ بإنقاذي متعلقاتِ «صلاح»، وأحكي لهم عن مكافأتي، وأُهدِّدُ بها عند اللزومِ لِمن أرى في عينيْهِ نظرةَ شرٍّ، فيتراجعُ حينما يعرفُ علاقتي بكشاكيلِ «صلاح».

ثُبْتُ إلى نفسي على صوتِ إنذار الشرطةِ، يبدو أن أحدَهم أبلغَ عن الشجارِ، فوجدتُ التجمهرَ قد انفضَ في لمحِ البصرِ، وركضَ كلٌّ منهم في اتجاهٍ لتضليلِ رجالِ الشرطةِ. راقبتُ «صلاح» بعينَي، وركضتُ خلفه، لكنني فقدتُ أثرَه قبلَ الوصولِ إليه، عدتُ خائفًا من أن تظنَّني الشرطةُ أحدَ المتشاجرينَ. وجدتُ

«عبير»، وسرتُ بجوارِها. في طريقنا بدا الغضبُ على ملامحِها، تساءلتُ في نفسي عن السببِ، وقبلَ أن أسألَها، بادرتْ بالحكي.

كنا نسيرُ بجوارِ مقلبِ قمامةٍ، قامَ أحدُهم بإشعالِ النارِ في بعضِه، فتصاعدَ الدخانُ منه، وكان أحدُ القاطنينَ بالمنطقةِ يحملُ إناءَ ماءٍ محاولًا إطفاءَ النارِ دونَ جدوى، ولم يكن غيرُه من المارةِ أو الساكنينَ يهتمُّ لأمرِ الحريقِ. بدأتْ ثرثرتَها الغاضبةَ بسبِّ فتاةٍ تُدعى «سالي»، ثم ألقتْ عليها اللومَ مؤكدةً أنها سببُ الشجارِ الذي اشتعلَ بين «صلاح»، و«رامي». صمتتْ لحظاتٍ لتلتقطَ أنفاسَها، في الوقتِ الذي خفقَ فيه قلبي انفعالًا، ولم يكنْ ذلكَ الانفعالُ بسببِ ترقُّبِ الأحداثِ التي تستَعدُّ «عبير» لقصِّها، والتي بدا أنها تعرفُها حقَّ المعرفةِ، بل كانَ مصدرُه الشعورَ بالغيرةِ والحمقِ، حينما ذكرتِ الأسماءَ الثلاثة. غابَ عقلي، وتساءلتُ مستنكرًا في نفسي: أتعرفُ «عبير» أسماءَ المتشاجرينَ من الفتيانِ، بل وتعلمُ القصةَ وراءَ شجارِهم، وأنا كالمغفلِ لا أعلمُ شيئًا؟! ثم تساءلتُ: لماذا هي غاضبةٌ والأمرُ لا يتصلُ بها؟ أتكونُ «سالي» صديقتَها؟ لكنْ إن كانت صديقتَها، فلماذا تسبُّها؟ شعرتُ بأن الأمرَ به سرٌّ، وفكرتُ في أن حديثَها يمكنُ أن يُجيب على تساؤلاتي، فثُبتُّ إلى نفسي، وأصختُ السمع.

كانتْ قد استرسلتْ في الحَكي، فطلبتُ منها أن تُعيدَ من البدايةِ، مدَّعيًا الشرودَ مع الحريقِ. بدأتْ مجددًا بعد أن بَكَّتَتْني، وازدادَ غضبُها اشتعالًا. حكتْ لي أن قصةَ حبِّ «سالي» و«صلاح»

بدأتْ مع بدايةِ العامِ الدراسيِّ، حينما تعارفا في درسٍ خصوصيٍّ. واشتعلتْ بعدَها مدرسةُ البناتِ؛ لأن أغلبَ الفتياتِ كُنَّ يعتبرنَ «صلاح» فتى أحلامِهن، فلم تسلمْ «سالي» من مضايقاتِهن، والأمرُ نفسُه حدثَ في مدرستي ومدرسةِ شدوان، فقد كان الشبابُ يعتبرون «سالي» فتاةَ أحلامِهم، واستنكرتْ: كيف للشبابِ أن يعُدُّوا سالي جميلة؟! ثم تساءلتْ عمَّا بها من حُسنٍ ليتمناها كلُّ هذا العددِ منهم؟! ثم عدَّدتْ مساوئها، كما تراءى لها: «دي مسلوعة، وشعرها قصير، ومناخيرها طويلة، ولسانها عايز قطعه». ثم أتبعتْ بأنَّ «صلاح» رأى «سالي» اليومَ تسيرُ مع «رامي» خارجَ المدرسةِ فاشتعلتْ بسببِ ذلك المعركةُ، وتباينتِ التأويلاتُ، فمعسكرٌ من الفتياتِ أسأنَ الظنَّ بـ«سالي»، واتهمْنها بأنها من أشعلتْ نارَ الغَيرةِ بين الفَتَيَينِ عمدًا لتعزيزِ سُمعَتِها وللتأكيدِ على أنها مرغوبةٌ من الجميعِ، ومعسكرٌ آخرُ ألقى اللومَ على «صلاح»، ووصمَه بالغَزِّ، المخدوعِ الذي لم يفطنْ إلى الآن أنَّ «سالي» تتلاعبُ به، والبعضُ ظنَّ في «رامي» الخيانةَ، والمعسكرُ الأخيرُ علَّقَ مستنكرًا بأنَّ كلَّ ما يحدُثُ «لعب عيال».

أطرقتُ ولم أعلِّقْ على الحكايةِ، عبسَ وجهي، وخبَتْ في نفسي رغبتي في الحديثِ، وتضاءلتْ نفسي في عينَي، وتمنيتُ أن أصلَ إلى البيتِ سريعًا؛ لأرتكنَ إلى عزلتي. وكانت هي تنتظرُ تعليقي، فلمَّا يئستْ من سماعِه، باغتتني بزغدة من مرفقِها، وأتبعتْ: «إيه يا أخي، ماشية مع صنم»، فسقطتْ متعلقاتُ

«صلاح» على إثرِ زغدتها، فأسِفَتْ لِما حدثَ، وانحنتْ معي لتساعدَني في التقاطِها، وبينما أهُمُّ بالنهوضِ سمعتُها تقرأُ اسم «صلاح» الثلاثي مندهشةً، وسألتني بلهفة: «إيه ده، أنت تعرف صلاح؟». لمحتُ في عينيها بريقَ الانبهارِ، فتباينتْ مشاعري، علتْ وجهي ابتسامةُ فخرٍ؛ لكن سرعانَ ما تلاشتْ، وقطبتُ جبيني وتساءلتُ في نفسي: «هي كمان عارفة اسم صلاح الثلاثي؟!». ثم شعرتُ برغبةٍ جارفةٍ في أن ألكمَها بقبضةِ يدي في وجهِها، لتسقطَ أرضًا ثم أنهالَ عليها بالسبابِ، وأبصقَ على ملابِسها، ثم أسيرُ نحوَ البيتِ وحدي.

لم تتركْ لي الفرصةَ للردِّ، بل أتبعتْ: «وكمان شايل معاك حاجته»، لم أُعلِّقْ، ولم تنتظرْ تعليقي، بل طلبتْ مني بإلحاحٍ أن أحكيَ لها كيفَ تعرفتُ عليه، وكيفَ يبدو الحديثُ معه عن قربٍ، فأخبرتُها باقتضابٍ بأنه معي بالفصلِ، ولم أُجبْ على الجزءِ الثاني من السؤال. نظرتْ إليَّ متشككةً، وتابعتْ بسؤالٍ عن مدى صداقتِنا؟ هممْتُ بأن أجيبَ؛ لكنني تراجعتُ، كنتُ متأرجحًا بين ردينِ، أولُهما ادِّعاءُ الصداقةِ الحميمةِ، وثانيهما الاكتفاءُ بزمالةِ الفصلِ. تراجعتُ عن اختيارِ الردِّ الثاني؛ خشيةَ أن يخبوَ بريقُ الانبهارِ في عينيْها، وتحمَّستُ للأولِ الذي كان من شأنِه تأجيجُ تلك النظرةِ التي تعلقتُ بها؛ لكنني في ذاتِ الوقتِ خشيتُ افتضاحَ كذبي، فآثرتُ المراوغةَ، وساعدني على ذلكَ أننا اقتربْنا من البيتِ، وسرعانَ ما وصلْنا دونَ أن أحسمَ الأمر.

في المساءِ، فوجئتُ بصوتِ «عبير» تتحدثُ إلى أمي في صالةِ بيتِنا. جاءتْ بحجةِ المذاكرةِ، أخبرتْ أمي وأمها بأنها تحتاجُ لفهمِ بعضِ دروسِ اللغةِ العربيةِ، كانوا جميعًا يعلمونَ أن تلكَ هي المادةُ الأثيرةُ عندي، لا سِيَّما أنني أتقنُها بسببِ عادةِ القراءة. كنتُ حينَها أقرأُ في غرفتي وحيدًا روايةَ «خِدَاع المَرَايا» لأجاثا كريستي، وكانتِ الرواياتُ البوليسيةُ لهذه الكاتبةِ هي الكنزُ الذي اكتشفتُه مؤخرًا، وأقضي معه جُلَّ أوقاتي، غائبًا عن الوجود.

أنسى «عبير»، و«صلاح»، والمدرسةَ، وأبي، وأمي، والمذاكرةَ، حتى حمامتي، وأعيشُ في عوالمِها التي أحلُّ فيها جسدًا، وعقلًا، وروحًا.

قابلتْني ببشاشةِ وجهٍ على غيرِ عادتِها، وجلستْ على كرسي بجوارِ مكتبي، وباتتْ تتأملُ في غرفتي صامتةً. تبادلْنا نظراتٍ أخبرتُها من خلالِها دونَ حديثٍ، بأنني اكتشفتُ كذبَها، وأن عليها مصارحتي بالسببِ الحقيقيِّ وراءَ مجيئها على غيرِ عادةٍ. أخبرتْني بأنها ملَّتْ من المذاكرةِ، ومن البيتِ، ففكرتْ في أن تأتيَ للثرثرةِ، ولإكمالِ حديثِ الظهيرة. لمحتُ في عينيْها شوقًا إلى مواصلةِ الحديثِ، وشغفًا للاستماعِ إليَّ. أشعلتْ هذه الملاحظةُ في نفسي مشاعرَ لم أكنْ قد شعرتُ بها من قبلُ؛ فقد أحسستُ بقيمتي، وأنَّ أحدًا يرغبُ في الحديثِ معي وحدي، دونَ رفيقٍ، أن أحدًا يأتيني قاصدًا، ويفضلُني على غيري.

صمتُّ لحظاتٍ، فكرتُ فيها أن «صلاح» هو السببُ في اهتمامِها المفاجئ، وأنَّ مجردَ اقترانِ اسمي باسمهِ جعلَها ترى كلَّ فضائلِ شخصيتي، ووسامتي؛ فامتننتُ له امتنانًا صامتًا، وتمنيتُ أنَ يعرفَ الجميعُ ـ ولو زُورًا ـ أنني صديقُه. استرسلتُ في أفكارٍ، تراءى لي من خلالِها أنه لا مفرَّ من الكذبِ، وإلَّا فسأفقدُ ما حصلتُ عليه للتوِّ من امتيازاتٍ، لم أظنُّ في يومٍ أنني قادرٌ على الحصولِ عليها، فباتَ حدبي عليها عظيمًا.

استرسلتُ في الكذبِ، مدَّعيًا متانةَ علاقتي بـ«صلاح» وقِدَمَها، وعن قضائنا معظمَ الأوقاتِ معًا، وعن حكاياتِه وثرثرتِه معي التي لا تنقطعُ. قلتُ لها إنه في يومٍ ما صرَّحَ لي بأنَّ هدوئي، وقدرتي الفذةَ على الاستماعِ يدفعانِه للاسترسالِ معي بذكرِ كلِّ ما يعتملُ في نفسِه دونَ تحفُّظٍ أو خوف.

كانت تنصتُ لي ويدُها على ذقنِها، وعيناها تارةً تحلقانِ في سقفِ الغرفةِ، وتارةً تغمضُهما برفقٍ وحنانٍ، حسبتُ أنها تتأملُني في الصورةِ الجديدةِ التي رسمَتْها لي، وكان ذلك يُشجعُني ويدفعُني لاختلاقِ المزيدِ من الأكاذيبِ، وكنتُ في أحيانٍ أشعرُ بالخوفِ حينما أُغالي في الكذبِ، وأتوقعُ أنها ستنهالُ عليَّ بسيلٍ من الأسئلةِ التي يمكنُ أن تتسببَ في فضحِ أمري، إنْ لم تتوافقْ إجاباتي مع ما تعلمُه عن «صلاح»؛ لكنها لم تسأل شيئًا، ولم تُعلقْ، ولم يكنْ منها إلا أنْ جالت بعينيها في الغرفةِ، كأنها تبحثُ عن شيءٍ، وركَّزتْ بصرَها على المكتبِ، حيثُ كتُبي

وكشاكيلي تجاورُ متعلقات «صلاح»، وبعدها بادرتْني بطلبِ كوبٍ من الماءِ، فعرضتُ عليها أن أحضرَ لها كوبًا من العصيرِ، كأنني أضيفُ الكرمَ إلى مآثري التي للتوِّ اكتشفتُها، فوافقتْ. بمجردِ عودتي وجدتُها تستأذنُ في الانصرافِ، مدعيةً أن الوقتَ قد تأخرَ وأنها تُريدُ أن تأويَ إلى فراشِها مبكرًا، فشربتُ العصيرَ وحدي.

١٢

في اليوم التالي، سِرتُ جوارَ «عبير»، أتلفَّتُ حولي، أخشى مصادفةَ «صَلاح»، ودعوتُ اللهَ في نفسي بأن يُمهلَني يومًا واحدًا كي أُصادقَه، وكنتُ أتحلَّى بثقةٍ كبيرةٍ في قدرتِي على الظفرِ بصداقتِه، برغم تذكري كلَّ الإخفاقاتِ السابقة، فقد حسبتُ أن إنقاذي لمتعلقاتِه سببٌ كافٍ للفوزِ بامتنانِه وصداقتِه.

لم يحضرْ «صلاح» في هذا اليوم، ولا اليوم التالي، وفي اليوم الثالثِ لمحتُه في بدايةِ الحصةِ الأُولى جالسًا في الصفوفِ الخلفيةِ كعادتِه. بدأتِ الحصةُ سريعًا، لم تُتَحْ لي الفرصةُ للحديثِ معه، اعتلتْني خيالاتٌ وآمالٌ مُبهجةٌ في أثناءِ الحصةِ، وتخيلتُ أنَّ المعلمَ طلبَ منه أن يفتحَ الكتابَ على إحدى الصفحاتِ ليقرأَ بصوتٍ عالٍ، ولمَّا أخبرَهُ «صلاح» بأن كتابَه قد فُقدَ، مددتُ يديَ إليهِ بمتعلقاتِه وأخبرتُه بما حدثَ، فنظر إليّ بامتنانٍ وشكرني أمامَ الفصلِ، فصفَّقَ لي الجميع.

ثُبتُّ إلى نفسي لأسمعَ صوتَ المعلمِ ينادي «صلاح»، ويطلبُ منه القراءةَ بصوتٍ عالٍ، فارتبكتُ، ولَم أستطعْ حينَها التمييزَ

بين الحلمِ والواقعِ، واستغرقتُ لحظاتٍ حتى تأكدتُ من استيقاظي؛ لكنَّ الوقتَ يداهمُني، وصراخُ المعلمِ يعلو في وجهِ «صلاح»، فوقفتُ وأخبرتُهم ببطولتي دونَ استئذانٍ، وشعرتُ حينَها بأن أحلامَ يقظتي لم تكنْ إلا نبوءةً سارة.

مددتُ إلى «صلاح» يدي بمتعلقاتِه باسمًا؛ لكنه نظرَ إليَّ نظرةَ لومٍ قاسيةً، وتمتمَ بكلامٍ غيرِ مفهوم، ثم تقدَّمَ إليَّ والتقطَ مني الكتبَ بعنفٍ، وعادَ إلى مقعدِه، وبدلًا من أن يُصفِّقَ لي الفصلُ، تعالتْ ضحكاتُهم ساخرينَ، وتركوني في حَيرةٍ من أمري؛ أتساءلُ أسئلةً لا جوابَ لها: ما الذي أغضبَ «صلاح»؟ ولماذا سخرَ زملائي من الموقف؟ ولماذا لم يروني بمظهرِ البطل؟!

في الفُسحةِ قابلني «صلاح» في الفناءِ، وسبَّني بسببِ ما فعلتُه، وأتبعَ موضحًا أنه كان سيتهرَّبُ من المعلمِ لولا غبائي. تبددتْ كلُّ أحلامي في لحظةٍ، وعدتُ إلى البيتِ مبكرًا دونَ انتظارِ «عبير»، وأغلقتُ على نفسي بابَ غرفتي.

حينما أتتْ «عبير» في المساءِ لم أقابلْها، وادَّعيتُ المرض. لم أُغادرْ مخدعي، تقوقعتُ على جسدي، وفي أغلبِ الأوقاتِ كنتُ أسحبُ الغطاءَ على رأسي مرافقًا الظلامَ الدامسَ، وفي أوقاتٍ أخرى كنتُ أرفعُه عن رأسي مُطلِقًا بصري على ما حولي. حاولتُ مقاومةَ الخيالِ، حتى لا أتذكرَ شيئًا مما تعرَّضتُ له، فصرتُ أتأملُ التفاصيلَ التي أراها أمامي، عدَدتُ بُقعَ الضوءِ

المنعكسِ من خصاصِ النافذةِ على الحائطِ، ولعبتُ مع نفسي محاولًا توقُّعَ عددِ السياراتِ التي ستمُرُّ من شارعِنا خلالَ دقيقةٍ، وكم منها سيضيءُ النورَ لينعكسَ على النافذةِ، ومن منها لن يضيئَه، أحاولُ تمييزَ أصواتِ الجيرانِ التي أسمعُها، وأُخمِّنُ انفعالاتِهم، هذا سعيدٌ، ذاك حزينٌ، وهذه تستشيطُ غضبًا، وهذا باردٌ كالثلج.

بعدَ فترةٍ مللتُ! تناوبتْ عليَّ ذكرياتُ اليومِ رغمًا عني، واجتاحتْني كآبةٌ ثقيلةٌ غيرُ محتملةٍ، تململتُ في جلستي، ثم وقفتُ، وأصبحتُ أذرعُ الغرفةَ ذهابًا وإيابًا، ثم جلستُ على مكتبي، ولاحَ لي الكرسي الذي جلستْ عليه «عبير» أولَ مرةٍ منذُ أيامٍ، فتذكرتُ مسامرتَنا، وابتسامتَها، ونظرةَ الإعجابِ في عينيَّها؛ لكنْ سرعانَ ما اعتلاني العبوسُ، حينما دار في خَلَدي أن التقديرَ الذي نلتُه في هذا المكانِ مهددٌ بالضياعِ، فسببتُ «صلاح» في نفسي، وتساءلتُ: لماذا لم يمهلْني الوقتَ للحديثِ، والدفاعِ عن تصرُّفي؟ فكرتُ في أنَّ كلَّ ما يحدثُ لي من مآسٍ سببُها الآخرون؛ فعزمتُ ألَّا أخالطَ الناسَ مرةً أُخرى، وأن أكتفيَ بنفسي. خطرَ لي فجأةً أن أُمارسَ العادةَ السريةَ، وتذكرتُ النشوةَ التي تُؤدي إليها، فانتصبتْ داخلي مشاعرُ ترقُّبٍ لذيذةٌ أنستْني همومي، وتتابعَتْ عليَّ صورٌ مما اختزنتْها الذاكرةُ أججتْ شهوتي، وفكرتُ أن أتلكأَ فيما نويتُ فعلَه، لإطالةِ نشوةِ الترقُّبِ، والتأملِ، والتخيلِ، ثم حانتِ اللحظةُ، وتمَّ المرادُ، وانتشيتُ، ثم استرخيتُ.

اعتدلَ مزاجي لبُرهةٍ، وسرعانَ ما شعرتُ بالذنبِ، ثم عاودتْني الكآبةُ من جديدٍ، وأقبلتِ الرغبةُ من بعيدٍ تتبخترُ مجددًا، كانتْ بضةً شهيةً؛ لكنني عزمتُ على مقاومتِها؛ خشيةَ التبعاتِ، فقد كنتُ موقنًا بزوالِ النشوةِ سريعًا، وحلولِ الذنبِ أسرعَ منها، لكنَّ عزيمتي خارتْ، وفعلتُها مجددًا، وحينما أقبل عليَّ الشعورُ بالذنبِ، دفعتُه بعيدًا بحجةِ أنني قاومتُ ما وسعتْني المقاومةُ، فترفَّقَ بي، وابتعدَ عني، وإن لم يغادرْني، وشعرتُ بقواي تخورُ، ورأسي يتثاقلُ، وسرعانَ ما استسلمتُ لنومٍ طويلٍ، حتى صباحِ الغد.

في المدرسةِ لمحتُ «صلاح» من بعيدٍ، فابتعدتُ عنه وأنا أسُبُّهُ في نفسي. في ليلةٍ واحدةٍ تحوَّلَ امتناني له وإعجابي به إلى كرهٍ شديدٍ، ورغبةٍ عاجزةٍ عن القصاصِ منه. وفي الفُسحةِ رأيتُه مع شلته المعتادةِ يجوبونَ الفناء كأنهم يبحثونَ عن أحدٍ، أو شيءٍ، ولمحني صديقُه، وأسرَّ له بشيءٍ، فنظرَ إليَّ بفضولٍ، ثم أقبلَ نحوي. تخيلتُ أنه ـ لا محالةَ ـ سيضربُني، ونظرتُ في عينيهِ محاولًا سبرَ أغوارِهما، فلمحتُ ظلَّ ابتسامةٍ؛ لكنني كذَّبتُ عينَي، وقلتُ لنفسي إنها خدعةٌ، أو ربما ابتسامةُ ظَفَرٍ ممن وجدَ فريستَه، فتقهقرتُ خطواتٍ، وارتسمتْ على وجهي علاماتُ الخوفِ، وكدتُ أركضُ؛ لكنني تسمَّرتُ على إشارةٍ من يُمناه، كأنها تخاطبُني: انتظرْ، واهدأْ، لا تخفْ، ثم أتبعَ إشارتَه بابتسامةِ ودٍّ من عينيهِ، شعرتُ كأنَّ أحدًا يربِّتُ على كتفي بحنانٍ ليطمئنَني، وما إنْ وصلَ إليَّ، حتى سلَّمَ عليَّ باسمي، وتأسفَ لي على ما بدرَ منه

بالأمسِ، وشكرني لإنقاذِ متعلقاتِه، وسحبَني من يدي، وعرَّفني على شلَّته.

لم أفهم ما يحدثُ، وكيفَ، ولماذا! كأنَّ أحدَهم ضربَني على رأسي ففقدتُ اتزاني وقدرتي على التمييزِ، كنتُ مستعدًّا لردةِ الفعلِ هذه بالأمسِ، أمَّا اليومَ فقد جاءتْني بغتةً، بدا لي أنها أتتْ في غيرِ أوانِها، ككلِّ المواقفِ السعيدةِ، أو أغلبِها، تأتي دونَ إمهالي فرصةً للتهيُّؤِ لها، والتعطُّرِ، واستحضارِ البشاشةِ، واستلهامِ الابتسامِ. إن مباغتةَ «صلاح» لي بهذهِ الطريقةِ، أفقدتْني مشاعري، فلم أكنْ مسرورًا ولا حزينًا، ربما كنتُ مشدوهًا، أحاولُ الفهمَ، وأجاهدُ في مجاراتِهم إلى أن يثوبَ إليَّ عقلي.

وجالستُهم حتى انتهتِ الفُسحة. لا أتذكرُ من هذهِ الجلسةِ سوى بضعِ كلماتٍ متناثرةٍ: «رجولة»، «مَجدع»، «واحد من الشلة»، «نحميه»، كما أن الملامحَ التي أتذكرُها كانت كلُّها بشوشةً. ناداني «صلاح» في نهايةِ اليومِ الدراسيِّ، تأبَّطَني، وسارَ بي حتى بابِ المدرسةِ، كأنني أعزُّ أصدقائِه.

كنتُ قد ثُبتُّ إلى نفسي، وبدأتُ أشعرُ بجلالِ ما حدثَ، وتهيأتُ لِما ينتظرُني، ولُمتُ نفسي على بُطءِ بديهتي التي أفقدتْني الاستمتاعَ بجلسةِ الصباحِ، وعزمتُ على تعويضِ ما فاتني، فصرتُ أنظر لِمن حولي بزهوٍ، وأُخاطبُ كلَّ مَن أعرفُ بعينَي: «انظر إنه صلاح الرفاعي... نعم، نعم، لقد صارَ صديقي، بل أعزَّ

صديق... عُذرًا لن أستطيعَ التحدثَ إليك في تلك اللحظةِ؛ فأنا مشغولٌ... أتسامرُ مع صلاح بينما يرافقُني ـ كما ترى ـ إلى بابِ المدرسةِ، وربما نسيرُ معًا في الشارع». كنتُ أشعرُ بأنهم يردُّون على حديثي الصامتِ بنظراتِ تقديرٍ، ذكَّرتْني بنظراتِ «عبير»، وخطرَ لي أن أحاولَ استدراجَه ليصلَ بي إلى نقطةِ التقائي بها، حتى ترانا معًا.

لم أبذلْ مجهودًا في محاولةِ إقناعِه بما نويتُه، بدا لي أنه مُهيأٌ للسيرِ معي، وسررتُ لهذا كثيرًا، وحسبتُ أنها علامةٌ على رغبتِه في التودُّدِ إليَّ، وتوطيد صداقتنا، وبدأتُ أبحثُ عن «عبير» بعينَي، فبادرَني بسؤال:

بتدور على حد؟

فرددتُ بسذاجةٍ باسمَ الثغر:

ـ «عبير».

فرد بتعبير دهشةٍ وتساؤلٍ؛ فأتبعتُ مفسرًا:

دي جارتي بنروح سوا.

ثم تلعثمتُ وبدا الارتباكُ على صوتي، واستطردتُ:

ـ قصدي بوصلها لحد بيتها، أصل مامتها بتخاف عليها.

ابتسمَ وسألَني بعفويةٍ، أو هكذا بدا لي تعبير وجهِه آنذاك:

حلوة؟

فاجأني السؤالُ وارتبكتُ! احترتُ في تفسيرِ مقصدِه، أكانَ يسألُ فضولًا؟ أم مزاحًا؟ أم أن له مآربَ أُخرى؟ ثم احترتُ في الردِّ المناسبِ لِمثلِ هذا السؤالِ: هل أستنكرُ؟ أم أردُّ بعفوية؟ أم أمتنعُ عن الرد؟ وشعرَ هو بارتباكي، واعتلتني حُمرةُ الخجلِ، فعاجلني:

ـ مالك يا عم احمريت ليه كده، أنا بهزر.

افترَّ ثغري عن ابتسامةٍ، لم يكن سببُها أنه أنقذني من حَيرتي، لكنْ شعوري بأنه ظنَّ أن الحمرةَ التي علَت وجهي كانت حمرةَ الغضبِ، لا الخجلِ. ظهرتْ «عبير» فلوَّحتُ لها، وأخبرتُه بأنها حضرتْ، وقبلَ أن أُودعُه أخبرني بأنه سيذهبُ لقضاءِ حاجةٍ قبلَ العودةِ إلى البيتِ، ثم طلبَ مني أن أحفظَ له كتبَه المدرسيةَ، على أن أُحضرَها معي في الغدِ، فرحَّبتُ وانتزعتُها منه قبلَ أن يُبدلَ رأيَه، ثم عرضتُ عليه أن أحملَها عنه كلَّ يومٍ، فنظرَ لي نظرةَ امتنانٍ صامتةً، وربَّتَ على كتفي.

غادرَ «صلاح»، واتجهتُ لـ«عبير»، رافعًا كتبَه إلى صدري في محاولةٍ للتفاخرِ بها، ولاحتْ مني التفاتةٌ نحوَ كتفي الذي ربَّتَ عليهِ، وجالَ بصري من حولي، كنتُ أرغبُ في التأكُّدِ من أنَّ الجميعَ يلتفتونَ نحوي، ويشاركونَني تلكَ اللحظةَ، كنتُ أخاطبُهم بعينَي صامتًا: «نعم، إنها الكتفُ التي ربَّتَ عليها صلاح». خُيِّلَ إليَّ أن لحظةَ التربيتِ تكررتْ عشراتِ المراتِ حتى تأكدتُ أن الجميعَ رآها، وأنَّ نظراتِ التقديرِ أحاطتْ بي، والشرفَ غمرني.

ثم تردَّدَ بصري بين «عبير» وكتبِ «صلاح»، في محاولةٍ لإثباتِ الشرفِ، والصداقةِ؛ لكنني لمحتُها تتطلعُ خلفي، فالتفتُّ لأجدَ «صلاح» يتطلعُ نحوَها هو الآخرُ في كثيرٍ من الفضول، ابتسمتُ ابتسامةَ ظفرٍ ورضًا؛ لأنَّ تلكَ النظراتِ لم تكنْ تَعني لي في ذلكَ الوقتِ إلا أن «عبير» تأكدَتْ من صداقتي لـ«صلاح»، وأن الأخيرَ أصبحَ يُقدِّرُني إلى الدرجةِ التي خلقَتْ داخلَه الفضولَ لمعرفةِ جيراني وأصدقائي.

في طريقِ عودتِنا إلى البيتِ كنتُ منتشيًا، وكانتْ صامتةً، واجمةً، كأنما تعيشُ في عالمٍ آخرَ. تبادلْنا الأدوارَ؛ أصبحتُ الثرثارَ، واختلقتُ الكثيرَ من الأكاذيبِ، ولم تراوِدْني ذرةُ خوفٍ من افتضاحِها؛ لأنَّ الدليلَ الأولَ كانَ في يدي، والثاني لم تبرحْ آثارُه كتفي بعدُ، وانتظرتُ تعليقَها؛ لكنها لم تنبسْ بكلمةٍ طوالَ الطريقِ، وكنتُ أفسِّرُ صمتَها وإيماءاتِ رأسِها، واتساعَ عينيْها، على أنها استمتاعٌ بالحديثِ، وتشجيعٌ على مواصلتِه، فاستطردتُ ثم اختلقتُ مزيدًا من الكذبِ، وحينَ وصلْنا أخبرتْني، وهي تنظُرُ إلى كتبِ «صلاح»، أنها ستزورُني الليلةَ لاستكمالِ الحديث.

توالتْ الأيامُ مُبهجةً مُشرقةً، أقضي فيها الصباحَ مع «صلاح» وأصدقائِه، والمساءَ مع «عبير»، ندَّعي المذاكرةَ؛ لكننا لا نفعلُ شيئًا سوى الثرثرة. اقتربتُ منها، شعرتُ نحوَها بمشاعرَ لم أستطعْ البتَّ في طبيعتِها، أظنُّها حبًّا تارةً، وتارةً أُخرى

لا تتعدى الرغبةَ، وتارةً أُحدِّثُ نفسي بأنها اعتيادٌ، لا أكثرَ، وتعلُّقٌ بالإعجابِ الذي بتُّ أراه في عينيْها دومًا، أو هكذا كنتُ أفسِّرُ نظراتِها في ذلكَ الحين.

حينَ كانت تجلسُ بالقربِ مني في غرفتي، بملابسِ البيتِ الناعمةِ، كانت الرغبةُ تنفلتُ من عقالِها، فعلى الرغمِ من احتشامِها، فإنَّ جسدَها ينطقُ، بل يكادُ يصرخُ، فيخترقُ الصوتُ ثيابَها المحتشمةَ ويستقرُّ في أحشائي، كأنه يصرخُ بي ولي. كان بابُ الغرفةِ دومًا مفتوحًا على مِصراعيْه، بناءً على تعليماتِ أمهاتِنا، وكانت أمي تتردَّدُ علينا من حينٍ لآخرَ، وكنَّا حينها ندَّعي المذاكرة، وحينما أشعرُ بالرغبةِ، ألتفتُ بطريقةٍ عفويةٍ ناحيةَ البابِ خشيةَ أن تطَّلعَ أمي على ما يعتملُ في نفسي، وفي أوقاتٍ كثيرةٍ بمجردِ مغادرةِ «عبير» البيتَ أخلو بنفسي، وأتخيلُها وأفرغُ ما في جُعبتي من سِهام.

في الصفِّ الثالثِ الثانوي، توطدتْ علاقتي بـ«صلاح»، واعتدتُ الخروجَ مع شلَّتِه، وكانت أغلبُ الخروجاتِ نقضيها في التمشيةِ، نسيرُ من شارعِ «الرصافة» بـ«محرم بك»، إلى «مستشفى الدكتور حساب»، ثم إلى الكوبري «أبو عين واحدة» الذي يسيرُ عليه القطارُ، ثم نسيرُ بمحاذاةِ سورِ القطارِ حتى نصلَ إلى شارعِ «النبي دانيال» عن طريقِ «محطةِ مصر»، ونجتازُ «النبي دانيال» إلى «محطة الرمل»، ونسيرُ هناك على كورنيشِ البحرِ كما يحلو

لنا، واعتدْنا أن نُعرِّجَ على شارعِ «صفية زغلول» لنشربَ الخروبَ من دكانِ «خروب آمال» المجاورِ لـ«سينما مترو». في أثناءِ سيرِنا كان أفرادُ الشلَّةِ يقصُّونَ مغامراتِهم مع الفتياتِ، والمواقفَ التي تعرَّضوا لها، فعرفتُ أسماءَ حبيباتِهم، ومَن مِنهم لم يزلْ مستمرًّا في علاقتِه، ومَن فركش، وما السببُ، ومَن أُجبرَ على تركِ حبيبتهِ بعد افتضاحِ أمرِه.

أما «صلاح» فقد كان يسيرُ صامتًا، لا تفارقُ السيجارةُ فمَه إلا نادرًا، يبتسمُ لموقفٍ سمعَه، أو يُعلِّقُ على حديثِ أحدِهم، تعليقًا جادًّا أو ساخرًا، إلا أنه لم يكنْ يحكي شيئًا عن نفسِه قط، كان يبدو لي كبئرٍ سحيقةٍ من الأسرارِ، وكان بين فترةٍ وأُخرى ينفردُ بأحدِ أفرادِ الشلَّة، متقدمًا على البقيةِ بخطواتٍ، أو متقهقرًا عنهم بخطواتٍ، ويتحدثُ بهمسٍ، فلا يمكنُ لأحدٍ سماعُه، حتى إنني في بعضِ الأوقاتِ أشكُّ في أن مرافقَه يسمعُ منه شيئًا، ولم تبدُ على وجهِهِ أيُّ انفعالاتٍ في أثناءِ حديثِه، تُساعدُني وأنا أراقبُه في أن أوجسَ ما يقول. بتُّ متشوقًا لمعرفةِ أيِّ تفاصيلَ من حياتِه، كنتُ أريدُ أن أتباهى بها أمامَ «عبير».

كان يتفقُ لي أن أسيرَ معه بمفردي، فأسألُه لماذا لا يحكي عن نفسِه شيئًا، فيرد دومًا على أسئلتي بأسئلةٍ، كقولِه: وأنت أيضًا، لماذا لا تحكي شيئًا عن نفسِك، أو حتى تُعلِّقُ على أحد؟ وكنتُ أفكرُ في أن أردَّ عليه بأنَّ هذه هي طبيعتي، وأنني أميلُ إلى الصمتِ، وليس لديَّ القدرةُ أو الطاقةُ الكافيةُ لتبادلِ حديثٍ طويلٍ مع أحدٍ،

ثم إنني لا أُغامرُ مثلَكم، فعَن أيِّ شيءٍ يمكنُني التحدث؟ لكنني كنتُ أخشى أن تُسقطَني إجابتي من نظرِه، فيُغيرُ رأيَه عني، ويُنهي صداقتَنا، والحقيقةُ أنني كنتُ دومًا أخشى سخطَ أحدِهم عليَّ، فتنتهي صداقتي به وبهم، لذلك كنتُ حريصًا أشدَّ الحرصِ على كلِّ كلمةٍ، أو تعليقٍ يصدرُ مني. وصرتُ مُطيعًا، مؤيدًا، لا أرفضُ لأحدٍ منهم طلبًا، وإن صادفَ وتشاجرَ اثنانِ منهم أو أكثرُ، لا أقفُ مع أحدٍ ضدَّ الآخرِ، ولا أُفكرُّ حتى في فضِّ الشجارِ أو المصالحةِ بينهم، فقد كنتُ أخشى من الظنِّ بأنني أميلُ تجاهَ أحدٍ ضدَّ آخرَ، فيُعاديني هذا الآخرُ، فآثرتُ السلامةَ والبُعدَ؛ درءًا للشبهات.

في ليلةِ عيدِ الفطرِ من ذلك العام، اتفقنا أن نلتقيَ أمامَ محطةِ ترام «الرصافة»، وأنْ نسهرَ معًا إلى الصباحِ، أخبرتُ أمي بأنني سأعودُ بعد أن أُصليَ صلاةَ العيدِ مع أصدقائي، وحينَ التقينا سمعتُهم يقولون: «حنْزَمضَنْ عند إيهاب السنة دي»، وإيهاب هذا أحدُ أفرادِ الشلة، يتغيبُ أبواهُ كثيرًا عن البيتِ، خاصةً في الأعيادِ والمناسباتِ؛ حيث يقضيانِ العطلةَ في «شاليه» يملكانِه بمنطقةِ «البيطاش» بالعجمي. لم أفهمْ معنى كلمةِ «حنْزَمضَنْ» إلا بعد أن وصلْنا إلى بيتِ إيهاب القاطنِ خلفَ مدرسةِ «العباسية»، في شارعٍ هادئٍ، مُظلمٍ، ومنزلٍ أشدَّ هدوءًا، بإضاءةٍ صفراء.

حينَ استقرَّ بنا المُقامُ في غرفةِ «إيهاب» التي تحتوي على سريرٍ ودولابٍ ومكتبٍ عليه جهازُ كمبيوتر حديث، وأريكةٍ وثيرةٍ تكفي ثلاثةَ جالسينَ، أخرجَ «صلاح» و«إيهاب» عُلبَ

السجائرِ من جيوبِهما، وألقيا بها على طاولةٍ تتوسطُ الجلسةَ، وأفرغاها من محتواها عدا واحدةٍ، ثم ألقَى أحدُهم لفةَ ورقٍ مستطيلةَ الشكلِ، وصغيرةَ الحجمِ، مكتوبًا عليها باللونِ الأخضرِ والأحمرِ: «أوتومان».

كانت تلكَ أولَ مرةٍ أتعرَّفُ فيها على شكلِ الحشيشِ، وذلك حينما أفرغوا محتوى علبةِ السجائرِ المتبقيةِ، كانت قطعُ الحشيشِ بُنيةَ اللونِ أشبهَ بالشيكولاتة، مغلَّفةً بورقٍ فضيِّ اللونِ، وما إنْ سمعتُ كلمةَ حشيشٍ حتى خفقَ قلبي بشدةٍ، وبدأتُ أُفكِّرُ في سببٍ أتذرعُ بهِ للمغادرةِ؛ لكنني خشيتُ مما سيُوجَّهُ لي من سخريةٍ، فقلتُ في نفسي لا بأسَ من الجلوسِ معهم دونَ تناولِه، معتذرًا بمرضِ الربو. فكرتُ في أنني في المرةِ القادمةِ سأستعيرُ «بخاخة» الصدرِ من أمي لتثبيتِ الكذبة؛ لكنني لم أحتجْ إلى ذلكَ؛ لأنَّ «صلاح» بادرني: «طبعًا مش هتشرب معانا... مش مهم... بس مش هتقدر تهرب من خدمتنا».

وقعتِ الكلمةُ في نفسي موقعًا حسنًا، فرددتُ موافقًا بإيماءةِ رأسي، بينما أتذكرُ جملةَ أمي بأنَّ خادمَ القومِ سيدُهم، التي كانت تردِّدُها حينما تحاولُ إقناعي بالمساهمةِ في أمورِ البيت. بادرتُ بالجلوسِ إلى جوارِ «صلاح» وسألتُه أنْ يُعلمَني، كنتُ أخشى أن أتأخرَ فينتهزُ أحدُهم الفرصةَ ويأخذُ مكانَ خدمتي، لم أكنْ لأسامحَ نفسي إن ضيَّعتُ هذا الموقعَ المتميزَ، وكنتُ شديدَ التركيزِ في الفهمِ والتعلُّمِ، وحينما بدأتُ في لفِّ أولِ سيجارةٍ

كنتُ حريصًا عليها أشدَّ الحرصِ، فقد رغبتُ في انتزاعِ الاعترافِ بكفاءتي من أولِ اختبارٍ.

كانتِ الغرفةُ معتمةً، والدخانُ يحومُ حولَ المصباحِ ذي الإضاءةِ الصفراءِ، وتفاوتتْ أحوالُ الشاربينَ؛ فمنهم من اكتفى بسيجارةٍ واحدةٍ، ثم استلقى على السريرِ يغطُّ في نومٍ عميقٍ، ومنهم مَن شعرَ برغبةٍ عدائيةٍ فاستفزَّ جارَه حتى دفعَهُ للشجارِ ـ بلا سببٍ أو هدفٍ ـ مجردُ الرغبةِ في الشعورِ بالألمِ، وأحدُهم انكمشَ على نفسِه وعلى وجهِه ملامحُ كآبةٍ، ثم انزوى في ركنٍ قَصيٍّ، جالسًا القرفصاء دافنًا رأسَه بين ركبتيه، ومن فترةٍ إلى أخرى يُخرجُ رفاتَ وجهِه ويبكي صامتًا، وآخرون انخرطوا في فاصلٍ لا نهائيٍّ من الضحكِ والقهقهةِ بصوتٍ عالٍ، بسببٍ أو بغيرِ سببٍ، وآخرون باتوا يحرقونَ في السجائرِ التي أُعدُّها لهم حتى نهايةِ الجلسة.

أما أنا فشعرتُ بأن لساني خفَّ وزنُه، وانطلقَ بلا عقالٍ، لم أنقطعْ عن الكلامِ حتى انتهتِ الجلسةُ عند شروقِ الشمس. تعجبتُ وتساءلتُ في نفسي: كيف حدثَ هذا؟! وشككتُ في أنني دخنتُ معهم في غفلةٍ من عقلي؛ لكنَّ «صلاح» نفى هذا حينما سألتُه، وقال لي: «انت اتكيفت على الريحة يا معلم». سُررتُ سرورًا شديدًا، فقد بدا لي الكيفُ على الرائحةِ فكرةً عظيمةً مناسبةً لأمثالي، فقد كانت حيلةً للشعورِ بالنشوةِ التي يجلبُها الحشيشُ، دونَ شعورٍ بالذنب.

كنتُ قد نجحتُ مؤخرًا في إقناعِ نفسي بحبِّ «عبير»، حتى تحولتْ كلُّ مساوئِها في عينَي إلى محاسنَ، وتغافلتُ عن كلِّ ملامحِ القبحِ فيها، لقد رغبتُ في حبِّها، أو ربما احتجتُ إلى هذا الحبِّ؛ لذلكَ صدَّقتُ رغباتي أكثرَ من حواسي؛ بتُّ أفسِّرُ كلَّ كلمةٍ تقولُها تحتملُ أكثرَ من تأويلٍ، على الوجهِ الذي يُثبتُ أنها تبادلُني الحبَّ، وتناجيْنا في خيالي، وتبادلْنا القبلاتِ، وساعدتْني علاقتي الجديدةُ برائحةِ الحشيشِ في تأجيجِ تلكَ الخيالاتِ، وبمرورِ الوقتِ صدَّقتُ أنها حقيقةٌ، حتى إنني في أوقاتٍ كنتُ أشعرُ بشفتيْها تعضُّ شفتَي، وأن لُعابَها يسيلُ من فمي، وحينما أشعرُ بأمي قادمةً أُسارعُ بمسحِه، حتى لا يفتضحَ أمرُنا.

فكرتُ كثيرًا في أن أبوحَ لها بما يعتملُ في نفسي؛ لكنني كنتُ أتردَّدُ وأتراجعُ في اللحظاتِ الأخيرةِ، وأُحدِّثُ نفسي بأنني لستُ مؤهلًا بعدُ، وأنه يجبُ عليَّ تدعيمُ صورتي أمامَها قبلَ مفاتحتِها في أمرٍ كهذا، فقصصتُ لها علاقتي بالحشيشِ، مضيفًا بعضَ التفاصيلِ الكاذبةِ، التي ظننتُ أنها ستدعمُ موقفي، فادَّعيتُ بأنني أُدخنُه مع «صلاح» وأصدقائه، وعلى الرغمِ من أني أحدَثُهم عهدًا به فإنني صرتُ أشرَهَهم فيه؛ لكنها على غيرِ المتوقعِ غضبتْ، واتهمتني بالتقليدِ الأعمى، وأنني إمَّعةٌ، تعجبتُ من ردةِ فعلِها فقد كانت طوالَ فترةِ معرفتي بها تتهمُني بالضعفِ والجبنِ، وتتباهى بمغامراتِها، وأنني غيرُ قادرٍ على المغامرةِ، فلماذا تُغيِّرُ رأيَها الآن؟! أكانت تخدعُني؟

فكرتُ في التراجع، وادِّعاءِ المزاحِ؛ لكنني تردَّدتُ، ففاتتْني فرصةُ التراجعِ، وطلبتْ مني أن أَعِدُها بتركِ هذه العادةِ، فوعدتُها، وفي نفسي إصرارٌ على عدمِ الوفاءِ، أو ربما لم أكنْ قادرًا على الوفاءِ بوعدٍ كهذا. كيف لي أَنْ أجتمعَ بـ«صلاح» وباقي الرفقاءِ في جلسةٍ وأخبرُهم بأنني سأكفُّ عن خدمتِهم؟! لن أقوى على تحمُّلِ ردةِ فعلِهم، كما أنني قد أحببتُ رائحةَ الحشيشِ وتعلقتُ به وبالنسخةِ التي يخلقُها من نفسي؛ منفتحةً، طليقةً، جريئةً، مبتسمةً، ثرثارةً. كيف لي أن أتركَ ذلك كلَّه؟! يمكنُ أن أتركَه مجبرًا؛ لكنني لن أتركَه مختارًا أبدًا.

١٣

توالتِ الأيامُ، ازدادَ تعلُّقي بـ«عبير» والحشيش، وإن لم أقوَ على مصارحةِ الأُولى، أو إقامةِ علاقةٍ حقيقيةٍ مع الثاني. لم تلامسْ فمي سيجارةٌ قطُّ، ولم يملأْ صدري دخانٌ، كنتُ أنظرُ إلى السجائر الملفوفةِ على الطاولةِ بكثيرٍ من الحبِّ والامتنانِ، وتملؤني الرغبةُ في وضعِ طرفِها الإسفنجي بين السبابةِ والوسطى، وأن أعضَّ عليها بشفتَيَّ، وأسحبَ نفسًا عميقًا حتى تمتلئَ رئتايَ بدخانِها؛ لكنني كنتُ أكتفي بالمشاهدةِ، وبما يحيطُني من بقايا دخانٍ، وأنتظرُ بشغفٍ أن يجودَ عليَّ أحدُ المدخنينَ بزفيرِه، ينفثُه في وجهي. كنتُ أحلمُ بالاثنينِ، «عبير» والحشيش، يَقِظًا ونائِمًا، وكانتْ شفتاي بطلَتا أحلامي في الحالتين.

ذاتَ يومٍ كنتُ ذاهبًا إلى المدرسةِ بمفردي، حيثُ أخبرتْني «عبير» في اليومِ السابقِ بأنها ستتغيَّبُ، مررتُ بشارعِ «الفردوس» لشراءِ شطائرِ فولٍ وفلافلَ من المطعمِ الذي يحملُ اسمَ الشارعِ نفسَه، كانت رائحةُ الفلافلِ شهيةً، لم أستطعْ مقاومتَها، فتناولتُ إحداها. في طريقي مررتُ بعمالٍ يفتحونَ غطاءً للصرفِ، ورائحةٌ

كريهةٌ تحيطُ بهم، اختلطتْ رائحةُ المجاري برائحةِ الفلافلِ، أفسدتْ عليَّ متعتي، فسددتُ أنفي بإبهامي وسبابتي، ولم أَعُد أشعرُ لا بهذهِ الرائحةِ ولا تلك.

حينما كنتُ أمرُّ ببالوعة في الطريقِ يملؤني الفضولُ لمعرفةِ ما تُخبئهُ تحتها، وأظنُّ أنني سأجدُ عوالمَ خفيةً كتلكَ التي أشاهدُها في الأفلامِ الأجنبيةِ المترجمةِ التي تعرضُها القناةُ الثانيةُ مساءَ كلِّ سبتٍ، في برنامجِ «نادي السينما»، أو في أفلامِ الكرتونِ، حيثُ تعيشُ «سلاحف النينجا» في المجاري. فاقتربتُ منها وأطللتُ بعينَي في فضولِ على الفتحةِ الدائريةِ التي خلَّفَها الغطاءُ، فوجدتُ أحدَ العمالِ غاطسًا حتى منتصفِ جسدِه في مياهِ المجاري السوداءِ، ولا أثرَ لعوالمَ خفيةٍ من تحتِه، وبينما أهُمُّ بالمُضي في طريقي، نظرَ إليَّ أحدُ العمالِ ونهرني «امشي يا آد من هنا بتتفرج على إيه؟!».

ارتبكتُ وسقطتْ كتبُ «صلاح» من يدي، وحينما هممتُ بالتقاطِها سقطَ ما تبقَّى من شطيرةِ الفلافلِ التي كنتُ أتناولها، فأزحتُها بقدمي إلى جوارِ الرصيفِ. كنتُ أتهيأُ للمُضي في طريقي حينما لاحظتُ أن طرفَ ورقةٍ مطويةٍ يخرجُ من أحدِ حوافِ الكتابِ، فأدخلتُه؛ لكنَّ ظِلُها باتَ يراودُني طوالَ الطريقِ. كنتُ قد لمحتُ أوراقًا تُشبهُها بينَ مقتنياتِ «عبير»، حينما كانت تدَّعي المذاكرةَ معي. كانتْ ورقةً شفافةً لونُها أخضرُ فاقعٌ،

«إنه لونُها الأثيرُ». أثارَ الأمرُ فضولي وريبتي في آنٍ، فأخرجتُ الورقةَ، ورأيتُ قلبًا أحمر يتوسطُهُ سهمٌ أسودُ مرسومٌ على الجزءِ الظاهرِ منها، خفقَ قلبي، ولهثتْ أنفاسي كأنني أركضُ، تساءلتُ: ما الذي يمكنُ أن يَعنيه وجودُ ورقةٍ من ورقاتِ «عبير» مرسومٍ عليها قلبٌ أحمرُ في كتابٍ من كتبِ «صلاح»؟!

فكرتُ في قراءتِها؛ لكنني كلما بسطتُ الورقةَ، طويتُها من جديدٍ، بدا لي أن بها أسرارًا لن أقوى على تحمُّلِ كشفِها، وقفزتْ استنتاجاتٌ مخيفةٌ إلى عقلي، فتراءى لي أن العيشَ في الوهمِ أفضلُ مِن كشفِ حقائقَ كالتي فكرتُ بها.

تلفتُّ حولي في كلِّ اتجاهٍ، كأنني أخشى أن يقرأَ أحدٌ ما يعتملُ في نفسي، وقادتني قدماي إلى شارعٍ جانبي هادئٍ، اقتحمتُ بابَ بنايةٍ، أسودَ، ضخمًا، عتيقًا، ذا نفوذٍ، مكونًا من أسياخٍ حديديةٍ متوازيةٍ رأسيًّا، كالتي يقبضُ عليها المسجونُ داخلَ زنزانتِه، حينما يتوسلُ لأصحابِ السلطةِ مستدرًّا عطفَهم. أغلقتُ البابَ ورائي، جلستُ على ثالثِ سلمةٍ مواجهةٍ للسياجِ، واتكأتُ بإحدى قدميَّ على السلمةِ الثانيةِ، وبالأُخرى على الأُولى، ثم تشجعتُ وبسطتُ الورقة.

كانتْ بلا سطورٍ، والكلماتُ مصفوفةٌ في فوضى كبيرةٍ، كأنَّ مَن كتبَها كان متعجلًا، خائفًا، وَجِلًا، ولم تصنعِ الكلماتُ سطورًا مستقيمةً، بل جميعُها كان مائلًا من ناحيةِ اليسارِ، يبدأُ السطرُ مستقيمًا، ثم سرعانَ ما ينحرفُ، أو ربما ينجرفُ. كانت رسالةَ

حبٍّ، اشتممتُ فيها رائحةَ «عبير»، كلُّ كلمةٍ، وكلُّ جملةٍ كانت تدلُّ عليها، حتى قبلَ قراءةِ التوقيعِ الممهورِ به. رسالةٌ كُتبتْ باللونِ الأحمرِ، كأن قلبي كانَ مقيمًا على سطحِ مكتبِها، عاريًا، تغرسُ فيهِ قلمَها وتستخدمُ دماءه مِدادًا لرسائلِها.

انهارتْ أحلامُ يقظةٍ كنتُ قد عشتُها صباحَ مساءَ، طوالَ أشهرٍ مضتْ، شيَّدتُ في نفسي آمالًا كبيرةً، ظلتْ تعلو يومًا بعدَ يوم، حتى أصبحتْ صرحًا، ظننتُه راسخًا، لن ينهارَ أبدًا، لكنْ يبدو أنه قد بُنيَ من ورقٍ شفافٍ، هشٍّ، أخضرَ اللونِ، تطايرَ مع أولِ هَبَّةِ ريحٍ. وفي غمرةِ تلك المشاعرِ والأفكارِ قفزَ إلى عقلي سؤالٌ: كيفَ تعرَّفتْ «عبير» على «صلاح»؟ ومنذُ متى؟ وكيف كانا يتبادلانِ الرسائلَ؟ ولماذا لم يُخبرْني أحدُهما؟ وأطرقتُ مفكرًا، وخطرَ لي أن أبحثَ في كتبِ «صلاح» لعلي أجدُ خطاباتٍ أُخرى. فتشتُ في الكتبِ بيدٍ مرتعشةٍ، ودعاءٍ صامتٍ بأن أجدَ أيَّ رسالةٍ لفكِّ طلاسمِ هذه الأسئلة. كنتُ أفتشُ في الكتبِ كلصٍّ ينبشُ في مقبرة.

وجدتُ ثلاثةَ خطاباتٍ، مطوياتٍ، متداخلاتٍ؛ أولُها على ورقِ (فلوسكاب) سميكٍ بسطورٍ أفقيةٍ، سوداءِ اللونِ، يتطفلُ عليها سطرٌ واحدٌ رأسي على اليمينِ أحمرُ اللون. ثانيها على ورقٍ شفافٍ أملسَ، أخضرَ اللونِ، والثالثُ على ورقٍ شفافٍ أبيضَ مُهترئِ الأطرافِ، تملؤه تشققاتٌ أفقيةٌ من كثرةِ الطيِّ. عرفتُ

من خلالِها أنني كنتُ الكوبري الذي سارتْ عليهِ علاقتُهما، كنتُ المغفلَ الذي يحملُ كتبَ «صلاح» يوميًّا ليضعَها على المكتبِ الذي تدَّعي «عبير» المذاكرةَ عليهِ، وتتحيَّنُ الفرصَ لدسِّ رسائلِها داخلَه، في غفلةٍ مني.

توالتِ الصورُ على عقلي؛ تَقَرُّبُ «صلاح» المفاجئُ مني، زياراتُ «عبير» اليوميةُ، ضحكاتُ الشلةِ الغامضةُ حينما نمرُّ على «كوبري الجامعة»، صَمتُ «صلاح» وتحفُّظُه، ونظراتُ التقديرِ من «عبير»، «أكانت حقًّا لي؟!»

«لا... كذبٌ... لم يحدثْ شيءٌ... إنني أهذي... لعلي في لحظةٍ من لحظاتِ الخيالِ أو أحلامِ اليقظةِ... هكذا أنا دائمًا أخلطُ بين الوهمِ والحقيقةِ... لا يمكن أن يكونَ ما قرأتُ صحيحًا... أنا أظلمُهما... لم يفعلْ أحدٌ منهما شيئًا يسوؤني... كيف؟! عبير وصلاح!... لا إنهما أعزُّ ما أملك... أنا ظالمٌ وغبيٌّ... لقد كانا معي بالأمسِ... في الصباحِ قابلتُ صلاح، وتسامرْنا... أتذكَّرُ أنه ابتسمَ في وجهي... نعم، لم تكنْ من وحيِ خيالي، حتى إنني رأيتُ أسنانَه، بدتْ لي صفراءَ كعادتِها، ثم إنه ربَّتَ على كتفي، وقال لي كلمةَ تشجيعٍ. نعم، لقد نظرَ إليَّ، وتلاقتْ أعينُنا ببشرٍ وودٍّ وصدقٍ... كيف؟! ثم إن «عبير» في المساءِ قالت لي: «انت جدع أوي يا عمر»، ثم إنها ترافقُني كلَّ يومٍ، نسير جنبًا إلى جنبٍ، تتحدثُ معي، تحكي لي عمَّا يعتملُ في نفسِها، أنا أعرفُ

عنها كلَّ شيءٍ، لقد تناولتْ العشاءَ معي أمسِ، ضحكتْ وفمُها ممتلئٌ بالماءِ فتناثرَ الرذاذُ في وجهي، انتفضتْ من مكانِها، بدا على وجهِها الخوفُ من سخطي، فأخذتْ تمسحُه بأكمامِها وهي تعتذرُ لي بصدقٍ وإخلاص.. آآآهٍ كمْ كانتْ رائحةُ أكمامِها عطرةً».

التقطتُ الخطاباتِ من جديدٍ، تحسستُ أحدَها بيُمناي، شعرتُ بملمسِ الكلماتِ البارزِ، ثم قربتُها من أنفي وشممتُها، طويتُها، ثم بسطتُها من جديدٍ، وابتعدتُ بها مسافةَ ذراعٍ عن عينَي، نظرتُ إليها فتأكدتُ أنها ليستْ فارغةً، ثم قربتُها من جديدٍ، وقرأتُ الأسماءَ الثلاثةَ المذكورةَ بها عدةَ مراتٍ، ثم وضعتُها فوقَ الكتبِ التي أسندُها على قدمَيَّ، ووضعتُ مرفقي عليها، وأسندتُ رأسي على راحةِ يدي.

«لماذا لا أُصدق؟! أنا أُمسكُ بخطاباتٍ حقيقيةٍ، لها لونٌ ورائحةٌ، ربما لها طعمٌ أيضًا، مالحٌ، كالبحرِ. أنا ساذجٌ، غبيٌّ، وضعيفٌ. إن كلَّ ما قرأتُ صحيحٌ، وأنا لا أريدُ تصديقَه؛ لأنني لا أستطيعُ فعلَ شيءٍ نحوَه، هَبْ أنهما واقفانِ أمامي الآنَ يعترفانِ بذنوبِهما، ماذا سأفعلُ؟ لا شيءَ، ربما سأبكي، أو أهربُ من أمامِهما، إنهما يَعلمانِ أنني ضعيفٌ؛ لذلك لم يأبَهْ أحدُهما بي ولا بمشاعري، ولا بردةِ فعلي، وأنا في ذلكَ المُذنبُ الوحيدُ. تُرى ماذا كانا يقولانِ عني في خلوتهما؟! بالتأكيد كانا يسخرانِ، تتعالى ضحكاتُهما، أسمعُها بوضوحٍ، وربما حينما كانت عبير تُفكرُ في سخطي ـ إنْ علمتُ الحقيقةَ ـ كان يردُ عليها صلاح: «سيبك منه،

ده عيل عبيط»، وهو في ذلك محقٌّ. تُرى أين هما الآنَ؟! الاثنانِ غائبانِ عن المدرسةِ، ما زالا يتقابلانِ في «المنتزه»، كما قرأتُ في إحدى الرسائل؟».

شعرتُ بدوارٍ، حاولتُ النهوضَ من مكاني؛ لكنني فشلت. لا أستطيعُ الآنَ الجزمَ بمشاعري آنذاك، أغلبُ الظنِّ أنها كانت خليطًا من كلِّ المشاعرِ المتناقضةِ من حبٍّ وكرهٍ، غضبٍ ولا مبالاة، اتهامٍ والتماسِ أعذارٍ، رغبةٍ في الانتقامِ والمسامحةِ، تصديقٍ وتكذيب. تحاملتُ على نفسي، وقفتُ بكثيرٍ من المشقةِ، وطئتُ السلمةَ الثانيةَ بقدمي، ثم الأُولى، توقفتُ عليها لحظاتٍ، طالتْ بعضَ الشيءِ، نظرتُ إليها، نظرةً طويلةً صامتةً، ثم أشحتُ وجهي عنها، واتجهتُ إلى الباب ذي السياجِ. فتحتُه بصعوبةٍ بالغةٍ، سرتُ في الطريقِ ببطءٍ، كانت رياحُ الخماسين قد بدأتْ الهبوبَ، فتكونتْ بجانبي دوَّامةُ هواءٍ تدورُ فيها بعضُ القمامةِ خفيفةِ الوزنِ، كأكياسِ الشيبسي والبسكويتِ، والكيك الفارغةِ، ومعها بعضُ الحصى والترابِ، اجتزتُها كاتمًا الأنفاسَ، ثم اجتزتُ شارعَ «منشَّا» حتى وصلتُ إلى محطةِ الترام، ركبتُ إحدى العرباتِ التي أوصلتني إلى موقفِ الحافلاتِ بـ«محطة مصر»، صعدتُ الحافلةَ التي اتجهتْ بي إلى «المُنتزه».

لا أعرفُ لماذا قررتُ الذهابَ إلى هناك، لم أكنْ متأكدًا من أنهما سيتقابلانِ، وإنْ تقابلا، فأين أجدُهما؟ المكانُ شاسعٌ، مليءٌ بالحدائقِ والمتنزهاتِ، الأماكنُ الخفيةُ عن العيونِ أكثرُ

من الظاهرةِ. وإنْ وجدتُهما كيف أتصرفُ؟ هل أواجهُ أم أتلصصُ عليهما من بعيدٍ؟ وإنْ قررتُ المواجهةَ فبأيِّ وجهٍ أُلاقيهما؟ هل أغضبُ وأقتصُّ لنفسي، أم أبكي وأستدرُّ عطفَهما؟ وكيف ستكونُ ردةَ فعلِهما؟ هل أرغبُ في استكمالِ علاقتي بهما، أم من الأفضلِ هجرُهما؟ هل ما زلتُ أُحبُّ «عبير»؟ هل سأندمُ على مغامرتي؟

تبخَّرَ الوقتُ سريعًا داخلَ الحافلةِ، قضيتُه في تساؤلاتٍ لم أُجبْ على أيٍّ منها، ترجَّلتُ عنها، واجتزتُ بابَ «المُنتزهِ»، بعدَ أن دفعتُ رسومَ الدخولِ، بدا لي المكان شاسعًا، وقفتُ دقائقَ كالتائهِ لا أعرفُ أيَّ اتجاهٍ أسلكُ، فكرتُ في الاختباءِ بالقربِ من البوابةِ لتتسنَّى لي رؤيةُ الداخلِ والخارجِ، تفقدتُ المكانَ، استقرَّ رأيي على الاختباءِ بين ثلاثِ شجراتٍ تتخذُ شكلَ مثلثٍ يمينَ البوابةِ، كلُّ شجرةٍ تُمثلُ إحدى زواياه، جلستُ على (النجيلةِ) في المنتصف تمامًا، خلفي سورٌ، وعن يميني أُولى الشجراتِ، وعن يساري ثانيتها، وأمامي ثالثتُها.

«تُرى أين اعتادا الجلوسَ؟ ربما في هذا المكانِ المكشوفِ، أو في ذاك المكانِ الخفيِّ، إنه مخيفٌ، أشبهُ بالكهفِ، يثيرُ الشبهاتِ، هناك الكثيرُ منه، في كلِّ مكانٍ تقريبًا، يبدو أنه مخصصٌ للعشاقِ، يفعلونَ فيه ما يحلو لهم... لا لا... بالتأكيدِ يجلسانِ في المكانِ المكشوفِ، لا يمكنُ أن ترضى «عبير» على نفسِها الجلوسَ في مثلِ هذه الكهوفِ، ثم إنها قويةُ الشخصيةِ، ومن السهلِ فرضُ

سيطرتِها على «صلاح»، كما تفرضُها عليَّ... علامَ تبتسمُ أيُّها الأبلهُ؟! لِتفكرْ فيما أنت مُقدمٌ عليه، فلا يعلمُ نتاجَ مغامرتِك إلا اللهُ، لِتدْعُه إذن كي يمرَّ الأمرُ بسلامٍ... نعم، أغلبُ الظنِّ أن جلستَهما محتشمةٌ، يثرثرانِ لا أكثرَ، وربما تتخللُ ثرثرتَهما كلماتُ حبٍ وهيامٍ... لا أظنُّ أن يتطورَ الأمرُ عن هذا... هل تحدَّثا عني في جلساتِهما السابقةِ؟ وهل سيتحدثانِ عني اليومَ؟ بالتأكيدِ، فلعلي موجودٌ معهما في كلِّ جلساتِهما، إنني جزءٌ أصيلٌ من هذه العلاقةِ، ثم إنني لا أُنسى، كما أن أفضالي عليهما جليلةٌ، أنا سببُ تعارفِهما، وسببُ تعلُّقِ أحدِهما بالآخرِ، لا أقولُ أنا سببُ حبِّهما فربما لا تدومُ العلاقةُ بينهما، ثم إنني سببُ لقاءاتِهما المتكررةِ، ألستُ حاملَ الرسائلِ، وحاوي الأسرارِ؟! ليتهما يتشاجرانِ اليومَ، حينَها سيغادرُ «صلاح» غاضبًا، وستواتيني الشجاعةُ للخروجِ من مخبئي، سأسيرُ جوارَ «عبير»، كأنني لا أعلمُ وجودَها، سأدَّعي بأنني قابلتُها مصادفةً، ثم أسيرُ معها بعيدًا عن عينِ «صلاح»، ثم أعودُ لأجلسَ معها في المكانِ نفسِه الذي جلستْ معه فيه، وأعبِّرُ لها عن حبي؛ لكن كيف أحبُّها بعد ما فعلتْ معي؟ ربما لديها أسبابٌ مقنعةٌ... لكنْ ألَا يجدرُ بي أن أغضبَ، حتى لا تراني ضعيفًا أو تتهمني بأنني ديوثٌ... فعلًا يجبُ عليَّ التظاهرُ بالغضبِ، لكن لن أُفرِطَ في تظاهري هذا حتى لا تملَّ وتهجرَني... هل ستؤلِّبُني على «صلاح» كي أتشاجرَ معه، لتقتصَّ منه بعد أن أغضبَها؟! هذا جائزٌ؛ لكنني سأتهرَّبُ،

ولن تسخطَ عليَّ، وإن حدثَ، فلن يطولَ سخطُها، ستنسى، الوقتُ كفيلٌ بالنسيان».

ثُبتُ إلى نفسي، انتبهتُ إلى أنهما قد اجتازا البابَ، وسارا نحوَ الداخلِ، فخشيتُ أن أفقدَ أثرَهما، حملتُ حقيبتي وسرتُ خلفَهما حذرًا حتى لا ينتبهَ إليَّ أحدُهما، توقفا بالقربِ من أحدِ الأماكنِ المكشوفةِ المعدةِ للجلوسِ، تنهدتُ ارتياحًا، وحزرتُ أن اختيارَهما وقعَ على هذا المكانِ، فسررتُ، وشكرتُ لـ«عبير» أنها كانت عند حسنِ ظني بها، لكنهما اجتازا المكانَ واقتربا من آخرَ خفيٍّ، فخفقَ قلبي، وتمنيتُ أن يُخلفَ اللهُ ظني؛ لكنهما غابا عن عينَي مستقريْنِ في كهفِهما.

احترتُ متسائلًا عمَّا ينبغي فعله، استبدتْ بي رغبةٌ لا تُقاومُ في التلصصِ عليهما، حُمتُ حولَ مكانِ جلوسِهما فوجدتُ موضعًا يكشفُهما من خلفِ صخرةٍ، لكنَّ الرؤيةَ من خلالِه لم تكن كاملةً؛ إن مِلتُ إلى الجانبِ الأيمنِ من الصخرةِ ظهرَ جسدُ «عبير» كاملًا ونصفُ جسدِ «صلاح»، وإن مِلتُ إلى جانبِها الأيسرِ ظهر لي عكس هذا المشهد، كان عليَّ التضحية بأحدهما.

ضحيتُ بـ«صلاح»؛ فقد رغبتُ في رؤيةِ انفعالاتِ «عبير»، كان الأمل لم يزلْ يراودُني بأنها لا تُحبُّه، وأن سببًا ما هو الذي دفعَها إلى هذه العلاقة. حاولتُ تغذيةَ تلكَ الفكرةِ في نفسي، فظننتُ أنَّ إبطائي في الإفصاحِ عن حبي، دفعَها لتلبيةِ هذه المشاعرِ

عندَ غيري، ثم قلتُ لنفسي: مَن يدري لعلي كنتُ مَن يجالُسها الآن، إنْ واتتْني الشجاعةُ من قبل.

استقرَرْتُ في مكاني، سكنَ جسدي، وسكنَ معه قلبي، لا أعلمُ كيفَ هدأتُ بتلك السرعةِ، زال غضبي، وتكيفتُ مع الوضعِ الجديدِ، تعاملتُ معه كأمرٍ واقعٍ أقوى مني، لا قدرةَ لي على تغييرِه، واكتفيتُ بتمني شجارِهما ليعودَ ذلك عليَّ بالنفعِ، دونَ شجارٍ، أو مواجهةٍ، لم أكنْ مستعدًّا لدفعِ أي ضريبةٍ من أجلِ تحقيقِ ما أصبو إليه، كلُّ هذا حدثَ في أقلِّ من ساعتين. تعجبتُ من قدرتي تلك، وحمدتُ اللهَ على عدمِ اطِّلاعِ أحدٍ على مكنونِ نفسي، وإلَّا اتهمني بأنني ديوثٌ. فكرتُ أن أُطيلَ النظرَ إليهما لعلي أغضبُ، ساءني أن رأيتُ كتفيْهما متلاصقتينِ؛ لكنني مع ذلك لم أغضب.

تركتُ ما أشاهدُه، وبدأتُ صراعًا مع نفسي، حاولتُ فيه إجبارَها على الغضبِ، لعلي أفوزُ باحترامِ ذاتي؛ لكنني كنتُ باردًا كالثلج. ثبتُّ إلى نفسي حينما اعتدلا في جلستِهما، واتجهَ كلٌّ منهما بجسدِه ناحيةَ الآخرِ، فباتا متواجهينِ، اقترب كلٌّ منهما للآخرِ، العينُ أمامَ العينِ، والفمُ في الفمِ، والأنفُ في الأنفِ، لم يفصلْ بينهما إلا مقدارُ شِبرٍ، هي خمسةُ أصابعَ، زوجٌ عن اليمينِ، وزوجٌ عن اليسارِ، وبينهما الإصبعُ الأوسطُ، فردًا، وحيدًا، طويلًا، طليقًا، محايدًا، يفعلُ ما يحلو له. بدا لي أنَّ كليهما يشعرُ بدفءِ

أنفاسِ الآخرِ، وظننتُ أن كلًّا منهما لا يتحدثُ إلا من أجلِ أن يبعثَ رائحةَ أنفاسِه إلى الآخرِ، كأنها رسالةُ عشقٍ غيرُ محبَّرةٍ، حينها فقط قفزَ الغضبُ إلى رأسي.

تأهبتُ، وفي عقلي أنني سأقفزُ ناحيتَهما لأفاجئَهما، بدا لي أن المفاجأةَ خيرُ معينٍ في تحقيقِ ما أصبو إليه، قررتُ أن أثورَ في وجهيْهما، وأسبَّهما، وأخبرَهما بأننا لم نعدْ أصدقاءَ، ثم أُعرضُ مبتعدًا عنهما والظَّفَرُ يُجلِّلُني، كهالةِ نورٍ بيضاويةِ الشكلِ تحيطُ بي وتسيرُ معي، وسينظرونَ إليَّ من الخلفِ في إعجابٍ كثير يخالطُه خيبةُ أملٍ وشعورٌ بالذنب. هذا بالضبطِ ما صبوتُ إليه آنذاك؛ لكنني فكرتُ في أن أُرجئَ تنفيسَ هذا الغضبِ الذي اعتلاني فجأةً إلى أن يكونا في موقفٍ أشدَّ فداحةً مما هما عليه الآنَ؛ لِيقوى بذلك موقفي، ويضعفَ موقفُهما، فيسهلُ انتصاري.

وبالفعلِ لم تمرَّ دقائقُ حتى صَمَتا، وحدق كلٌّ منهما في الآخرِ بلوعةٍ واشتياقٍ، واقتربتْ شفاهُهما. قُلتُ لنفسي إن تلكَ هي اللحظةُ الحاسمةُ التي يجبُ أن أبادرَ بالفعلِ فيها قبلَ أن يتلامسا؛ لكنني فكرتُ في أن الهجومَ سيبدو أكثرَ فاعليةً إن تمَّ في منتصفِ القُبلةِ، فأرجأتُه بإشارةٍ من عقلي إلى جوارحي. ترقبتُ الموقفَ حتى التصقتْ شفاهُهما، حينَها تأججَ الغضبُ داخلي أكثرَ فأكثرَ، وصرتُ أغلي كالموقد، واحمرَّت وجنتاي، ثم أُذناي، وسقطتْ عني حقيبتي، وهممتُ بالوقوفِ، وبينما أتكئُ على قدمي اليُمني،

اصطدمتُ بزجاجةٍ فارغةٍ ملقاةٍ إلى جواري، فارتطمتْ الزجاجة بالصخرةِ، وأحدثت رنينًا، وصلَ إلى سمعِهما فانتبها.

انبطحتُ أرضًا خوفًا من أن يراني أحدُهما، وتلصصتُ عليهما بطرفِ عيني، وجدتُ «صلاح» يتأهبُ لتقصِّي الأمرِ، خفقَ قلبي بشدةٍ، وقلتُ في نفسي إنني غيرُ مهيَّأ لمواجهتِه الآنَ، وتقهقرتُ زاحفًا بحذر وخوف شديدينِ قبلَ أن يراني. راقبتُه من بعيدٍ، كان قد وصلَ إلي المكانِ الذي كنتُ أختبئُ فيه، تقصَّى أنحاءَه فلم يجدْ شيئًا، وعادَ إلى «عبير» يُطمئنُها؛ لكنَّ الخوفَ تسلَّلَ إلى نفسِها فأصرَّت على المغادرةِ.

١٤

عدتُ من كهفِ العشاقِ بعددٍ لا نهائيٍّ من المشاعرِ والأفكارِ، عِشتُ معها وبها الليلَ كلَّه، حتى غلبَني النعاسُ من شدةِ الإعياءِ، وحينما استيقظتُ في الصباحِ، ألحَّ عليَّ سؤالٌ لم أكنْ قد جاوبتُ عليه بعدُ: ما هي خطوتي التالية؟

فكَّرتُ في أنني ما زِلتُ في حاجةٍ إلى مزيدٍ من الوقتِ لاستيعابِ الأمرِ واتخاذِ القرارِ المناسبِ، فقررتُ التغيُّبَ من المدرسةِ، وفي نفسي اعتذارٌ صامتٌ لـ«عبير» و«صلاح»؛ لأنهما لن يتمكَّنا اليومَ من تبادلِ الرسائل.

قضيتُ اليومَ في التفكيرِ، أردتُ حسمَ أمري سريعًا؛ لأكونَ مستعدًّا لمواجهةِ «عبير» حينما تمرُّ عليَّ بعد انتهاءِ اليومِ الدراسيِّ، قلَّبتُ الأمرَ على وجوهِه فلم أجدْ إلا حلًّا واحدًا، هو أن أتعاملَ كأنني لم أجدْ شيئًا، ولم أقرأْ الرسائلَ، ولم أتلصصْ عليهما، قررتُ أن أظلَّ رسولَهما المغفلَ، ومن خلف ظهريْهما سأقرأُ كلَّ خطاباتِهما المتبادلةِ.

يبدو لي الآنَ ـ وإنْ لم أعِ هذا في حينها ـ أنَّ هذا هو أفضلُ قصاصٍ يتفقُ مع طبيعتي؛ أنْ أعكسَ الصورةَ، أنْ يصيرا المغفلينِ، بينما يظنانِ أنهما ما زالا يستغفلانني.

* * *

انتهى العامُ الدراسيُّ، نجحتُ بمجموعٍ ضئيلٍ لا يكفي إلا للالتحاقِ بإحدى كلياتِ المجمعِ النظري. وحتى هذه لن تقبلَني إلا منتسبًا؛ أي بمصروفاتٍ زائدةٍ، وبامتيازاتٍ أقلَّ من الطلبةِ المنتظمين. نشبَ شجارٌ هو الأعظمُ منذُ فترةٍ طويلةٍ، بين والدَيَّ، كانت أمي مصرَّةً على أن أُعيدَ العامَ الدراسي، واتهمتني بأنني خيَّبتُ آمالَها، وتعهدتْ بالتكفُّلِ بكلِّ المصروفاتِ الدراسيةِ وستساعدُني على الاعتكافِ للاستذكارِ حتى أحصلَ على مجموعٍ كبيرٍ للالتحاقِ بكليةٍ من كلياتِ القمةِ التي لم تكنْ بالنسبةِ لها إلاَّ الطبَّ، والهندسةَ، والصيدلةَ، والاقتصادَ والعلوم السياسية. أما أبي فقد كانَ يريدُ إلحاقي بكليةِ الشرطةِ، وكان مجموعي يكفي لذلك بشرطِ اجتيازِ باقي الاختباراتِ المؤهلةِ إليها، وقال إنه قد اتفقَ مع أخيهِ «عبد الحميد» على كلِّ التفاصيلِ، وإنه سيكونُ واسطتي، وسيضمنُ قبولي، بما له من سلطةٍ ونفوذٍ.

دعا أبي عمي أكثرَ من مرةٍ لإقناعِ أمي، أمَّا أنا فلم يكنْ ينقصُني الإقناعُ، لا بهذا الرأيِ أو ذاكَ، فلم أُبالِ بأيِّ الكلياتِ سألتحقُ، ولم تكنْ لي أيُّ أهدافٍ أو طموحاتٍ مستقبليةٍ، ولم تكن الجامعةُ

بالنسبةِ لي إلا مكانًا ينبغي عليَّ الالتحاقُ به ـ بإرادتي أو رغمًا عني ـ لإكمالِ دراستي كالمدرسة.

تذكرتُ حينَها الحوارَ الذي دارَ بيني وبينَ عمي «عبد الحميد» في النادي بعد ما حدثَ لي في أُولى مبارياتي، وبدأتُ أعي علاقةَ ما حكاهُ عن تاريخَ أبي بما يحدثُ لي، وبإصرارِه على التحاقي بكليةِ الشرطةِ بعد أن خابَ أملُه في احترافي كرةَ القدم.

لأبي ثلاثةُ إخوةٍ، هو الثالثُ في الترتيبِ، عانى منذُ الصغرِ بسببِ تأخُّرِه الدراسي، وزادَ معاناتَه أنَّ جميعَ إخوتِه متفوقونَ دراسيًّا، فعاملَه أبوه بقسوةٍ، وبات يُلامُ ويُعنَّفُ منه، كلما وُضِعَ في مقارنةٍ بهم، ولم يكفَّ والدُه عن مطالبتِه بتعلمِ الذكاءِ من إخوتِه، لِيصبحَ متفوقًا مثلَهم، دونَ أن يخبرَه بالكيفيةِ التي يمكنُ أن يتعلمَ بها إنسانٌ الذكاءَ من غيرِه.

لم يعِ جدي أن قدراتِه الجسديةَ أعظمُ من قدراتِه العقليةِ، ولم يعرفْ كيف يمكنُ أن يطورَ هذه القدراتِ ليُعينَ ابنَه على التفوقِ فيما يناسبُ قدراتِه، فعاملَه على أنه أفشلُ أبنائه، وصار أدنى منزلةً عنده، ولم يكنْ سعيُه واجتهادُه في تحصيلِ الدروسِ ليغنيَ عنه شيئًا، فكفرَ بالعلمِ وضاقَ به ذَرعًا، واتخذَ له من العملِ الصيفي ملاذًا للهربِ من البيتِ، فعملَ في ورشٍ للصناعاتِ اليدويةِ، نجارةً، حدادةً، خراطةً، كهرباءَ، وغيرها من الأعمالِ التي كان يجدُ فيها نجاحًا وتفوقًا، بل سعادةً.

كان الوحيدَ في إخوتِه الذي يعملُ في الصيفِ، أما بقيتُهم فكانوا ـ بأوامرَ من الوالدين ـ يُجهزون أنفسَهم للعامِ الدراسي المقبلِ، بالقراءةِ، والاطلاعِ، وأحيانًا بالدروسِ الخصوصيةِ. كانَ أكثرُهم امتلاكًا للمالِ، فأصبحَ ذا حظوةٍ عندهم، يلجأون إليه لتلبيةِ رغباتِهم التي يرفضُها الوالدان. كان أبي يُلبي هذه الرغباتِ عن طيبِ نفسٍ، بل وفي أوقاتٍ يتطوعُ بسؤالِهم عن احتياجاتِهم، يبدو أنه كان يتطلعُ إلى التفوقِ عليهم في شيءٍ، شعرَ أن المالَ أعظمُ سلطةً وأكثرُ نفوذًا من العلمِ، وأن من خلالِه يمكنُ أن يحصلَ على المكانةِ والتقديرِ، فتعلَّق به وصارَ يسعى إليه، آملًا أن ينتزعَ به اعترافًا بالجدارةِ من أبويه؛ لكنهما امتنعا عن منحِهِ هذا الاعترافَ طوالَ حياتِهما.

تخرَّجَ من المعهدِ الفني الصناعي، وعملَ في خراطةِ المعادنِ بقسمِ صيانةِ المكنِ والمعداتِ، في مصنعِ «أبو قير للأسمدة»، وظلَّ يحاولُ جمعَ المالِ اللازمِ لتحقيقِ حُلمِه في افتتاحِ مصنعٍ للخراطة. لم يكنْ بخيلًا بطبعِه، بل كريمًا على القريبِ والغريبِ، وكان كرمُه هذا هو طريقتُه لامتلاكِ القلوبِ التي لا يستطيعُ امتلاكَها بالصداقةِ، أو حسنِ المعاشرةِ، أو لباقةِ الحديثِ، فقد كان قليلَ الكلامِ، كثيرَ الفعلِ، يميلُ للإنصات، ولا تتعدى ردودُه في أيِّ موقفٍ أو نقاشٍ، الإيماءةَ بالرأسِ، أو الإشارةَ باليدِ، أو كلمةً وحيدةً بلا رفيق. تسبَّبَ كرمُه في إخفاقِه، فلم يستطعْ ادِّخارَ الأموالِ اللازمةِ لتحقيقِ حُلمِه، وكان كلُّ ما جمعَه يكادُ يكفي زواجَه.

تزوَّجَ، وأنجبَ، وحاولَ الادِّخارَ مجددًا؛ لكنه فشلَ. يبدو أنَّه أدركَ أن زوجتَه تحتاجُ إلى تعويضٍ ما عن فقدانِها المركزَ الاجتماعيَّ، الذي أملتْ في الحصولِ عليه، فكان يعوِّضُها بالمالِ، ثم فكَّرَ في أن يحققَ ابنُه الحُلمَ الذي راودَه طيلةَ حياتِه؛ لكنَّ الابنَ منذُ نعومةِ أظفارِه لم يكنْ على الصورةِ التي تخيلها الأبُ، ورغبَ فيها تمامًا، كما أنه لم يكنْ على الصورةِ التي تخيلَها وتمنَّاها أبواه؛ ففقدَ إيمانَه به وبقدرتِه على تحقيقِ أحلامِه.

وبمرورِ السنينَ، تغيَّرتِ الحياةُ في مصر، ولم تَعُدِ الصناعةُ مصدرًا للثراءِ، بل باتت مصدرًا «لوجع الدماغ والقلب» ليسَ أكثر؛ فتوارى حُلمُه القديمُ، وإنْ لم تتوارَ قيمةُ الأموالِ في نفسِه. تنحَّتْ صورةُ المصنعِ عن رأسِه، وحلَّتْ محلَّها صورةُ (السوبرماركت)؛ لكنه كان يعلمُ أنَّ رأسَ المالِ اللازمَ لهذا الحلمِ ذي البابِ الصاجِ كبيرٌ؛ ولكي يحصلَ عليه يحتاجُ إلى ضربةِ حظٍّ، فأملَ أن يصيرَ ابنُه لاعبَ كرةٍ، وتجدَّدَ بذلكَ إيمانُه بابنِه، وأحلامِه القديمةِ، لذلك شجَّعَه بشدةٍ حينما وجدَ فيهِ الرغبةَ والموهبةَ؛ لكنْ بعد أن حدثَ ما حدثَ، فقدَ إيمانَه به من جديدٍ، بل ربما الأملَ في كلِّ شيء.

تخرَّجَ الابنُ من الثانويةِ العامةِ، ويبدو أن الأبَ شعرَ بالذنبِ تجاهَ ابنِه؛ فهو لم يتركْ له شيئًا؛ أموالًا، سلطةً، مكانةً اجتماعيةً، أو ما يتكئُ عليه بعد موتِه. فكَّرَ كيف يعوضُه، وأدركَ أن المستقبلَ

في الأيامِ القادمةِ ليس للصناعاتِ كما كان في شبابِه، ولا في التجارةِ والأموالِ كما كان في كهولتِه؛ لكن في السلطةِ والنفوذِ، وكان نجمُ المؤسسةِ العسكريةِ بشقيْها يعلو في ذلك الوقت، فقد كانوا يتمتعون بصلاحياتٍ واسعةٍ، وامتيازاتٍ كبيرةٍ، في كلِّ رفاهياتِ الحياةِ، دون باقي القطاعاتِ، فلجأَ لأخيهِ الضابطِ؛ كي يساعدَ ابنَه في الالتحاقِ بكليةِ الشرطة.

بدأتْ اختباراتُ الكليةِ، تأكدتُ في أثناءِ خوضِها أنها مِهنةٌ قاسيةٌ، وأنني لا أصلحُ لها، ومع ذلك لم أستطعْ الاعتراضَ أو التراجعَ، وتركتُ الأمورَ تسيرُ على عواهِنها. لم أملكْ من نفسي إلا الدعاءَ، وقد استجابَ اللهُ لدعواتي. رسبتُ في الكشفِ الطبي بسببِ انحناءةٍ بسيطةٍ في ظهري، وسرعةٍ في ضرباتِ قلبي، ولم يستطعْ عمي إنقاذَ حلمَ أبي، وأخبرَه بأن الوساطةَ تصلحُ في كلِّ مراحلِ الاختبارِ عدا الكشفَ الطبي.

كانت سعادتي غامرةً بالتخلصِ من هذا الكابوسِ، لم تفلحْ أمي أيضًا في مسعاها؛ لأن الوقتَ المخصصَ لطلباتِ إعادةِ الصفِّ الدراسيِّ قد فاتَ. تركاني وشأني، أفعلُ ما يحلو لي، وظننتُ أنني سأُسرُّ بهذه الحريةِ؛ لكنني على العكسِ شعرتُ برهبةٍ، وخوفٍ من اتخاذِ القرارِ، فاستعنتُ بـ«عبير» التي اقترحتْ عليَّ أمرًا بدا لي بديهيًّا إلى الدرجةِ التي شعرتُ فيها بالغباءِ؛ لأنني لم أفكرْ فيه قبلَها، نصحتني بأن ألتحقَ بكليةِ الآدابِ قسمِ اللغةِ العربية.

التحقتْ «عبير» بكليةِ التجارةِ، و«صلاح» بالحقوقِ. جمعتنا أسوارُ المجمعِ النظري بـ«الشاطبي». في اليومِ الأولِ من الجامعةِ ذهبتُ مبكرًا قبل كلِّ الطلبةِ والأساتذةِ، صعدتُ إلى «مُدرج العبَّادي» الذي علمتُ أنه مقرُّ محاضراتي. كنتُ أريدُ أن أتفحصَ المكانَ خاليًا؛ كي آلفَه، أُروِّضَه، أكسرَ حاجزَ الخوفِ بيني وبينه، فقد عانيتُ في الفترةِ الأخيرةِ من قلقٍ مزمنٍ يحتلُّني كلما تأهبتُ لزيارةِ مكانٍ جديدٍ، أو مقابلةِ شخصٍ مجهولٍ.

ولجتُ قاعةَ المحاضراتِ، كانت خاليةً، واسعةً، فكرتُ في أن مساحتَها مائةُ ضعفِ مساحةِ فصلِنا المدرسي، شعرتُ بالبردِ، وارتعشتْ أطرافي، وصرتُ أتلفَّتُ حولي، كأنني مُهدَّدٌ، تاقت نفسي إلى الأماكنِ الضيقةِ التي ألِفتُها، غرفتي، سريري، مكتبي، فصلي، (تختتي)، كلِّ الأماكنِ التي أشعرُ بالأمانِ فيها. تساءلتُ في نفسي: تُرى أتكونُ القاعةُ في أثناءِ المحاضراتِ مزدحمةً أم خاليةً؟ هل يتكالبُ الطلبةُ على الصفوفِ الأُولى كما يحدثُ في المدرسةِ؟ هل من الأفضلِ الجلوسُ في مقدمةِ الصفوفِ أم المؤخرةِ أم الوسطِ؟ وإذا جلستُ في المؤخرةِ للاختباءِ عن عيونِ الأساتذةِ، وصادفَ أنْ سألني أحدُهم سؤالًا، هل سيصلُ صوتي إليه؟ وإنْ لم يصلْ هل سيسخرُ مني؟ وإن سخرَ هل سيقلِّدُه باقي الطلبة؟ كيف أُثبتُ وجودي في هذا المكانِ الشاسعِ، وسطَ هذا الجمعِ الغفيرِ من الطلبةِ، بينما لم أستطعْ إثباتَه في مكانٍ أصغرَ وعددِ طلبةٍ أقل؟

لم أجدْ في نفسي الشجاعةَ الكافيةَ لحضورِ المحاضراتِ، ووجدتُ الملاذَ في مرافقةِ «عبير»، حضرتُ معها محاضراتِها، وتعرَّفتُ على (شلتها) التي لم يكنْ منها «صلاح». أثارتْ هذه الملاحظةُ فضولي، وتذكرتُ آخرَ المراسلاتِ التي تلصصتُ عليها، بدا من خلالِها أن علاقتَهما متوترةٌ، كانا كثيرَيْ اللومِ، واتهمتْهُ «عبير» مراتٍ بأنه لم يَعُد يُحبُّها، وأن عينَه (تزوغ) على غيرِها من الفتياتِ، حتى وهما مترافقانِ، وأنه لا يتلهَّفُ على مقابلتِها كما كان في السابقِ. وكانت ردودُه على خطاباتِها فاترةً، بلا روحٍ، كأنها قضاءٌ لواجبٍ، بلا مشاعرَ أو انفعالاتٍ.

سُررتُ حينها، وشعرتُ بالظفرِ، وتمنيتُ أن تطولَ المرحلةُ الثانويةُ لمتابعةِ تطورِ علاقتِهما؛ لكنها انتهتْ قبلَ ذلك، فوجبَ عليَّ أن أجدَ طريقةً لمعرفةِ ما آلتْ إليه علاقتُهما دونَ أن يشعرا. اتفقَ لي كثيرًا مقابلةُ «صلاح» عندَ مبنى كليةِ السياحةِ والفنادقِ، وهو مقرُّ (شلته)، بينما كان مقرُّ شلةِ «عبير» أمامَ مبنى كليةِ تجارة إنجليزي، وعرضتُ عليه أن يأتيَ معي لأُعرِّفَهُ بشلتي؛ لكنه اعتذرَ. وفي إحدى المراتِ أخبرتُ «عبير» بأنني قابلتُ «صلاح»، فبدا عليها عدمُ الاكتراثِ، احترتُ متسائلًا: هل انتهتْ علاقتُهما؟ أم أنها حيلةٌ جديدةٌ لاستكمالِ علاقتِهما في الخفاءِ؟ كان الاحتمالُ الأوَّلُ هو الأقربَ، فلم يكن هناكَ داعٍ للتحايُلِ أو إخفاءِ العلاقةِ، بعد أن انفتحَ مجتمعُ الجامعةِ أمامَهما، وهو أوسعُ وأرحبُ

وأقلُّ تقيُّدًا بالعاداتِ من المدرسةِ، فيسمحُ لعلاقاتِ الصداقةِ والحبِّ أن تنشأَ بشكلٍ طبيعي بين الجنسين.

في تلك الفترةِ شعرتُ بأن هناك تغيُّرًا ما في تصرفاتِ «عبير» تجاهي. حينما أكونُ منهمكًا في الإنصاتِ لأحدِ أفرادِ (الشلة)، ويتفوقُ لي أن ألتفتُّ نحوَها فجأةً، أجدُها تنظرُ إليَّ بشيءٍ من التأملِ والشرودِ، وما إنْ شعرَتْ بالتفاتي نحوَها، حتى هربتْ سريعًا بعينيْها، وادَّعتْ الانشغالَ بشيءٍ آخرَ، وأحيانًا تردُّ على المتحدثِ لإثباتِ أنها كانت تُصغي إليه، كأنها لا تريدُ أن أُلاحظَ انشغالَها بي. وحينما يتهيَّأُ أفرادُ (الشلة) لتناولِ الطعامِ، تهتمُّ بطلبي وتضمُّه إلى طلباتِها في قائمةٍ واحدةٍ، وكثيرًا ما تَجعلُني أتذوقُ أنواعَ الطعامِ التي تختارُها لأُبدي رأيي فيها، وغيرُها من المواقفِ التي كانتَ تشيرُ إلى إفراطٍ في اهتمامِها بي.

قابلتُ هذا الاهتمامَ بشكٍّ وتوجسٍ، فكرتُ مليًّا في دوافعِها ونواياها، وظننتُ أنها تشاجرتْ مع «صلاح»، ولا تتقربُ مني إلا لاستفزازِه، وسرعانَ ما ستعودُ المياهُ إلى مجاريها. ومع ذلك لم أصدُّها، بل كنتُ أستمتعُ باهتمامِها الزائدِ، وأُؤجِّجُه ما وسعني تأجيجُه.

كنتُ قد صرفتُ فكري وقلبي عنها حينما اكتشفتُ علاقتَها بـ«صلاح»، واستنكرتُ إعجابي بها وانجذابي لها، وخاطبتُ نفسي: كيف أحببتُ هذا الوجهَ القبيحَ؟! كيف عَدَدتُها في يومٍ من الجميلاتِ؟ أعرفُ أنها الوحيدةُ التي صادقتْني، واهتمتْ بأمري؛ لكنْ هل هذا مبررٌ كافٍ لقلبِ الحقائقِ، لرؤيةِ القبحِ جمالًا؟!

١٥

أيلدُ قلبُ الإنسانِ أم يبيضُ؟

إنَّ السمكَ من أكثرِ الكائناتِ الحيةِ وضعًا للبيضِ، فبعضُ الأنواعِ تبيضُ بالمئاتِ، وأخرى بالآلاف. يُخيَّلُ إليَّ أن قلبَ الشابِ في مرحلةِ المراهقةِ، وما بعدَها بقليلٍ، قادرٌ على إنتاجِ المشاعرِ بقدرةٍ تفوقُ قدرةَ السمكِ على إنتاجِ البيض.

* * *

كلما زادَ اهتمامُ «عبير» بي، انجذبتُ إليها، ورأيتُ القبحَ جمالًا من جديدٍ؛ لكنني كنتُ حريصًا تلكَ المرةِ، فلم أخاطبْ نفسي بحبِّها، بل تركتُ مسافةَ شكٍّ بين قلبيْنا، ووصفتُ العلاقةَ بيني وبين نفسي على أنها صداقةٌ مقربةٌ، قد تتطورُ في المستقبلِ القريبِ أو البعيدِ إلى حبٍّ. وبذلك تركتُ فرجةً مفتوحةً من البابِ ينفذُ منها قلبي إنْ حدثَ أمرٌ يسوؤني.

«صداقةٌ مقربةٌ! وقد تتطورُ! بعد ما فعلتْ؟! وما رأيتُ؟! كنتُ أحمقَ، ساذجًا. لا... الأمرُ الآنَ مختلفٌ... حقًّا؟... بالتأكيدِ...

أم ما زِلتُ غرًّا؟... ماذا يبدو عليَّ؟... كأنك ابن الخامسةِ عشرةَ... العمرُ رقمٌ... ووقتٌ... وأماكنُ... وقرارتٌ... وحُمقٌ وسذاجةٌ... الجوُّ حارٌ... انتظروا سأخلعُ سُترتي... هل هي السترةُ نفسُها... لا تبتسمْ يا أحمقُ... أصوتُ مطرٍ هذا؟... الجوُّ باردٌ لن أتحملَ خلعَ السترةِ... سأتدثرُ بالغطاءِ... نحن في الصيفِ أم الشتاءِ؟... يبدو أنه خريفٌ... بينَ بينَ.. لا هذا ولا ذاكَ... كان يجبُ أن أسيءَ الظنَّ... في نفسي أم في غيري؟... في «عبير»... وربما «صلاح»... كنتُ أظنني حريصًا... بالضبطِ كما أظنُّ نفسي الآن ناضجًا... كبيرًا... ذبابةٌ تطنُّ... سأدَّعي الانشغالَ ثم أسحقُها... ليت «عبير» ذبابةٌ... لأصبحَ الأمرُ سهلًا... وليتني كنتُ ضفدعًا، فألتقطَها بلساني الطويلِ... طويل!... حقًّا؟... ربما... لكنك لم تسبُّ قَطُّ... بل سببْتُ... في نفسي فقط... لِأسبَّ الآنَ... صوتي مبحوحٌ... الكلامُ لا يخرجُ... لِأهمسْ إذن... بماذا أهمسُ؟... بأيِّ شيءٍ... بل من الأفضلِ أن تصرخَ... ليتني فعلتُها... في الماضي... حينما خُدعْتُ... كان ينبغي أن أصرخَ... لكني صمتُّ... ورضيتُ... وخُدعتُ... مرةً، أم مرتين؟... نَفَسي يضيقُ... ما هذا؟! أيتساقطُ شعري على الورقِ؟... شعرٌ هذا أم ريشُ حمامٍ؟... وهل هناك ريشٌ أسودُ؟... لعله ريشُ غرابٍ... أبيضُ الغرابُ، أم يلدُ؟... البيض... آهٍ تذكرتُ... أنا أكتبُ ذكرياتي... أين توقفت؟».

* * *

في ذلك الوقتِ تعرَّفتُ على ساندي، وهي واحدةٌ من أفرادِ شلة «عبير»، فتاةٌ في كلية التربيةِ قسمِ اللغةِ الفرنسية، جمالُها لا تُخطئُه عينٌ، وجهُها حيٌّ نَضِرٌ، ذو قسماتٍ دقيقةٍ، وبشرةٍ بيضاءَ، ثغرُها باسمٌ وضَّاءٌ، طويلةُ القامةِ، شعرُها البنيُّ منسابٌ على كتفيْها، كلما نظرتُ إلى عينيْها العسليتينِ، شعرتُ كأنها تحضنُني برقةٍ وحنانٍ؛ لكنها نحيفةٌ، ولا يظهرُ على جسدِها أيُّ ملمحٍ من ملامحِ الأنوثةِ، كان جمالُها ملائكيًّا، لم تلتفتْ إليَّ، ولم أطمحْ لذلك؛ لأنني في قرارةِ نفسي أيقنتُ أن فتاةً في مثلِ هذا الجمالِ خليقةٌ بشابٍّ أكثرَ مني فتوةً، ووسامةً، وقوةَ شخصيةٍ، فكرتُ في أنها خليقةٌ بـ«صلاح» أو مَن على شاكلتِه.

وجدتُ في النظرِ إليها متعةً لا تُضاهى، قنعتُ بتأمُّلِها، ولم أتطلعْ لِأبعدَ من ذلك، حتى الحديثُ معها كنتُ أنفرُ منه؛ لأنني حينَها أكونُ كالأبلهِ المحصورِ الذي يُخرجُ الكلامَ بشقِّ الأنفُسِ، أو كالطفلِ الذي يتعلمُ النطقَ. كنتُ كلما تحدثتُ إليها انشغلتُ عنها، وتخيلتُ ما تُفكرُ به تجاهي، واقتنعتُ بأنها تسخرُ مني في نفسِها بينما تتحدثُ، ثم أفيقُ لأجدَني أنظرُ إليها ببلاهةٍ وهي تردِّدُ أسئلتَها لي دونَ أنْ أُحرِّكَ ساكنًا. فأُوقِنُ أنَّ صورتي داخلَها قد اهتزَّتْ، وأعيشُ باقي اليومِ في كَمَدٍ وحزن.

صِرتُ متبتلًا في محرابِ وجهِها الملائكي، وفي أوقاتِ انتظارِها أفكرُّ فيها وأتخيلُها، وأُحزرُ ماذا تلبسُ اليومَ، فقد كنتُ أحبُّ أن أراها باللونِ الأبيضِ، والروز، والفوشيا. أخاطبُها

متخيلًا أنها في البيتِ تستعدُّ للخروجِ، فأخبِرها بأنني أريدُ أن أراها اليومَ باللونِ الأبيض، وأنتظرُ بعد ذلك حضورَها لأتأكدَ إنْ كانت قد سمعتْ طلبي الصامتَ عن بُعد. كنتُ أسعدُ سعادةً غامرةً إنْ تطابقَ ما ترتدي بما طلبتُه منها في خيالي، ثم أحسبُ أن بيننا شيئًا مشتركًا غيرَ ملموسٍ، لا يُرى ولا يُشمُّ، وإنما يُحسُّ بالقلوبِ، ونتخاطبُ لا كما يتخاطبُ البشرُ، إنما كالملائكة.

أحببْتُ أنْ أُخاطبَها بعينَي من طرفٍ واحدٍ، دونَ أن تبادلَني النظراتِ؛ فقد كنتُ أرتبكُ بمجردِ أن تتلاقى أعيننا. هذا الخطابُ الصامتُ لم يخلُ من مصاعبَ، فباقي فتيانِ (الشلة) كانوا يُحبونَها ـ أو على الأقلِّ هم منجذبونَ لها بطريقةٍ ما ـ وكان هناك صراعٌ خفيٌّ بينهم على من يفوزُ بها. كنتُ خارجَ هذا الصراعِ؛ لأنني لم أطمحْ لها قَطُّ، ولم أُشعرْ أحدًا باهتمامي بها؛ لكنني كنتُ أخشى أن يلاحظَ أحدُهم مراقبتي لها ونظراتي لوجهِها، فأُثير بذلك حفيظتَه وغيرتَه، فيتخذَ مني موقفَ الخصمِ، ويُدخلَني في دائرةِ صراعٍ لا أرغبُ في خوضِه، ولا أملكُ القدرةَ على الفوزِ به.

خشيتُ أيضًا من ملاحظةِ «عبير»، فيضعفُ اهتمامُها بي؛ لذلك تعلمتُ كيفَ أختلسُ النظراتِ دونَ أن يشعرَ بي أحدٌ، كنتُ أدَّعي الانشغالَ في حديثٍ مع «عبير» وقلبي معلقٌ بمن تقفُ جوارَها، وسمعي مرهَفٌ لأيِّ كلمةٍ تصدرُ منها. أدمنتُ السيرَ في طرقاتِ المجمعِ النظري بحثًا عن ساندي ومراقبتها.

وفي يوم كنتُ جالسًا على مقعدٍ رخاميٍّ وحدي في انتظارِ باقي أفرادِ (الشلةِ)، تلصصتُ على جمعٍ من الأصدقاءِ، يجلسونَ خلفي في الحديقةِ المواجهةِ للسورِ المُطلِّ على شارعِ «بورسعيد»، لقتلِ الملل، كان أحدُهم يحملُ صنارةً مطويةً، ويحكي لأصدقائِه عن براعتِه في الصيدِ، وكيف أن غنيمتَه في كلِّ مرةٍ لا تقلُّ عن عشرِ سمكاتٍ كبيراتٍ، وربما أيضًا (مبطرخات)، كان يصفُ أسعدَ أوقاتِه في الصيدِ حينما تغمزُ الصنارةُ، يخفق قلبُه، ويحدسُ بنوعِ السمكةِ حسبَ ثقلِها، وطبيعةِ مقاومتِها، أو مراوغتِها، وأضافَ أن حدسَه غالبًا ما يصيبُ، ثم حكى لهم عن نوعِ الطُّعمِ المفضلِ لكلِّ نوعِ سمكٍ، وكيفَ ينتقي أجودَه، وكيفَ أن طريقةَ وضعِه في طرفِ الصنارةِ تؤثرُ في نتائجِ الصيد. كنتُ منهمكًا في التلصصِ حينما بدت لي «ساندي» من بعيدٍ، كانت أولَ الحاضرين، خفقَ قلبي، وفكرتُ في أن أُغادرَ المكانَ وأعودَ بعد أن يأتيَ باقي الأصدقاءِ، كنتُ أخشى الخلوةَ بها، ماذا سأقولُ؟ كيف سأنظرُ إليها؟ هل سأجلسُ إلى جوارِها، أم ينبغي أن أبعدَ عنها قليلًا؟ صرتُ أُفكرُ حتى ضاعتْ فرصةُ الهربِ، وأصبحَ وجودُها واقعًا، ابتسمتْ لي وهي تقتربُ مني، شعرتُ بوجهي يحمرُّ خجلًا، صافحتني وجلستْ جواري تكادُ تكونُ ملتصقةً، ثم قالت:

ـ ازيك يا عمر.

ـ الحمد لله.

ـ مافيش حد جه؟

ـ لسا.

ـ انت هنا من بدري؟

ـ آه.

ـ وقاعد لوحدك كل ده؟

ـ آه.

كانت كلُّ ردودي مقتضبةً، خجولةً، حاسمةً، لا تُشجعُ أحدًا على مواصلةِ الحديثِ؛ لكنها استرسلتْ قائلة:

ـ عمر ممكن أسألك سؤال، بقالي كتير نفسي أسأله؟

«استر يا رب»، تخيلتُ أن أمري قد افتُضحَ، وأنها حتمًا ستسألُني لماذا أنظرُ إليها وأتبعُها، ابتلعتُ ريقي بصعوبةٍ، وندمتُ على جرأتي المتبجحةِ التي باتت على وشكِ الافتضاحِ، صمتُّ ثواني محاولًا التهربَ من السؤالِ؛ لكنها كانت تنظرُ في عينَي، فلم أجدْ بدًّا من الرد:

ـ ممكن.

قالت وفي عينيْها ملامحُ شفقة:

ـ هو انت ليه طول الوقت ساكت؟

تنهدتُ ارتياحًا ورددتُ باقتضاب.

ـ عادي.

ـ يعني إيه عادي؟ كل الناس بتتكلم وتحكي عن نفسها إلا أنت.

«بجد.. عاوزة تسمعي صوتي وحكاياتي؟.. نفسك تعرفي إيه عني يا قمر؟»

ـ وهتكلم أقول إيه؟

ـ أي حاجة.

ـ أي حاجة.

ردَّتْ بضحكةٍ هادئةٍ، افترَّ عنها ثغرٌ لؤلؤيٌّ، نظرتُ إليه، وتخيلتني أُقبِّلُه؛ لكنني أبعدتُ عينَي عنه سريعًا حتى لا توجسَ ما دار في خَلدي.

فشلتْ كلُّ محاولاتِها، ولم أحكِ شيئًا عن حياتي، ويبدو أنها ملَّت، فتركتْ كتبَها جواري، وأخبرتْني أنها ستذهبُ إلى دورةِ المياه.

راقبتُها بعينَي، وفي قلبي مشاعرُ متفاوتةٌ. ارتياحٌ لأنني تخلصتُ من أسئلتِها المُلحَّةِ التي جثمتْ على صدري، وفي الوقتِ نفسِه حزنٌ على فراقِها، فقد كنتُ أرغبُ ألَّا تغادرَ أبدًا، لكن بشرطِ أن تصمتَ في حضرتي. غابتْ عن عينَي، نظرتُ إلى كتبِها، ثم اقتربتُ منها حتى التصقتُ بها، وفكرتُ أن ألتقطَها وأشمَّ شذاها؛ لكنني خشيتُ أن يراني أحدٌ، فوضعتُ كتبي على كتبِها، ثم رفعتُهما إلى صدري ـ وكأنها مقتنياتي ـ ومنها إلى أنفي، فاشتممْتُ فيها عبيرَها الذي يهفو عليَّ حينما تمرُّ بجواري، وسرعانَ ما أعدتُها مكانَها.

راودتني فكرةُ أن أدسَّ رسالةَ حبٍّ غيرَ موقَّعةٍ في كتبِها؛ لكنني خشيتُ العواقبَ، واستبدلتُها بفكرةٍ أخرى؛ أن أكتبَ لها كلمةً واحدةً على قصاصةِ ورقٍ صغيرةٍ، فكتبتُ لها بيسراي؛ حتى لا يفتضحَ أمري «مَلَاكِي»، التفتُ حولي ودسستُها في الكتابِ حينما اطمأننتُ أن أحدًا لا يراني. بعد دقائقَ حضرتْ «عبير»، تساءلتُ إنْ كانت قد رأتْني، خفتُ، وفكرتُ في أن أستعيدَ ورقتي؛ لكنها كانت ستلاحظُ، فأعرضتُ عن تلكَ الفكرةِ، ثم عادتْ «ساندي» وحملتْ كتبَها، وغادرتْ إلى محاضرتِها، وتركتْني مع خيالٍ ممتعٍ، وحديثٍ صامتٍ مع نفسي.

«أولُ مرةٍ توجِّهُ ابتسامتَها نحوي، ابتسمتْ لي من قبلُ مرتين؛ لكنني كنتُ أقفُ بجوارِ باقي الأصدقاءِ، فكان يراودُني شكٌّ أكانت تبتسمُ لي أم لأحدٍ ممن يجاورُني؟ أمَّا اليومَ فلا شكَّ أنها عنتني أنا بابتسامتِها، فلم يكن أحدٌ بجواري، وهي لا تعرفُ أحدًا ممن كانوا يجلسونَ خلفي. إن ابتسامتَها جميلةٌ؛ لكن حينما وجهتْها نحوي كانت أجملَ، ليتها شعرتْ بخفقانِ قلبي حينَها، فهو وحدَه كفيلٌ بإيصالِ ما يعتملُ في نفسي تجاهَها. لعلها كانت تريدُ أن تبتسمَ لي من قبلُ؛ لكنَّ وجودي داخلَ (الشلة) لم يكن يمنحُها الفرصةَ لذلك. نعم، يبدو أنها تهتمُّ لأمري وتلاحظُني منذُ وقتٍ طويلٍ، ألَا تَعني أسئلتُها أنها تلاحظُني منذُ فترةٍ؟ ولعلها أيضًا كانت تفكرُ بي في خلوتِها، في بيتِها، في غرفتِها، ربما تساءلتْ عن السببِ وراءَ صمتي، تُرى ماذا حزَّرتْ؟ أتمنى أن تُسهمَ استنتاجاتُها

في التعلُّقِ بي. إنَّ الصمتَ له مميزاتٌ عديدةٌ، أهمُّها الغموضُ الذي يُضفي هالةً عليَّ، لا أستحقُّها... حمدًا لله أنني لم أُجبْ على تساؤلاتِها، كانت إجاباتي ستفضحُ شخصيتي، وأبدو في عينيْها ضعيفًا، مهزوزًا، وستختفي الهالةُ التي وضعَها الغموضُ حولي... جلستْ بجواري عشرَ دقائقَ، تقريبًا، ثم ذهبتْ لدورةِ المياه، لعلها كانت تدافعُ بولَها منذُ فترةٍ، ولم ترغبْ في تركِ صحبتي، يبدو أن الأمرَ اشتدَّ عليها، فلم تعدْ تحتملُ مدافعةَ البولِ أكثرَ من ذلك. نعم، لم يمنعْها من مواصلةِ الحديثِ معي إلا مانعٌ قويٌّ كهذا... حمدًا لله أنني وضعتُ الورقةَ في الوقتِ المناسبِ، قبلَ أن يراني أحدٌ، لو تأخرتُ دقيقةً واحدةً لرأتني «عبير»، يا لها من كارثةٍ كادت تحدثُ! كيف كنتُ سأواجهُها حينما ترى ورقتي؟ سأُنكرُ؛ لكنَّ الشكَّ سيراودُها، وستراقبُني وتتبعُ خطواتي للتأكدِ، وأنا لا أحبُّ أن يراقبَني أحدٌ، لكنْ من يدري؟! ربما تكونُ رأتْني، لعلها تراقبُني منذ فترة؛ لكنها آثرتْ الصمتَ، تُرى فيما تفكرُ «عبير» الآن؟ يبدو أنها منهمكةٌ في الحديثِ مع أصدقائها؛ لكن ماذا لو كانت معهم بجسدِها وعقلُها شاردٌ فيما رأتْ مني؟! لا... لا... إن انفعالاتِها تظهرُ عليها، ولم أرَ من ملامحِها اليومَ ما أرتابُ منه؛ لكنها تعرفُ كيف تُخفي انفعالاتِها حينما تريدُ، ألَا تتذكرُ علاقتَها بـ«صلاح»، أكنتَ تستطيعُ التعرفَ على تلك العلاقةِ من انفعالاتِها دونَ قراءةِ الخطابات؟ لقد كانت كالبئرِ العميقة... لماذا أُقدِّرُ البلاءَ قبلَ وقوعِه، فلأستمتعْ قليلًا

بذكرياتي الحبيبةِ مع «ساندي» ولِأنسَ «عبير»... ألَا تُعتبرُ علاقتي بـ«ساندي» خيانةً لـ«عبير»؛ لكنني لم أفعلْ شيئًا، وقصاصةُ الورقِ تلكَ إنما هي دعابةٌ لا أكثرَ، ولن يكتشفَ أمرَها أحدٌ، أو هذا ما أتمنى... ولِمَ الخوفُ؟! ألمْ تخدعْني «عبير» من قبلُ؟ لقد كانت خدعتُها أشدَّ وطأةً وأبعدَ أثرًا، ولا يتصف فعلي إلَّا بالبراءةِ أمامَ فعلِها... دعني و«عبير»، تُرى هل رأتْ «ساندي» قصاصةَ الورق؟ لعلها تفكرُ الآنَ بكاتبِها، هل سأخطرُ لها على بالٍ؟ أم أنها ستظنُّ أن غيري هو الذي فعلَها؟ ليت أمرى لا يُفتضحُ، على الأقل الآنَ... أتمنى أن تتعلقَ بخيالِها بصاحبِ القصاصةِ، وتتمنى أن تعرفَه... يا لخيبتي! ماذا كتبتُ «مَلَاكِي» ليتي شكَّلتُ الحروفَ، حتى لا تقرأَها «ملَّاكي» تُرى كيف سيكونُ وقعُ هذه الكلمةِ القبيحةِ عليها، أتعرفُ معناها الذي يتداولُه الشبابُ؟ إن كانت تعرفُه فهي إذن غيرُ جديرةٍ بالثقةِ، وينبغي ألَّا أفكرَ فيها... يا لِسذاجتي! إنني أتحدثُ كأنها تقدمَتْ لخطبتي، وأُفكرُ في أخلاقِها؛ لكن كيف سأوافقُ عليها دونَ سؤالٍ عن سمعتِها في محلِّ سكنِها، لقد جرى العرفُ على ذلك... لعلها فهمتْ المعنى المقصودَ دونَ تشكيلِ الحروفِ، لعلها تبتسمُ الآنَ وتتساءلُ عن كاتبِها... لا تبتسمْ يا مغفلُ، حتى لا يظنَّ الناسُ بك الجنونَ، أو توجسَ «عبير» أن وراءك سرًّا، من الأفضلِ أن أغادرَ الآنَ؛ فربما تأتي «ساندي» وتحاولُ سبرَ أغوارِنا لتعرفَ من الفاعلُ. نعم هذا أفضلُ، فإنني لا أستطيعُ إخفاءَ انفعالاتي».

في طريقي نحوَ البابِ ـ بينما كنت أخطو وسطَ شلةٍ تجلسُ عند أحدِ أسوارِ كليةِ الحقوق ـ لمحتُ عينَي فتاةٍ من خلفِ ظهرِ أحدِ الشبابِ تنظرُ إليَّ عرضًا، كانت عيناها ثاقبتين، حادتين، تشعرُ بأنها تخاطبُك وتفضي إليك بما يعتملُ في نفسِها، فتأسرُك، وتفهمُ ما يدورُ في خَلدِك. توقفتُ وحُمتُ حولَ المكانِ الذي تقفُ فيه، وتخيرتُ أحدَ المواقعِ الذي يمكنني أن أرى عينيها من خلالِه جيدًا، استقررتُ في مكانٍ غيرِ بعيدٍ عنها؛ لكنه مختفٍ عن الأنظارِ، وبتُّ أتفحصُ باقي ملامحِها وجسدِها، لم يلفتْ نظري أيُّ شيءٍ منها سوى عينيها، وسميتُها في نفسي «ذات العيون»، إن عينيْها لهما قدرةٌ عجيبةٌ على أسرِك ومخاطبتِك بلغةٍ تفهمُها وتفهمُك، وتستطيعُ إرسالَ الرسائلِ من خلالها، رسائلَ واضحةٍ، ذكيةٍ، لا تحتاجُ إلى شرحٍ، أو تفسيرٍ. قلتُ في نفسي: إن كنتُ أتمنى أن أنامَ في حضنِ «عبير»، وأستيقظُ على رؤيةِ وجهِ «ساندي» الملائكي، فإني أُحبُّ أن أخاطبَ بقيةَ يومي هذه العيونَ الساحرةَ. واستبدتْ بي رغبةٌ في أن أظلَّ أنظرُ إلى عينيْها طوالَ اليوم، واحترزتُ لنفسي ألَّا يراني أحدٌ من (الشلة) فأثيرُ ريبتَه ويفضحُني، وما إنْ تأهَّبتُ للاستمتاعِ بعينيْها حتى وجدتُها قد اختفتْ وتوارتْ عن عينَي، حاولتُ تقصِّي أثرها في المجمعِ النظري من أولِه إلى آخرِه؛ لكني لم أجدْها.

سِرتُ بلا هدفٍ، توقفتُ تحتَ «مدرج العبَّادي»، تذكرتُ أنني لم أحضرْ أيًّا من محاضراتي حتى الآنَ، مع أنني دائمًا ما أحملُ

كتبي، فكرتُ في أن أصعدَ، وجدتُ الطلبةَ ينتظرون بدءَ إحدى المحاضراتِ، سمعتُ أن أستاذَ المادةِ اعتذرَ عن التأخيرِ وأبلغَ المعيدَ بأنه سيأتي بعد نصفِ ساعةٍ، استغلَّ بعضُ الطلبةِ هذا الوقتَ في الأكلِ، توجهتُ ناحيةَ كافتيريا قريبةٍ من المدرجِ، كنتُ أتضوَّرُ جوعًا، واشتهيتُ عدةَ أصنافٍ، احترتُ في اختيارِ الطعامِ المناسبِ، وشعرتُ بأنني أريدُ الحصولَ على كلِّ ما اشتهيتُ، شطيرةِ «كبدة» وأُخرى «هامبورجر»، وثالثةٍ «هوت دوج»، ورابعةٍ «فراخ بانيه»، و«بيتزا»، وغيرُها كثيرٌ؛ لكن معدتي لم تكن تقوَى على هضمِ كلِّ تلك الأطعمةِ، فقنعتُ بأحدِها، ووقفتُ أمام الكافتيريا أستمتعُ بروائحِ كلِّ الأطعمةِ التي يطهونَها منتظرًا طلبي.

صعدتُ المدرجَ من جديدٍ، كان مزدحمًا، والأماكنُ امتلأتْ، فجلستُ مع مَن يجلسُ على السلالمِ بين الأقدامِ، بعيدًا عن عينِ أستاذِ المادةِ، بدأتِ المحاضرةُ، لم أعِ منها شيئًا كانت عيناي تجولان حولَها، وقعَ نظري على فتاةٍ، أعجبتني سُمرةُ بشرتِها، كانت تلمعُ كأنَّ الشمسَ مسلطةٌ عليها، أحببتُ لونَ بشرتِها، وقارنتُ بينه وبين بياضِ بشرةِ «ساندي»، وتمنيتُ في نفسي أن أحصلَ عليها، أو أن يكونَ بياضُ «ساندي» قادرًا على التحوُّلِ إلى هذه السُّمرةِ فأحوُّلُه كلما رغبت.

أحببتُ في ذلك اليومِ ما يقربُ من عشرِ فتياتٍ، أعجبني في كلٍّ منهن شيءٌ غيرُ موجودٍ عندَ الأخرى، وكنتُ ألعبُ في رأسي بأشكالِهن، فأُركِّبُ أنفَ هذه على وجهِ تلك، وسمارَ

هذه على عينَي تلك، وشعرَ هذه على رأسِ تلك، بل وأردافَ هذه على نهدَيِّ تلك. كانت لعبةً ممتعةً لم أملَّ منها، وباتتْ المراقبةُ عادةً، والمصادقةُ في الخيالِ إدمانًا، وصرتُ خبيرًا في مقاييسِ الجمالِ، والحبِّ عن بُعد، والتمني، ومخاطبةِ العيونِ، والأجسادِ، والأرواحِ، في صمت.

وفكرتُ في هذه العادةِ وتساءلتُ: أهو سلوكٌ مُشينٌ؟ وهل كلُّ الشبابِ مثلي؟ ولم أعرفْ إجاباتٍ قاطعةً على تساؤلاتي؛ لكنني أيقنتُ أن حبي الصامتَ، اليائسَ، المترددَ، الخجولَ، لا يعرفُ الشبعَ، ولا يقنعُ بنوعٍ واحدٍ من الجمالِ، ويفكرُ دومًا، ويأملُ في فرصٍ ـ من الناحيةِ النظريةِ ـ مستحيلةٍ، إلَّا أنها قد تكونُ مواتيةً في أوقاتٍ محددةٍ، كأنْ تكونُ الفتاةُ خارجةً للتوِّ من علاقةٍ عذبتْها وأفقدتْها القدرةَ على التمييزِ، فتراني عرضًا، ويجدُني عقلُها المشوَّشُ فرصةً ثمينةً لتعويضِ ما فاتَها وما تعرَّضتْ له، فأفوزُ بها.

بعد أسبوعٍ وجدتُ في أحدِ كتبي قصاصةَ ورقٍ مكتوبًا عليها «حياتي»، طارَ قلبي من الفرحِ، حسبتُ أن «ساندي» عرفتْ أنني من دسستُ لها قصاصةَ الورقِ، وبادلتْني الحبَّ حبًّا، والقصاصةَ قصاصةً، فاندفعتُ كالمجنونِ لمصارحتِها بالحبِّ وجهًا لوجهٍ؛ لكنني تراجعتُ في اللحظاتِ الأخيرةِ، فكَّرتُ في أنه ما دامتِ اللعبةُ التي بدأتُها قد راقتْ لها فلنُكملْها إلى النهايةِ، ثم لِنتصارحْ

بالحبِّ بعدَها، والعمرُ أمامنا طويلٌ. أصبحتُ أتحيَّنُ الفرصَ لأضعَ قصاصةَ ورقٍ جديدةً، ولم أَعُدْ أتخذُ كاملَ احتياطي؛ لأن الأمرَ في نظري قد حُسمَ، ولن تضرَّني معرفةُ «عبير» أو باقي (الشلة).

عدتُ أرى القبحَ جليًّا في ملامحِ «عبير»، وأهملتُ علاقتي بها، وإنْ لم أُهملْ تمتُّعَ نظري بمفاتنِها التي لم أنقطعْ عن اشتهائها. وأغدقتْ عليَّ القصاصاتُ عددًا لا نهائيًّا من الخيالاتِ والآمالِ، وباتت أمتعُ لحظاتي حينما تجتمعُ (الشلة) يتسامرون ويتضاحكون، بينما أغافلُهم وأدسُّ قصاصتي في كتابٍ من كتبِ «ساندي»، ثم أغرقُ في خيالي لأراها تغافلُهم مثلي لتضعَ قصاصتَها. لم تخلُ نظرتي لـ«عبير» آنذاك من شفقةٍ، وودٍّ مخلصٍ؛ لكنَّه ودٌّ متكبرٌ، يجعلُني أتلذذُ مخاطبًا نفسي بأنها لم تَعُد ندًّا لي، أو ربما أجزاءٌ منها فقط هي ما تستحقُّني، وأنه يمكنُني التلذذُ بما أشتهيهِ فيها عن بُعد بعدَ الحصولِ على «ساندي». ثم أعودُ بفكري وأقولُ إنني ربما أُساعدُها ـ في وقتِ فراغي ـ في إعادةِ علاقتِها بـ«صلاح»، كنتُ سأفعلُ ذلك عن طيبِ نفسٍ، وكأنني أتصدَّقُ عليهِ بما فاضَ عن حاجتي، وربما بعدَها أطلبُ الثوابَ والجزاءَ منها، ومِن اللهِ أيضًا.

تبادلْنا العديدَ من القصاصاتِ، وكانت أمتعُها بالنسبةِ لي هي التي أقولُ لها فيها: «بحبك»، فتردُّ: «وأنا كمان». فكرتُ

في أن أستبدلَ القصاصاتِ برسائلَ طويلةٍ، وأن أبوحَ فيها باسمي؛ لكنني تراجعتُ فقد كانت القصاصاتُ أمتعَ؛ لأنها تفتحُ آفاقَ الخيالِ على مصراعيْها، وخاطبتُ نفسي بزهوٍ أنني لن أبوحَ لها باسمي إلا حينما تبوحُ هي أولًا، فأنا مَن بدأتُ تلك اللعبةَ، ويجبُ أن تُنهيَها هي، حتى تصيرَ الكفةُ متوازنة.

وخُيل إليَّ أنها حكتْ لبناتِ (الشلة)، فقد كنتُ أَراهُنَّ يختلِينَ بأنفسهِن ويتهامَسْنَ، ثم ينفجرْنَ ضاحكاتٍ، وينظرْنَ بينما يلتفِتْنَ نحوي، وكان يسوؤني أنْ أرى «عبير» تضحكُ مَعهنَّ، بل تُغالي في الضحكِ، كنتُ أريدُ أن أراها حزينةً؛ لأنها فقدتْني، أو في طريقها إلى فقدي؛ لكنني كنتُ أخاطبُ نفسي بأنها ربما تتظاهرُ بالسعادةِ حتى لا تشعرَ بالخجلِ ممن حولَها، أو كي لا تُفتضحَ مشاعرُها تجاهي فتخسرُ صداقتي، وصداقةَ «ساندي»، وشكرتُ لها حكمتَها، ووعدتُها في نفسي بأن أُخلصَ في صداقتِها هي و«صلاح»، وحينما أتزوجُ «ساندي» سأدعوهما إلى بيتنا. بتُّ أسيرُ وسطَ البناتِ في زهوٍ، وأتظاهرُ بأنني لا أعرفُ أنهنَّ يَعرِفنَ، وأتلذَّذُ بخبثٍ، وأسخرُ من سذاجتِهن.

اعتدتُ ألَّا أُفتشَ في كتبي عن القصاصاتِ إلَّا بعدَ عودتي إلى البيتِ، وتبديلي ملابسي واستعدادي لمقابلةِ الحبيب. وفي يومٍ عدتُ إلى البيتِ لأجدَ أبي يحاولُ تسليكَ بالوعةِ الحمَّامِ المسدودةِ، طلبَ مساعدتي، شمَّرتُ عن ساعدَيَّ وقدمَيَّ ودخلتُ

وسطَ رائحةِ المجاري، وخرجتُ منها بعدَ أن أعلنَّا فشلنا، وذهبَ أبي ليأتيَ بالسباك، وجلست في غرفتي ورائحةُ المجاري تفوحُ مني، خاطبتُ نفسي بأنني سأغتسلُ بمجردِ ذهاب السباكِ وأعودُ إلى غرفتي برائحةٍ طيبةٍ؛ كي أقابلَ قصاصةَ حبيبتي؛ لكنَّ اليومَ كان يومَ الأحدِ، ولم يجدْ أبي أيَّ سباكٍ، ولم أستطعْ الاستحمام.

اضطررتُ للنبشِ في الكتبِ برائحةِ المجاري، بحثتُ عن القصاصةِ، وفي قلبي تضرُّعٌ صامتٌ لـ«ساندي» بأنْ تغفرَ لي سوءَ صنيعي، وما إن وجدتُها وبسطتُها أمامي، وقرأتُ ما بها، حتى حلَّتْ بي صاعقةٌ أخرستْني لأسبوعٍ كامل.

١٦

ـ مغفلٌ.

ـ بل ضحيةٌ.

ـ ساذجٌ.

ـ بل حَسنُ النية.

ـ إنه يعيشُ في الأحلام.

ـ وهل وجدَ غيرَها؟!

ـ إلى متى ستظلُّ تدافعُ عنه؟

ـ أنا لا أدافعُ، بل أحاولُ الفَهمَ.

ـ فَهم ماذا؟

ـ طبيعته، وما يحدثُ له.

ـ وهل ترى شيئًا يحتاجُ إلى فهم؟!

ـ كلُّ شيء.

ـ أنت أحمقٌ مثلُه.

ـ وأنت لا قلبَ لك.

ـ قلبي هنا، في الأعلى، تحت شعري.

ـ أي شعر؟

ـ تأدبْ.

ـ لم أُخطئ.

ـ لعلك تشبهُه؛ لذلك تدافعُ عنه.

ـ ماذا تقصد؟

ـ تعيش معه مطبقَ الجفون.

ـ نحن نبحثُ عن راحةِ البال.

ـ وهل وجدتَها وصاحبُك فوقَ السحبِ، بين العصافيرِ والحمامِ؟

ـ نطيرُ أفضلَ من أن نُدفَن.

ـ الطيرانُ مآلُه السقوطُ.

ـ بل الهبوطُ.. اتركنا وشأنَنا.

ـ لا تتحدثْ بصيغةِ الجمع.

ـ صَهْ.

ـ أنت لا تفهمُ، ينبغي عليه أنْ يقتحمَ بشجاعةٍ، لا أنْ يحلمَ بجُبنٍ، أن يملكَ لا أنْ يتخيلَ الامتلاكَ. دعني أعالجُه، وسترى، سأجعلُه يستفيقُ، سأعيدُه للحياة.

ـ لماذا تتحدثُ، كأنَّه ماتَ! هو حيٌّ.

ـ هل أنت موقِن؟!

ـ لقد اختبرتُ أنفاسَه بالأمسِ، ما زالتْ تشهقُ وتزفرُ؛ لكنْ بوَهَن.

ـ ما زِلتَ غبيًّا.

ـ تأدَّبْ

ـ أَفقْ، وأَفقْه معك، أَفهمْه ما لا يرغبُ في فَهمِه.

ـ أُفهمُه ماذا؟

ـ ما أفهمتُه لك.

ـ لم أفهمْ منك شيئًا.

ـ ولن تفهم.

قفزتْ الخيالاتُ من رأسي، وتجسدتْ أمامي واقعًا لا يقبلُ الشكَّ. حدثَ ذلك في مساءِ اليومِ الذي التصقتْ بي رائحةُ المجاري، اختليتُ بنفسي، وقرأتُ القصاصةَ التي كُتبتْ عليها كلمةٌ واحدةٌ «عبير».

استلقيتُ على سريري شاعرًا بدوارٍ، أُذني لا تسمعُ إلا اسمَ «عبير» يتردد في الأُفُقِ، أغمضتُ عينَي، وغرقتُ في الأفكارِ والذكرياتِ، وحينما ثُبتُ إلى نفسي رأيتُ ظلَّينِ لرجلينِ على الحائطِ المواجهِ للنافذةِ، يتشاجرانِ بصوتٍ مسموعٍ، رفعتُ

رأسي عن الوسادةِ، فركتُ عينَي في محاولة للتأكُّدِ مما أرى، ما زال الظلَّانِ هناك، ذهبتُ إلى النافذةِ، أغلقتُ (الشيشَ)، ثم نظرتُ إلى الحائطِ من جديدٍ، لم يزالا هناك، إلَّا أنَّ خطوطًا أفقيةً من نورٍ تخللتْهما، فتحتُ النافذةَ؛ فزالتِ الخطوطُ، ابتسمتُ، وراقتْ لي اللعبةُ، صِرتُ أغلقُها وأفتحُها برفقٍ حتى لا يَفطنَ لي أحدٌ، ثم أتأملُ الظلالَ، والابتسامةُ لا تفارقُني... لا، لم تكنِ ابتسامةً، لعلي كنتُ أضحكُ، بل أقهقهُ بصوتٍ عالٍ... لا، كنتُ أكتمُ ضحكاتي واضعًا يدي على فمي، بينما أغمزُ بعيني لهما. أحدُهما كان يبتسمُ والآخرُ كان غاضبًا يصرخ. نظرتُ من النافذةِ، السكونُ يحيطُ بي، جُلتُ ببصري، بَدت لي حمامةٌ بيضاءُ تقفُ أعلى ساقِ الشجرةِ الجرداءِ المقابلةِ لعمودِ النورِ الذي يتسلَّلُ ضياؤه إلى النافذةِ، هتفتُ بلهفةٍ «حِلم»، ثم أتبعتُ: «مش فكراني؟»، صمتُّ لحظاتٍ منتظرًا جوابَها، تخيلتُ أنها ستطيرُ نحوي وتلقي نفسَها في أحضاني؛ لكنها فجأةً اختفت، تلاشَتْ، كأنها لم تكنْ، بحثتُ عنها ببصري، دونَ جدوى، خفقَ قلبي بشدةٍ، وظننتُ أنني ما زلتُ نائمًا.

دارَ حديثٌ مقتضَبٌ بينهما عني، سمعتُهما بوضوحٍ مشدوهًا، أحدُهما كان في صفِّي والآخرُ ضدي. استلقيتُ على السريرِ مجددًا، أغمضتُ عينَي، تلاشتْ الأصواتُ، ورُحتُ في سُباتٍ عميقٍ، استيقظتُ في اليومِ التالي متسائلًا عمَّا إذا كان ما حدثَ

بالأمسِ واقعًا أم حلمًا راودني. لم أجدْ إجابةً، وصرتُ مهمومًا بقيةَ يومي أُفكرُ في القصاصات:

«إذن كُنَّ يضحكْنَ سخريةً مني، لا إعجابًا بجرأتي كما ظننتُ؟!... لكن كيف أُفسرُ ما حدثَ؟ هل حكتْ ساندي لـ«عبير» أمرَ القصاصاتِ، وحدستْ الأخيرة بأنني المرسلُ، فقررتْ التلاعبَ بي؟ أم أن ما حدثَ كان مصادفةً، فراسلتْني في الوقتِ الذي أُراسلُ فيه «ساندي»؟ وإن كان الأمرُ مصادفةً، فكيف كانتْ تردُّ على قصاصاتي إنْ لم تكنْ قرأتْها؟ وماذا عن تجمعِ الفتياتِ وضحكِهنَّ، ونظراتِهنَّ إليَّ، أكانت كلُّها مصادفات؟ أم كُنَّ ينظرْنَ إلى الجالسينَ بجواري، وكنتُ أتوهَّمُ أنَّ نظراتِهنَّ تقصدُني؟ هل «عبير» عنتْ ما أرسلتْه لي من كلماتِ حبٍّ في قصاصاتِها؟ أم أنها مجردُ خدعةٍ كسابقتِها؟ وماذا عن «ساندي» ألا تُحبُّني؟ وماذا عن أحلامِ اليقظةِ التي عِشتُها معها خلالَ هذه المدةِ، أسرابًا كانت؟ والنظراتُ التي كنتُ أُفسرُها تفسيراتٍ تدلُّ على حبِّها لي وولهِها بي، أوهامًا كانت؟».

استقرَّ في نفسي أنني كنتُ ضحيةَ الوهمِ الذي عشتُ فيه طويلًا، وأن «عبير» و«ساندي» استغلتا سذاجتي، وتآمرتا عليَّ، كانت «ساندي» تُخبرُ «عبير» بمضمونِ القصاصاتِ، وتردُّ الأخيرةُ عليَّ، وكأنها الأولى، وكانتا تقصان على باقي فتيات (الشلة) كلَّ ما يحدثُ، وينفجرْنَ جميعًا بالضحكِ سخريةً مني.

اعتكفتُ في البيتِ أسبوعًا رافضًا رؤيةَ أحدٍ، واعتاد الظلَّانِ التردَّدَ عليَّ في تمامِ الساعةِ العاشرةِ كلَّ يومٍ، لم يتخلَّفا أو يتأخَّرا. ألِفتُهما بعدَ خوفي منهما، وصرتُ أنصِتُ إلى حواراتِهما، وأتفاعلُ معها في نفسي، وأحيانًا كنتُ أردُّ عليهما، بعدَ أسبوعٍ نِمتُ على صوتِ شجارِهما، واستيقظتُ لأجدَ «عبير» في بيتِنا. رحَّبتْ بها أمي، ودعَتْ أن يجعلَ اللهُ في وجهِها القبولَ، وتقوى على إخراجي من حالةِ الوحدةِ والكآبةِ التي أعيشُ فيها.

كانت مبتسمةً، بدتْ لي ابتسامتُها جميلةً برغمِ كلِّ ما اعتملَ في نفسي تجاهَها من ضيقٍ وغضب.

في البدايةِ شعرتُ بأنها تُناورُ؛ فقد ألحَّتْ في سؤالي عمَّا يحزنُني، كأنها لا تعلمُ شيئًا. بادلتُها المناورةَ، لم أرغبْ في البَوحِ، كنتُ أريدُها أن تحكيَ كلَّ شيءٍ بصراحةٍ ووضوحٍ؛ لأفهمَ ما حدثَ، وأُقارنَه بما توصلتُ إليه؛ لكنني شعرتُ بأنها حزينةٌ، متألمةٌ، ومهزومةٌ، ربما أكثرُ مني. كادَ أن يرِقَّ لها قلبي لولا تذكُّري ما حدثَ منها، فازددْتُ تمنُّعًا، وازدادَ حزنُها حتى انفجرتْ بالبكاءِ. لم أجدْ بدًّا من سؤالِها:

ـ بتعيطي ليه؟

ثم أتبعتُ بحِدة مستنكرًا:

ـ هو انتي جاية تشوفي مالي، والا تعيطي جنبي؟!

علا صوتُ نهنهتِها، كأنَّ كلامي زادَ حزنَها؛ لكنها تماسكتْ في النهايةِ، ومسحتْ دموعَها بكمِّها، ثم أتبعتْ متحاملةً على نفسِها:

ـ لأ.. خلاص عندك حق، قل لي مالك.

تخيلتُ أنني ألعقُ طرفَ ملابسِها متذوقًا دموعَها، ثم لعقتُ شفتيَّ ورددتُ عليها بعنادٍ:

ـ يعني هسيبك تعيطي وأقعد أرغي جنبك، لا طبعًا، وبعدين انتي عارفة إني مش بتاع رغي.

خرجَ مني الكلامُ بحسٍّ دعابةٍ غريبٍ على صوتي. ربما رقَّ قلبي لها، وأحببتُ تخفيفَ وطأةِ ما تشعرُ به، فردَّتْ عليَّ:

ـ يعني انت قصدك إن أنا اللي رغاية.

قالتْها وظِلُّ ابتسامةٍ على وجهِها يهرولُ قادمًا من بعيدٍ، باغتُّها:

ـ آه رغاية... ورخمة وما عندكيش دم.

انفجرتْ بالغضبِ واحمرَّتْ وجنتاها، وقالت بنبرةٍ تشبهُ الصراخ:

ـ يعني أبعتلك رسايل وأقولك بحبك، وانت جبلة حابس نفسك في أوضتك وكأني برمي جتتي عليك، وفي الآخر أنا اللي رخمة وما عنديش دم.

صمتتْ لحظاتٍ، استجمعتْ فيها أنفاسَها، ومسحتْ ما سالَ من دموعِها ثم أتبعتْ:

ـ أنا اللي غلطانة ورخَّصت نفسي، بس أقول إيه كنت فاكرة إن أنت الوحيد اللي أقدر أقوله بحبك من غير ما اتكسف ولا أحس اني كرامتي اتهانت، لكن طلعت حمارة.

ألقتْ ما في جعبتِها وهمَّتْ بالمغادرةِ؛ لكنني أمسكتُ ذراعَها، من المكان نفسه الذي مسحَتْ به دموعَها، ثم رفعتُ يدي نحوَ أنفي لأشمَّها، ثم تذوقتُها بطرفِ لساني. صمتُّ لحظاتٍ أستجمعُ فيها أفكاري، فقلتُ لها وطعمُ دموعِها لم يزلْ يداعبُني:

ـ اقعدي، حجيبلك كوباية مية وآجي.

«أهذا كلُّ ما في الأمرِ؟! وماذا عن مؤامراتِها مع ساندي؟ وسخريتِها وباقي الفتيات؟ أيكونُ كلُّ هذا وهمًا في خيالي؟ أم أن ما تفعلُه الآنَ خدعةٌ أُخرى؟ لكنَّ دموعَها تبدو حقيقيةً، هل يقَوى أحدٌ على ادِّعاءِ البكاءِ بمثلِ تلكَ الحرارة؟!».

عدتُ إليها، اعتذرتُ عمَّا بدرَ مني. استدرجتُها لتحكيَ لي كلَّ ما حدثَ:

ـ هِديتي؟

ـ لا.

ـ طب عشان خاطري إهدي عشان نعرف نتكلم.

ـ مش عاوزه اتكلم.

ـ بس أنا عاوز اسمعك.

ردَّتْ وهي تمطُّ شفتيْها: ـ من امتى ده؟

ابتسمتُ وحدقْتُ في نهديْها قائلًا:

ـ من دلوقتي وبعد كده على طول.

أدارت ظهرها، ورفعت كتفيها لأعلى:

ـ لا مش هتكلم.

سِرتُ خطواتٍ، حتى واجهتُها، وفككتُ ذراعيها المعقودتين على صدرِها بأطرافِ أصابعي:

ـ طب ولو قولتلك عشان خاطري.

دقَّتْ على الأرضِ بقدميْها دقاتٍ لطيفة، ثم أتبعتْ وهي تحدِّقُ في عينَي:

ـ عاوز إيه.

ـ فضفضي، قولي كل حاجة.

ـ كل اللي حصل انت عارفه.

ـ أنا عارف اللي حصل بس مش عارف اللي انتي حاسه بيه.

ـ عادي، بقالي فترة حاسة من ناحيتك بحاجة، وأنت طبعًا جبلة ما بتحسش، قولت أفكر في طريقة جديدة أعبرلك بيها عن اللي جوايا، فكانت فكرة الورق اللي بحطهولك في كتبك.

«نفس الفكرة، ونفس التوقيت، مصادفة دي؟! فكرتك والا ساندي حكيتلك؟!»

ـ فكرتك دي والا فكرة حد تاني؟

ـ فكرتي طبعًا، حتكون فكرة مين يعني؟!

«ساندي مثلًا»، تمنيتُ لو قلتُها؛ لكنَّ أمري كان سيُفتضحُ، سألتها:

ـ حد يعرف الموضوع ده غيرك؟

ردت وهي تهمُّ بالوقوفِ بعد أن عبسَ وجهُها:

ـ في إيه هو تحقيق؟! لا يا سيدي ما حدش يعرف. هو ده كل اللي هامك.

«أمال كنتو بتضحكوا على إيه وتبصولي انتي وباقي البنات؟» كتمتُ هذا السؤالَ أيضًا في نفسي؛ خوفًا من افتضاح أمري. أمسكتُ بيديْها وأجلستُها مجددًا:

ـ بس في كلام كنتي بتردي فيه عليَّ، وكأني بكلمك، مش فاكرة لما كتبتي «وأنا كمان»، كان قصدك بيها إيه.

افترَّ ثغرُها عن ابتسامةٍ، استُبدلَ وجهُها في خيالي بوجهِ «ساندي»، فرأيتُ أمامي الأخيرةَ تبتسمُ فبادلتُها ابتسامةً عفويةً، ظنتْ «عبير» أنها موجَّهةٌ إليها، فأتبعتْ برقةٍ وقد احمرَّ وجهُها خجلًا:

ـ آه.. ما أنا في يوم كنت قاعدة لوحدي واتخيلتك وانت بتقولي بحبك، فقلت أرد عليك وكأنك كتبتهالي، كنت بعشِّم نفسي.

ثم قطَّبتْ جبينَها وأتبعتْ:

ـ كنت حمارة.

«مصادفةٌ أُخرى، أم خدعةٌ ثالثةٌ أم ربما رابعةٌ؟! ما أسخفَها من مصادفات!».

وليتُها ظهري، وشردتُ لحظاتٍ، وحينما ثُبتُ إلى نفسي والتفتُّ إليها لم أجدْها.

«سأفرغُ لها فيما بعدُ، يجبُ أولًا أن أُفكرَ فيما قالتْ، لعلها تكذبُ، بل لعلها صادقةٌ، يبدو هذا من حرارةِ الكلامِ والبكاءِ والابتسامِ العفوي، أيكونُ كلُّ ذلك كذبًا؟!».

ـ ما زلتَ غبيًّا، ألم تتعلمْ بعد؟!

ـ لا تظلمْه، إنه يفكر.

ـ بل يعيشُ في الأوهامِ مجددًا.

رفعتُ رأسي عن الوسادةِ بحركةٍ مباغتةٍ، ثم أطلقتُ صيحةً في وجهِ الأول:

ـ أنا أفكرُ... ألَا يحقُّ لي التفكيرُ؟

أدارَ رأسَه نحوي ثم قالَ بصوتٍ هادئٍ غيرَ مُبالٍ:

ـ هذا إنْ كنتَ حقًّا تفكر.

ـ وماذا تُسمي فعلي؟

ـ تظاهُرٌ بالتفكير.

ـ أتخوضُ في نيتي؟!

ـ بل أضعُ الحقيقةَ أمامَك حتى لا تُغافلَك نفسُك، أنت لا تفكرُ لتصلَ إلى الحلِّ الأمثلِ، بل تفكرُ وتطيلُ التفكيرَ حتى تضيعَ كلَّ فرصِ الفعلِ واتخاذِ القرار، فلا تَجدُ بدًّا حينَها من تركِ نفسِك لتيارِ القدرِ، حتى إذا ساءتِ النتائجُ، ألقيتَ بتبعةِ الأمرِ على الأقدارِ، وصوَّرتَ نفسَك كضحيةٍ مغلوبةٍ على أمرِها.

ـ عجبًا... ألا تراه ضحيةً؟!

ـ هذا ما يوهمُ به نفسَه، وأَوهمَك به أيضًا، أمَّا أنا فلن يقدرَ على خداعي، وأُعطيك مثلًا على ما أقصد: لقد أحبَّ «عبير» قبلَ أن ترتبطَ بـ«صلاح»، ماذا فعلَ بهذا الحبِّ؟ لقد سوَّفَ بحجةِ انتظارِ الوقتِ المناسبِ، وتحسينِ صورتِه أمامَها، وكانت النتيجةُ كما رأيتَ، ولو اتخذَ القرارَ سريعًا وحسمَ أمرَه وبادرَ، لَما حدثَ ما حدثَ، حتى وإنْ كانت النتيجةُ رفضَه، أو السخريةَ من طلبِه، فهي على أيِّ حالٍ أفضلُ من استغلالِه بالطريقةِ التي حدثَتْ، ثم هو بعدَها يندبُ حظَّه ويلومُ الأقدار.

ـ وهل يتعمَّدُ إنسانٌ إيقاعَ الضررِ بنفسه؟!

ـ إنْ كان مثلَك.

ترجَّلتُ عن السريرِ، اقتربتُ منه بخطواتٍ مرتعشةٍ، والدموعُ تسيلُ من عينَي، ثم قلتُ وصوتُ نهنهتي يُغطي كلامي:

ـ هذا أنا، وتلك طباعي، خُلقتُ بها، ولم أقوَ على تبديلِها، لا حيلةَ لي، أتعيِّرُني بضعفي؟!

سمعتُ صوتَ كفيْهِ تنطبقانِ على بعضهما بعضًا، ورأيتُ وجهَه يتمايلُ على الحائطِ، ثم زفرَ بنفاد صبرٍ وقال:

ـ أكلمُك بالمنطقِ، تردُّ عليَّ بالعاطفة؟! هذا ما حسبتُه، وتلك هي مصيبتُك، فلْتبقَ في غيِّك.

ـ ولكني أستنجدُ بك.

ـ ومع ذلك لن تطيعَني، فما الفائدة؟!

ـ بل سأُطيعُ، إنْ أقنعتني، وهذا حقي، فأنا أحاولُ أنْ... أقصدُ أنني أشعرُ بـ... بل لعلي أفكرُ في... معذرةً... هل كنتُ أفكرُ أم أشعرُ؟ هل من أحدٍ يساعدُني كي أتذكرَ، أم ماذا؟

ـ كنتَ تفكرُ، أكملْ.

ـ لا كنتَ تشعرُ.

ـ بل كنتُ أشمُّ، ما هذهِ الرائحةُ؟ يخيل إليَّ أنها فلافلُ تُقلى على زيتٍ حارٍّ، آه ما أشهى رائحتَها، تحبُّ أمي دومًا أن تطهوَها في البيتِ لتأكلَها طازجةً، وفي أوقاتٍ كنتُ أساعدُها فأقلبُها في الزيتِ بنفسي، أغرزُ الشوكةَ في منتصفِها، وأُخرجُها من الزيتِ المغلي، فتظنُّ نفسَها نجتْ، ثم أباغتُها فأقلّبُها، وأضغطُ عليها من فوقٍ، ثم أعيدُ تقليبَها على الجانبينِ مراتٍ ومراتٍ، تمامًا كما كنتُ أفعلُ في قرصِ البيض... لَكَم أحرقتُ من أقراصٍ... آه كَم أنا جائعٌ!

١٧

ارتبطتُ بـ«عبير» بعد أن فقدتُ الأملَ في غيرِها، من «ساندي» إلى العشراتِ اللواتي راقبتُهنَّ وأحببتُهُن عن بُعد. لا أستطيعُ القولَ إنني كنتُ أكرهُها، ولا الجزمَ أيضًا بأنني أحببتُها. الحياةُ معها كانت مريحةً، تفهمُني، وتقرأُ أفكاري. صحيحٌ أنها في أوقاتٍ تفعلُ ما يحلو لها دونَ الرجوعِ لي، إلا أنني حينَها أغضُّ الطرفَ مخاطبًا نفسي بأنها في مواقفَ أُخرى تنصاعُ لرغباتي دونَ أن أُكلِّفَ نفسي مشقةَ المناقشةِ أو عناءَ الإقناعِ، ثم إن مساحةَ الحريةِ التي تنالُها، ستجعلُها ممتنةً لي حينما تُقارنُني بغيري من الرجال.

كنتُ أيضًا ممتنًّا لقوةِ شخصيتِها التي رفعتْ عني عناءَ اتخاذِ القراراتِ وتحمُّلِ تبعاتِها. فقد اعتدتُ إطالةَ التفكيرِ في صغائرِ الأمورِ وعظيمِها، أُقلِّبُ الاحتمالاتِ على كلِّ وجوهِها، وأظلُّ أفكرُ وأتحرَّى الدقةَ لاختيارِ أفضلِها، فتضيعُ الفرصةُ التي كنا نسعى وراءَها، فباتتْ تتخذُ القرارَ ثم تُخبرُني به، تارةً قبلَ تنفيذِه، وتارةً أُخرى بعدَ الفعلِ، وتارةً ثالثةً بعدَ أن يؤتِي القرارُ ثمارَه،

وكنتُ أبتسمُ لها ابتسامةَ رضًا دونَ تعليقٍ، وفي نفسي شكرٌ لا أستطيعُ التعبيرَ عنه، وارتياحٌ كأنَّ جبلًا انزاحَ من فوقِ صدري فأشعرُ بخفةٍ وحرية.

صرتُ في حضرتِها مطمئنًّا، هادئَ البال. وكانت جلساتُنا ممتدةً، أتكلمُ قليلًا، وتثرثرُ كثيرًا؛ تحكي، وتفكرُ، وتحلمُ، وتخططُ، وتحلُّ المشكلاتِ، وأنا أكتفي بهزِّ رأسي، وتوزيعِ ابتساماتٍ من حينٍ لآخرَ. كنتُ حريصًا على مراقبةِ حركاتِ عينيْها؛ فيزدادُ اطمئناني حينما تركِّزُ معي، وأرجفُ حينما أراها تحيدُ ببصرِها عني.

لم أُنهِ جلسةً من جلساتِنا قَطُّ، بل كانتْ هي مَن يبادرُ في كلِّ شيءٍ، حتى الفراقِ، تزفرُ طويلًا، ثم تهزُّ قدميْها متململةً، وتنظرُ في الساعةِ، ثم تتلفتُ حولَها، حينها أشعرُ بالاختناقِ، وتتسعُ عيناي، وأحملقُ في وجهِها بشفقةٍ، حتى لا تُغادرَني، وحينما يزدادُ تململُها، وألمحُ في نظرتِها تصميمًا على الفراقِ، أحدِّقُ في عينيْها بسخطٍ وريبةٍ، ظانًّا أنها تلتفتُ نحوَ المارةِ من الشبابِ حولَنا، «هل راودتْها رغبةٌ في معاكسةِ مَن راقَها منهم، وكبتَتْها حتى لا ألحظ؟». وحينما تغادرُني، يخفقُ قلبي بشدةٍ، وأنظرُ في الاتجاهِ الذي ذهبتْ منه: «أتذهبُ لمقابلةِ صلاح، أم شابٍّ جديدٍ؟»، وتنشأُ داخلي رغبةٌ في تتبعِها؛ لكنني أتراجعُ خوفًا من اتهاماتٍ بالشكِّ، وشجارٍ محتملٍ، فكنتُ أسرِّي عن نفسي بتذكرِ اللحظاتِ السعيدةِ التي أمضيناها معًا، حتى أنسى هواجسي.

أعلنَّا خطبتَنا في العامِ الأخيرِ من الجامعةِ، وسطَ مباركةِ أمي و«طنط عواطف»، ولَا مبالاةِ أبي. عملتُ بعد التخرجِ في مدرسةٍ خاصةٍ بمنطقة المندرة، وعملتْ هي بشركةِ سياحةٍ في محطة الرمل.

لم أسألْها عن «صلاح»، ولم تسألْني عن «ساندي»، احتفظتُ بما أعلمُ عن علاقتِها القديمةِ كي أستخدمَه لصالحي عند اللزومِ، كنتُ أُوجسُ أن داءَ الحبِّ عن بُعد لن يفارقَني، وربما يأتي اليومُ الذي أفوزُ فيه بإحدى الجميلاتِ بفضلِ هذه العادةِ، حينَها يمكنُني مواجهتُها بما فعلتْ. بدا لي أنها أيضًا تحتفظُ بما تعلمُ عن مراسلتي لساندي في الخفاءِ للسببِ نفسِه أو لسببٍ مشابهٍ. حينما أخرجتُ هذا السلاحَ من مكمنِه، استخدمتُه ضدَّ نفسي لا لصالحها.

قضيتُ في مرحلةِ الخطوبةِ أوقاتًا سعيدةً، كان يحلو لي التسوقُ معها، كنا نخرجُ كلَّ يومٍ تقريبًا لشراءِ احتياجاتِ الزواجِ، وكنتُ أُطيلُ الوقتَ ما وسعني، فقد كنا نسيرُ في الشوارعِ ملتصقينِ، أستغلُّ وضعَ «الأنكجة» لأحتكَّ بمرفقي على نهدِها، وكانت هي أحيانًا تضغطُ به على المرفقِ، كأنها تسألُني المزيد.

في كلِّ محلٍّ ندخلُه تظلُّ «عبير» تفاضلُ بين الموديلات، وتوفِّقُ بين الألوانِ والأشكالِ، وأهزُّ أنا رأسي موافقًا على أيِّ منتجٍ تعرضُه عليَّ، حتى وإن لم يتفقْ مع ذوقي، وأستغلُّ انشغالَها

لأُطلقَ بصري بحذرٍ على الفتياتِ اللائي يعملْنَ في هذا المحلِّ، فأفاضلُ بينهُنَّ، وأختارُ أفضلَ جسدٍ، وأرقَّ وجهٍ، وأتناقشُ في عقلي عمَّنِ يمكنُ أن تُتوجَ بجائزةِ ملكةِ جمالِ المحل، وأعرضُ أسبابي، وأُفنِّدُ حُججي، كأنني أحدُ أعضاءِ لجنةِ تحكيمٍ ما.

لم يكن أغلبُهنَّ متبرجاتٍ في الملبسِ، بل محتشماتٍ إلا القليلَ، ولا تمنعُهن حشمتُهنَّ من إظهارِ مفاتنَ من نوعٍ آخرَ، كضحكةٍ مجلجلةٍ تهتزُ لها الشواربُ المنتصبةُ في المحل بأَسرِه، وتخلقُ في نفوسِهم ابتهالًا صامتًا أن تعيدَها مراتٍ ومرات، أو غنجٍ ظاهرٍ في حديثِهنَّ، ودلالٍ في مشيتِهنَّ يدفعُك لإرسالِ إحداهنَّ لتجلبَ لك منتجاتٍ لا تهتمُّ بها، ولن تشتريَ أحدها، ولا تفعلُ ذلك إلا لتُمتعَ ناظرَك بدلالِ مشيتِها. كنتُ حينما أُغادرُ محلًّا إلى آخرَ، أبحثُ عن وجهِ الشبهِ بين فتاةٍ هنا وأُخرى هناك، لهما ملامحُ متقاربةٌ، أفاضلُ مثلًا بين السمراواتِ وبعضِهن والشقراوات وبعضِهن، والطويلاتِ، والقصيراتِ وبعضِهن، وهكذا. وتفتَّقَ في ذهني مرةً أن أُتوجَ إحداهُنَّ بلقبِ ملكةِ جمالِ منطقةِ «محطة الرمل»؛ لكنني لما كنتُ أُعجبُ بأكثرَ من واحدةٍ، صنفتُ الجائزةَ حتى لا أظلمَ إحداهُن، فهذه «جائزةُ شقراواتِ محطةِ الرمل»، وتلك لـ«سمراواتِ لوران»، وهذه لـ«نحيفاتِ بُوكلى»، وهكذا.

كنتُ أَمَلُّ حينما نرتادُ المحلاتِ التي يعملُ فيها رجالٌ، أتأفَّفُ وأُخبرُ «عبير» بأن منتجاتِ هذا المحلِّ رديئةٌ، وأقترحُ عليها محلًّا

آخرَ من تلك التي زرناها في السابقِ، أفعلُ ذلك وأنا أُمنِّي نفسي برؤيةِ فتياتٍ بأعينِهن، كنتُ قد مِلتُ إليهِنَّ، وافتقدتُهن.

كنا نمرُّ على محلاتٍ «اللانجري» فينتابني خجلٌ شديدٌ ممتزجٌ بفضولٍ أشدَّ. أختلسُ النظرَ بقلبٍ وجلٍ، خشيةَ أن تراني «عبير»، أو أن يراني أحدُ المارةِ فيظنُّ بي سوءَ السلوك. في أواخرِ فترةِ الخطوبةِ، وقفتْ «عبير» أمامَ أحد تلك المحلاتِ، فتراجعتُ خطوتينِ موجهًا بصري بعيدًا، وفي قلبي أملٌ أن تطيلَ النظرَ في «الفاترينة»، فأدَّعي الملَلَ وأتجهُ نحوَها بحجةِ استعجالِها. سخرتْ من خجلي، ثم طلبتْ بإلحاحٍ أن أرافقَها إلى الداخل، وافقَ قلبي، وطار فرحًا؛ لكن قدمي تشبثتْ بالأرضِ، كأنها أقدامُ فتاةٍ تُقاومُ محاولةَ اغتصابِها. انصاعتْ لرغبتي؛ فاتهمتُها بضعفِ الإرادةِ في نفسي، وشرَدَ عقلي متمنيًا أن تُتاحَ لي الفرصةُ لزيارةِ هذا المحلِّ في الخفاءِ، بعدَ مواعيدِ الإغلاق.

في المرةِ التاليةِ، كانت مقاومتي أقلَّ، كأنني امرأةٌ تتمنعُ على زوجِها، ولجتُ المحلَّ ولوجَ المرأةِ غرفةَ النومِ في ليلةِ الزفافِ، قلبُها خافقٌ، تتطلعُ للمتعةِ، وتخشى الانتهاك. توسطتُ المكانَ متصببًا عرقًا من الخجلِ، كلما التفتُّ حولي شعرتُ بأن العيونَ مصوَّبةٌ نحوي كسهامٍ تمزِّقُ أعضائي، تخيلتُ ردودَ أفعالِ الفتياتِ عندَ رؤيتي، تشهقُ إحداهُن شهقةً عاليةً، ثم تتبعُ قائلةً لرفيقتِها: «يا لهوي، راجل في محل اللانجري... إيه ما فيش خِشى!!»،

فكرتُ في أن أتقهقرَ عائدًا من البوابةِ نفسِها التي ولجتُ منها، وأُحكِمَ إغلاقَ البابِ ورائي، كأنه لم يُفتحْ قط؛ لكنني خشيتُ سخطَ «عبير».

البائعاتُ في هذا المحلِّ أجرأُ من كلِّ اللواتي قابلتُهنَّ من قبل، اخترقْنني نظراتُهن، وعاثت بداخلي لعبًا، وتفتيشًا، حتى علمتْ كلَّ ما يدورُ في عقلي، فرجفتْ جفوني. تمنيتُ أن تلتفَّ جميعُ البائعاتِ حولَنا لأختفيَ وسطَهنَّ عن عيونِ الناسِ، وأنعمُ بصحبتِهن. رافقْنا أجملُهنَّ وأغنجُهنَّ، كأنني كنتُ غنيمةَ حربٍ ثمينةً لا تليقُ إلا بأميرةٍ، كنتُ أنظرُ إلى ما تعاينُه «عبير» بشوقٍ وإعجابٍ كبيرينِ، تمنيتُ لو أستطيعُ أن أُمسكَ بالموديلاتِ التي تفاضلُ بينها وأتحسسُ ملمسَها، وأشمُّ رائحتَها عن قربٍ؛ لكنني بدلًا من ذلك كنتُ أدَّعي عدمَ الاكتراث.

سألتْني «عبير» عن رأيي في كلِّ قطعِ الملابسِ التي لفتتْ انتباهَها، كنتُ أردُّ عليها في البدايةِ بإيماءةٍ من الرأسِ أو إشارةٍ باليدِ، ورويدًا رويدًا اعتدتُ الجوَّ، وألِفتُ المكانَ، والرائحةَ والأشكال. كان المحلُّ مُضاءً بلونٍ أصفرَ هادئ، وعلى الحوائطِ مجموعةٌ من «الأباليك» على شكلِ مثلثٍ متساوي الأضلاعِ، مغطاةٌ بغطاءٍ رقيقٍ شفافٍ أحمرَ اللون، يَصبغُ إضاءتَه الداخليةَ بلونِه نفسِه، وبعضُ تلك الأغطيةِ الرقيقةِ مفضوضةٌ من المنتصفِ، كأن يدًا عبثتْ بها. جلستُ مُطمئنًّا بجوارِ هرمٍ غيرِ مدبَّبِ الرأسِ

من الملابسِ التي تفحصتْها «عبير»، وضعتُ يدي على الطاولةِ، ولمستُ الملابسَ بظهرِ كفي اليسرى «ما أنعمَها!»، ثم تجرَّأتُ وأمسكتُها؛ لكنني كنتُ أخشى سوءَ ظنِّ المتفرجين؛ لذلك فقد كنتُ أختلقُ الأسبابَ، كإعرابي عن إعجابي بجودةِ هذا القماشِ أو تحفظي على رداءةِ ذاك، وأقيِّمُ هذا الموديلَ أو ذاك.

يبدو أن آرائي كانت جيدةً، وأنني كنتُ أختزنُ خبرةً لا أعلمُ مصدرَها، بدا لي أن البائعةَ أُعجبتْ بآرائي، فقد كانت ترمقُني بنظرةِ إعجابٍ من حينٍ لآخرَ، حثتني تلك النظرةُ على الاسترسالِ في الكلامِ، بل بادرتُ في اختيارِ الأشكالِ والألوانِ من الرفوفِ، وكانت هي تُلبي طلباتي بسرعةٍ وحماس. بعد قليلٍ بينما كانت «عبير» تديرُ ظهرَها لنا، فوجئتُ بالبائعةِ تناولني «حمالةَ صدرٍ» لم أطلبْها، هممْتُ بأن أُوضحَ لها الأمرَ؛ لكنها هرولتْ نحوَ «عبير» متظاهرةً بالانشغالِ، حينها شعرتُ بملمسِ ورقةٍ في يدي تحتَ «حمالةِ الصدرِ»، نظرتُ لـ«عبير» بينما يدي ترتجفُ، لأجدَها لا تزالُ في وضعِها، فدسسْتُ الورقةَ سريعًا في جيبي، وألقيتُ الحمَّالةَ وراءَ ظهري.

في طريقِ عودتِنا، كنتُ شاردًا أُفكرُ فيما يمكنُ أن تحتويه الورقةُ: «هل رقمُ هاتف؟ ربما... رسالةُ حبٍّ؟ لِمَ لا؛ لكنها قصاصةٌ صغيرةٌ، إذن فهي قصاصةٌ مثلُ تلك التي كنتُ أُرسلُها لـ«ساندي»... ماذا! هل تعرفُ البائعةُ ساندي؟!». عدتُ إلى البيت،

أغلقتُ بابَ غرفتي، اختليتُ بالورقةِ، بسطتُها حتى استلقتْ على راحةِ يدي كأنها مخدعٌ، كانت قصاصةً حمراء بها ثقبٌ دائريٌّ، بدا لي أنه من آثارِ قلمٍ اخترقها، قصدًا أو عرضًا، كُتبَ عليها رقمُ هاتفٍ بلونٍ أسود.

«ألهذا الحدِّ أعجبتُها؟ بالتأكيدِ يا بطل، ألم ترَ نفسَك؟! لقد كنتَ تصولُ وتجولُ بآرائك أمامَها... لعلها ظنت بأنني ذو خبرةٍ، وصاحبُ تجربةٍ، نعم، كانت آرائي تدلُّ على ذلك... لعلها قالت في نفسها إنها أحقُّ بي من خطيبتي... يا له من حظٍّ سعيدٍ!... أتراها تحكي لصديقاتِها عني الآنَ؟ بالتأكيدِ، ولعلها تمدحُني أيضًا.. يجبُ أن تحتاطَ في المستقبلِ حتى لا تُحسد... إنها ذكيةٌ، ناولتْني الورقةَ بخِفَّةٍ في غفلةٍ من «عبير»... هذا من حُسنِ طالعي... لكن متى كتبتْ هذه الورقة؟ إنها لم تفارقْنا تقريبًا، هل تحتفظُ بالعديدِ من تلك الورقاتِ توزعُها هنا وهناك... لا... لا يليقُ بِمن في جمالِها أن تراسلَ أيَّ شخصٍ، إنني أعجبتُها، ولعلي الوحيد الذي راسلتْه، ثم إنها حدست بأنني (ابن ناس) ولستُ شابًّا لعوبًا... تُرى ماذا تريد؟ هل تُريد شيئًا محرَّمًا؟! وهل سأفعلُ كلَّ ما تطلبُه؟ لا، بل سأجاريها لأقضي معها بعضَ الوقتِ الممتعِ، ثم أتركُها... أم تراها تريدُ الزواجَ؟! ألهذا الحدِّ أبهرتُها؟... أتَعرفُ؟ إنها ستُنيرُ (الكوشة)، تبدو في عينَي فاتنةً، أجملَ من «عبير»؛ لكنها جاهلةٌ، أو على الأكثرِ لم تُكملْ تعليمَها، بدا هذا من طريقتِها في الكلامِ، وألفاظِها؛ لكنْ مع ذلك يخرجُ

منها الكلامُ كالشهدِ... آه لو أمتلكُ تلك الشفاه!... وماذا إذا تزوجتُها؟ لن يضرَّني شيء... بل على العكسِ، البنتُ الجاهلةُ طيِّعةٌ في يدِ الرجلِ، ستنظرُ إليَّ بإكبارٍ، والفقيرةُ كذلك قنوعةٌ، لن تُرهقَني طلباتُها... أتعرف؟ أنا لا أُمانعُ من الزواجِ منهما معًا... لكن «عبير» سترفضُ... لا يهمُّ، هي الخاسرة... ماذا سيكونُ رأي أمي؟.. بالتأكيدِ سترفضُ وستغضبُ لصديقتها، وتصفُني بالخائن... بماذا سأردُّ على أمي حينما تسألُني عن الطريقةِ التي عرفتُ بها البائعة؟ بالتأكيدِ لن أقصَّ عليها ما حدثَ، بل سأكذبُ، والكذبُ هنا مباحٌ؛ لأنَّها لن تفهمَ أن البائعةَ لم تبادرْني بسببِ سوءٍ في أخلاقِها، لكن ببساطةٍ لأنني سحرتُها... ماذا سيكونُ ردُّ فعلِ «عبير» حينما تراها؟... ستتهمُني بالخيانةِ، وتتخيلُ أنني الذي بادرتُها... جيدٌ هذا التفسيرُ، سيجعلُني مكتملَ الرجولةِ أمامَها، وسيدفعُها للحفاظِ عليَّ والخوفِ من أن أفلتَ من يديْها، فتطيعُني... لكنْ لماذا أجزمُ بأن البائعةَ تريدُ الزواجَ مني؟... ولماذا أُطلقُ عليها لفظَ بائعةٍ؟ ألم تكتبْ اسمَها في الورقةِ؟ لا... إذن لأختلقْ لها اسمًا... «بوسي»... نعم، هذا اسمٌ يليقُ بها... كنتُ أتساءلُ: ما الذي يجعلُني أجزمُ بأن «بوسي» تريدُ الزواجَ مني؟... أعرفُ طبعًا أنني سحرتُها؛ لكنْ يجبُ أن أضعَ لنفسي عدةَ احتمالاتٍ حتى لا أُفاجأ... ما هذا الغباءُ؟!... ما كلُّ تلك الأفكار؟! كيف لي أن أنتظرَ كلَّ هذا الوقتِ، وأسمحَ للأفكارِ تراودُني في حضرةِ رقمِ هاتفِها، كان ينبغي عليَّ المسارعةُ

بمهاتفتِها حتى لا تضيعَ الفرصةُ، ومن قال إن الفرصةَ ستضيعُ... أنا على يقينٍ من أنها ستنتظرُني مهما طالَ الوقتُ، فلقد أسرتُها، ومع ذلك فلأسارعْ بمهاتفتِها؛ لأنني أتوقُ لسماعِ صوتِها... نعم، هو كذلك».

راقبتُ أمي، تأكدتُ من أنها مشغولةٌ بالحديثِ مع طنط عواطف، سحبتُ التليفونَ إلى غرفتي وأغلقتُ البابَ، استلقيتُ على السريرِ كما استلقتِ الورقةُ على راحتي، هذا هو الوضعُ الذي تخيلتُ أنه يليقُ بالموقف، وأحببتُ أن أقابلَ «بوسي» به، طلبتُ الرقمَ، أغمضتُ عينَي، سمعتُ صوتَها «ألو ألو»... تمنيتُ لو تحدثتْ إلى الصباحِ، وأن تنطقَ اسمي بين كلِّ كلمةٍ وأُخرى؛ لكنها لم تفعلْ، ولم تكنْ لتفعلَ شيئًا إلا إذا رددتُ عليها، وأخبرتُها من أنا... وقلتُ لنفسي: نعم، يجبُ أن أردَّ، عاجلًا لا آجلًا، وبالفعلِ رددتُ عليها؛ لكنَّ الصوتَ لم يخرجْ عن حدودِ أفكاري وخيالاتي، وكلما هممتُ بإخراجِه خفقَ قلبي سريعًا، وعجزتُ عن النطق.

أقنعتُ نفسي بأنْ أنتظرَ قليلًا حتى أشبعَ من نبرةِ صوتِها التي أشعلتْ أحشائي، ثم أردَّ عليها على مهلٍ؛ لكنها سرعانَ ما أغلقتْ الهاتف. هاتفتُها مرةً ثانيةً، وثالثةً، وفي كلِّ مرةٍ لم أكن أقوى على النطقِ، وتمنيتُ في نفسي أن تهاتفَني هي، أن تكونَ هي الفعلَ، وأكونَ ردَّ الفعلِ، وتخيلتُ أنها اتصلتْ بي، وأنني رددتُ عليها

مدَّعيًا جهلي بها، وتركتُها توضحُ لي من هي، وتجاذبْنا أطرافَ الحديثِ طويلًا، وحينما ثُبتُ إلى نفسي شعرتُ بضيقٍ، وفكرتُ فيما يمكنُ أن يفكَّ هذا الكربَ الذي انتصبَ بداخلي فجأةً، فاتصلتُ بها مجددًا، وفي نفسي إصرارٌ على الردِّ عليها، وأقنعتُ نفسي بأنني سأُبهرُها على الهاتفِ كما أبهرتُها على الحقيقةِ؛ لكن هاتفَها كان مشغولًا لفترةٍ طويلة.

أعدتُ الهاتفَ مكانَه، وتأكدتُ أن أمي ما زالتْ تائهةً في حديثٍ طويلٍ مع «طنط عواطف»، فانتهزتُ الفرصةَ وأغلقتُ بابَ غرفتي بالمفتاحِ واختليتُ بورقتِها، ثم استحضرتُ نبرةَ صوتِها، وشممتُ رائحتَها في الورقةِ، تخيلتُ صورتَها وحركاتِها، وألبستُها في خيالي حمالةَ الصدرِ التي دسَّتْ ورقةَ سعدي تحتَها، ثم انطلقتْ الشهوةُ من أحشائي طازجة.

١٨

قبل زفافي على «عبير» قضيتُ أسبوعًا لا أُفكرُ إلَّا في ليلةِ الدخلةِ. تذكرتُ عمليةَ كشفِ الحمامةِ التي تعرَّضتُ لها في المدرسةِ، وكيف أنه لم يُتحْ لي حينَها تقييمُ حمامتي، واتفقَ لي في أواخرِ المرحلةِ الثانويةِ مشاهدةُ بعضَ الأفلامِ الإباحيةِ عن طريقِ شرائطِ فيديو كانت شلةُ «صلاح» تتداولُها في الفترةِ التي صادقتُهم فيها، ورأيتُ حجمَ حمَامَاتِ أبطالِها أضعافَ حجمِ حمامتي، ارتعبتُ واستقرَّ في نفسي أنني لا أصلحُ للزواج.

كنتُ أصيخُ السمعَ حينما يتناولُ أفرادُ (الشلة) تلكَ الأفلامَ بالحديثِ، حتى أعرفَ تقييمَهم لِما رأوا؛ لكن أيًّا من أحاديثِهم لم تكنْ توضحُ شيئًا ذا قيمةٍ، ففكرتُ في أن أبادرَ وأسألَهم: هل من المعقولِ أن يكونَ للرجلِ حمامةٌ كتلكَ التي نراها في الأفلام؟ لكنَّ سؤالًا كهذا سيجعلُ الشكوكَ تحومُ حولي، فامتنعتُ عن السؤالِ، وظللتُ في حيرتي، حتى قرأتُ بعضَ المقالاتِ والكتيباتِ عن أضرارِ مشاهدةِ هذه الأفلامِ، وكان من بينها إيهامُ

الشبابِ بأحجامٍ غيرِ واقعيةٍ لأعضاءِ الرجلِ والأنثى، فارتحتُ واطمأنَّ قلبي.

راودَني الشكُّ من جديدٍ في الأسبوعِ الذي يسبقُ زفافي، وقلتُ لنفسي: إنه ربما كانت تلك المقالاتُ والكتيباتُ خادعةً، أو موجَّهةً من أجلِ إرهابِ الشبابِ، وإن الحمَامَاتِ في الأفلامِ حجمُها طبيعي. ثم انتحى بي القلقُ منحًى آخرَ؛ حيث قلتُ في نفسي: حتى إنْ تأكدتُ من أن حمامتي حجمُها جيدٌ، فمن ذا الذي يضمنُ لي أن أنتصبَ في ليلةِ الزفاف؟ وما زادَ قلقي أنَّ جسدَ المرأةِ كان كالطِلْسمِ بالنسبةِ لي، واستبدَّ بي القلقُ، وتعاظمَ يومًا بعدَ يوم.

ذاتَ مساءٍ تذكرتُ بوسي، وندمتُ على أنني لم أنتهزْ فرصتي الأُولى، قلتُ لنفسي: لو خضتُ تلك التجربةَ، لمنحتني الثقةَ التي أحتاجُ إليها الآن. كنتُ أحتفظُ برقمِها في مكانٍ سريٍّ في غرفتي، هاتفتُها وسمعتُ صوتَها، وتذكرتُ على إثرِ هذا الصوتِ كلَّ الذكرياتِ السعيدةِ التي عشتُها معه، ومعها، وفكرتُ في أن أفعلَها في تلكَ المرةِ، وسرعانَ ما تساءلتُ: أما زالتْ تتذكرُني؟! وهل سأقضي المكالمةَ كلَّها في تذكيرِها بنفسي؟ لا وقتَ عندي، لقد اقتربَ موعدُ الزفافِ، ثم مَن أدراكَ بما كانت تريدُ، ثم إنَّ القلقَ الذي يستبدُّ بي الآن لن يجعلَني أُحسنُ التصرفَ، وستسوءُ الأمورُ، وسرعانَ ما تراجعْت.

كنتُ قد تأهبتُ لمقابلةِ «عبير»، وقبلَ أن أغادرَ البيتَ، لمحتُ الهاتفَ بطرفِ عيني، خفقَ قلبي، وتردَّدَ صوتُ «بوسي» في أذني، فسحبتُ الهاتفَ، وولجتُ غرفتي، ثم هاتفتُها:

ـ ألو

ـ ألو

ـ مين معايا

ـ أنا.. أنا... أنا عمر

ـ عمر مين؟

ـ عمر عرفان

ـ تشرفنا وعاوز إيه يا سي عمر.

ـ أنا بتاع الورقة

أطلقتْ ضحكةً مجلجلةً، بدا لي أنَّ أبي سمعَها من مقرِّ عمله، فكتمتُ صوتَ السماعةِ بكفِّي، واتجهتُ نحوَ بابِ الغرفةِ للتأكُّدِ من إحكامِ غلقِه، ثم عدتُ إليها ممنيًا نفسي بما هو أعظمُ شأنًا من الضحكاتِ؛ لكنني حينما عدتُ وجدتُ الخطَّ قد أُغلق.

فكرتُ في أنَّ سلكَ الهاتفِ اهتزَّ كعادتِه بسببِ حركاتي المفاجِئةِ، فانقطعَ التيارُ. اتصلتُ مجددًا، وبادرتُها بصوتٍ مرتعش.

ـ أنا... أنا بتاع الورقة.

أطلقتْ ضحكتَها من جديدٍ، فكَّرتُ ـ وابتسامةٌ عريضةٌ تلتصقُ بوجهي ـ أن أعيدَها مرةً أُخرى، بل مراتٍ؛ لأنعمَ بصحبةِ تلك الضحكةِ الرقيعةِ؛ لكنها باغتتْني:

ـ وانت بقى ورقتك خضرا، والا إيه؟

اتَّسعتْ ابتسامتي، وقلتُ سريعًا:

ـ حمرا

ثم أخذتُ نفسًا عميقًا، ناويًا تذكيرَها قائلًا:

ـ الورقة اللي كانت تحت الس..... تحت الـ.....

تلجَّمَ لساني ولم أستطعْ النطقَ بها، وامتننتُ لها حيثُ أكملتِ الحديثَ، ولم تقفْ عند تلعثُمي، فقالت بنبرةٍ متطلعةٍ:

ـ تحت والا فوق؟ لا افتكر كويس وحياتك، دي اعراض ناس.

أجبتُها بحماس:

ـ تحت والله أنا فاكر كويس.

ردَّتْ بلهفةٍ، أو هكذا بدا لي.

ـ صادق وحياتك من غير حلفان، وبعدين وإيه يعني لما يبقى فوق، هو كخة والا ما يشبهش.

صمتُّ لحظاتٍ أفكرُ، ثم قلتُ لها بنبرةٍ جادة:

ـ يبدو إنك ناسية، أنا بأكدلك إن الورقة كانت تحت مش فوق.

زفرتْ طويلًا، وغمغمتْ بكلامٍ لم أسمعْ منه إلا كلمةَ «يبدو!»، وأتبعتْها بمصمصةٍ من شفتيْها مقتضبةٍ، راقتْ لي، وتمنيتُ أن تطولَ، أو تكررُها؛ لكنها سرعانَ ما أتبعتْ:

ـ بقولك إيه ما تكلمني بالليل أكون رايقة كده عشان نعرف ناخد وندي في الكلام.

رددتُ عليها مشجَّعًا بعد أن تذكرتُ موعدي مع «عبير».

ـ طبعًا طبعًا، تحبي أكلم حض....، آآآآ أكلمك الساعة كام؟

أُغلقَ الهاتفُ قبلَ أن أسمعَ ردَّها، نظرتُ نحوَ السلكِ نظراتٍ حادةً، مقطبًّا جبيني، ثم ركلتُه بقدمي، وفي قلبي اعتذارٌ صامتٌ لها. فكَّرتُ في أن أهاتفَها من جديدٍ لأشرحَ لها الموقفَ؛ لكنني آثرتُ الانتظارَ للمساء.

هاتفتها ليلًا ثم نهارًا، ظهرًا ثم عصرًا، قبل النوم وبعده، وقبلَ الأكلِ وبعدَه، لمدةِ أسبوعٍ؛ لكنها لم تردَّ على الهاتفِ قط.

تضاعفَ قلقي، انتظرتُ أن يدعوني أبي في أيِّ لحظةٍ، ويجلسُ معي جلسةَ رجالٍ، ويشرحُ لي كلَّ شيءٍ، ويُطمئنُني؛ لكنه لم يفعلْ، وشعرتُ في تلك اللحظةِ ببُغضٍ شديدٍ له، بل ولكلِّ البشرِ، لم تكنْ في نفسي ذرةُ امتنانٍ أو إكبارٍ لأحد، لم أعرفْ في عمري كلِّه معنى المَثلِ الأعلى الذي تنظرُ له بإجلالٍ، وتسعى لتقليدِه في كلِّ شيءٍ، وتهرولُ ناحيتَه حينما تخافُ من شيءٍ، فيحتضنُك ويُطمئنُك ويشدُّ من أزرِك، كنتُ وحيدًا بكلِّ معنى الكلمة.

حانتِ اللحظةُ الحاسمةُ؛ انتهى الزفافُ وتوجَّهنا بالسيارةِ نحوَ منزلِنا الجديدِ بسيدي بشر، وفي الطريقِ التصقتُ بـ«عبير»، التصاقًا محمومًا، وكأنَّ ليلةَ الدخلةِ ستُقامُ في السيارةِ، كنت أسعى

للاطمئنانِ، قبلَ أن يوصدَ علينا بابُ غرفتِنا، وتجاوبَتْ معي بالقدرِ الذي لا يلفتُ انتباهَ السائقِ لنا، كانت تجربةً نَشدتُ فيها النجاحَ والاطمئنانَ؛ لكنَّ القلقَ استبدَّ بي، ولم أنتصبْ، فبتُّ مقتنعًا بأنَّ الفشلَ سيكونُ حليفي بمجردِ الولوجِ من بابِ البيتِ، وطارَ خيالي يتأملُ فضائحَ يومِ الصباحيةِ حينما تدخلُ علينا حماتي لتجدَ «عبير» باكيةً، وتنتشرُ بعدَها الفضيحةُ، وتخيلتُ أن أبي أولُ الشامتين: «أنا طول عمري كنت فاكرك ابن امك، إنما النهارده اكتشفت انك بنت أمك»، تثاقلتْ قدماي على السلمِ، وتمنيتُ أن تنشقَّ الأرضُ وتبتلعَني؛ لكنها أبَتْ.

أنقذتْني «عبير» من نفسي، وتكفلتْ بكلِّ شيءٍ؛ قادتْني، وساعدتْني، وألهمتْني، كأنها عرفتْ ما أعاني منه، بدا لي أنني صرتُ بالنسبةِ لها كتابًا مفتوحًا، فكانت تبادرُ، ولم يكن عليَّ سوى الطاعةِ، وهي أيسرُ الأمورِ على نفسي، وعقلي، وجوارحي. ومرتْ ليلةُ الدخلةِ على أروعِ ما يكون.

كانت «عبير» بارعةً حقًّا، شعرتُ بأنها ذاتُ خبرةٍ كبيرةٍ، وربما ذاتُ تجربةٍ أيضًا، هكذا حدَّثتُ نفسي وأنا في حضنِها على السرير. كاد عقلي يطيرُ بعيدًا ويُفسدُ عليَّ متعةَ الليلة؛ لكنني كبَحتُ جماحَه، ولُمتُ نفسي متعجبًا من قدرتي على التفكيرِ في «عبير» هكذا، ومتى؟ في ليلةِ الدخلةِ؟! وبعد أن أنقذتْك من الفشلِ، يا لك من جاحدٍ! ثم بررتُ لنفسي قائلًا: يبدو أن نشوةَ النجاحِ أسكرتني، ولم أعِ ما أقولُ، أو فيم أُفكر. سرعان ما تراجعتُ عمَّا فكرتُ

فيه وخاطبتُ نفسي مجددًا: إن لها صديقاتٍ متزوجاتٍ، يبدو أنها استشارتْهنَّ وتعلمتْ منهُنَّ، كما أنَّ أمها قريبةٌ منها، وبالتأكيدِ لها بصمتُها فيما حدثَ هذه الليلة.

عُدنا إلى عملِنا بعدَ أسبوعيْ عسلٍ، ذُقت فيها ألوانًا متعددةً من المتعِ، والفضلُ يعودُ لـ«عبير». أكنَنْتُ لها كلَّ حبٍّ وامتنانٍ عظيمينِ، ورغبتُ رغبةً صادقةً في إسعادِها بشتى السُّبل.

في الأسبوعِ الثالثِ، أو ربما الرابعِ بعدَ الزفافِ، كنتُ عائدًا من عملي حينما لمحتُ طيفَ «ساندي» تعبرُ شريطَ القطارِ بالقربِ من منزلِ الزوجية. اندفعتُ تجاهَها، وسِرتُ وراءها، كانت تتهادَى في مشيتِها، وتمرُّ بخفةٍ بينَ المارةِ، كأنها ريشةٌ تحملُها الرياحُ، حسدتُ كلَّ مَن تطايرتْ الريشةُ بجوارِه، فلامسَتْه، أو تضوَّعَ شذاها حولَه، وعلى الرغمِ من الصَّخَبِ، وزحمةِ المارةِ، وصوتِ القطارِ، فإنني لم أكن أسمعُ شيئًا، أو أرى أحدًا، كأن العالمَ تلاشى حولي، ولم يبقَ فيه إلا ريشتي الطائرة.

استحالَ المكانُ إلى مرجٍ كبيرٍ، تحلِّقُ فوقَه أسرابُ حمامٍ أبيضَ، يتساقطُ ريشُها عليَّ، يداعبُ بعضُه أنفي، ويتسلَّلُ البعضُ داخلَ قميصي، يدغدغُني فأبتسم. تخيلت أنني اقتربتُ منها، وارتميتُ في أحضانِها، شهقتُ طويلًا لأعبِّئَ صدري بعبيرها، ثم بكيتُ على صدرِها لسببٍ لا أعلمُه، ومسحتُ دموعي في أكمامِ فستانِها الورديِّ، وثُبتُّ إلى نفسي لأجدَني فقدتُ أثرَها،

بحثتُ عنها في كلِّ مكانٍ؛ لكنني لم أجدْها، عدتُ إلى البيتِ عبوسًا، نظرتُ إلى «عبير» لأجدَها قد استحالتْ قبيحةً في عينَي؛ لكنَّ حسنَها عاد إليَّ مسرعًا بعد أن قضيتُ الليلَ في أحضانِها، فنظرتُ إليها وهي نائمةٌ جواري، وتخيلتُ أن جفنيْها مطبقانِ على عينَي مَلاك.

مرَّ علينا العامُ الأولُ من الزواجِ في سعادةٍ وهناءٍ، لم يراودْنا إلا قلقٌ يسيرٌ بسببِ الإنجابِ. لم تحملْ «عبير» مع أننا لم نتخذْ أيَّ تدابيرَ احترازيةٍ، لم نكنْ نُعيرُ ـ أنا و«عبير» ـ الأمرَ التفاتًا كبيرًا؛ لكنَّ أمي و«طنط عواطف» كانتا دائمتيْ الإلحاحِ، فاضطررْنا إلى الكذبِ عليهما، وقلنا لهما إننا لا نريدُ الإنجابَ مبكرًا، وإننا اتخذنا التدابيرَ لذلك؛ لكن طنط عواطف لم تقتنعْ وكشفتْ كذبتَنا بعدَ التحري، والتقصي، ومحاصرةِ «عبير» بالأسئلةِ التي لا تنقطعُ. وكانت نتيجةَ ذلك الضغطِ أن طلبتْ مني «عبير» أن نذهبَ للطبيبِ؛ لكنني رفضتُ رفضًا قاطعًا؛ خشيتُ أن أكتشفَ أنني السببُ، وانصاعتْ «عبير» لأمري، لكنَّ هذا الانصياعَ لم يُرحْني، وأثارَ داخلي الريبةَ والشكوكَ، وتساءلتُ في نفسي: لماذا انصاعتْ بهذهِ السهولةِ؟! ألا ترغبُ في الإنجابِ مني؟ أتريدُ أن تكونَ حُرةً لتنفصلَ بيُسر؟

انصعتُ بعدها لصوتِ العقلِ، وتراجعتُ عن أفكاري؛ لكنَّ ظِلَّ الشكِّ لم يكنْ ليفارقَني تمامًا، كلَّما حدثَ بيننا نقاشٌ صغيرٌ أو كبيرٌ تراودُني الشكوكُ والتساؤلاتُ، وكلما فعلتْ أمرًا عاديًّا،

وجدتُ عقلي يدورُ في حلقةٍ مفرَغةٍ من الأفكارِ: «تغدَّتْ دوني، لم تنتظرْ عودتي من العملِ، ألهذا الحدِّ كانت جائعةً؟ أم أنها لم ترغبْ في مشاركتي الطعامَ؟... تمنَّعتْ على المعاشرةِ ليلةَ أمسِ، أكانت فعلًا مُتعبةً كما قالت أم أنها ملَّتْ عشرتي؟... لم تُكملْ مشاهدةَ الفيلمِ معي، اعتذرتْ وخلدَتْ للنوم، هل بالفعلِ غالبَها النعاس؟ أم أنَ عقلَها مشغولٌ بأمرٍ آخرَ لا تُريدُ الإفصاحَ عنه؟ تُرى ما هو؟ أهو ذنبٌ اقترفتْه؟ أم تُفكرُ في اقترافِه؟»؛ لكنْ تلك الأفكارُ والهواجسُ لم تدُمْ طويلًا؛ فسرعانَ ما كنتُ أستمعُ لصوتِ العقلِ وأنساها أو أتناساها، وأعودُ لألومَ نفسي، ظللتُ فترةً طويلةً أتأرجحُ متألمًا بين صوتِ الشكِّ وصوتِ الحكمة.

وفي ليلةٍ أُخرى لمحتُ «ساندي» من جديدٍ، في المكانِ نفسِه، كانت تسلكُ الطريقَ نفسَه، عاهدتْني الأحلامُ ألَّا تراودُني إلَّا بعد أن أعرفَ مسكنَها، يا لها من صديقٍ مخلصٍ، تتبعتُها حذرًا، ولم أغفلْ عنها لحظةً واحدةً، لمحتُها تلجُ من بوابةِ عمارةٍ بشارعِ «القاهرة»، إذن فهي قريبةٌ من بيتي، بشارعِ «سيف». شارعانِ متوازيانِ، ليتهما متقاطعانِ. تساءلتُ، أهذا عُشُّ الزوجيةِ، أم منزلُ والديها؟ وجلستُ على الرصيفِ المقابلِ لبيتِها، متكئًا بمرفقَي على رجلَي، وراحتاي تسندان رأسي، وغرقتُ في الأحلام.

تمنيتُ أن أعيشَ تحتَ منزلِها، فأنعمَ برؤيتِها ليلَ نهارَ. مرَّ بجواري بائعٌ جائلٌ، تخيلتُ نفسي صاحبَ تلك العربةِ، أبيعُ فيها أطيبَ أنواعِ الفاكهةِ، ألفُّ بها في شوارعِ المدينةِ نهارًا، وأرقدُ

تحت بيتِها ليلًا، تُنزلُ لي سلَّةَ خوصٍ عميقةً كبيرٍ، وكنتُ أضعُ قلبي جوارَ حباتِ التفاح، فتجدُه بينما ترصُّ الحبةَ تلوَ الأُخرى على شكلِ هرمٍ فوقَ طبقٍ مسطحٍ من الكريستال، ثم ترفعُه نحوَ عينيْها، وتنظرُ إليه بحنانٍ، وتلمسُه بعطفٍ، ثم تقبِّلُه، وتضعُه على رأسِ الهرمِ، لَكَم كانت قبلتُها لذيذةً! وفي ليلةٍ غمزَتْ لي بطرفِ عينها، وأتبعتْ بإشارةٍ من يدِها تطلبُ مني الصعودَ، وحينما رأيتُها من خلفِ بابِ منزلِها، ارتميتُ في أحضانِها، وبكيتُ على صدرِها.

اعتدتُ أن أمرَّ ببيتِها قبلَ عودتي لمنزلي، بعدَ العملِ، وأراقبُها من بعيدٍ حتى تتوارى عن ناظرَيَّ، وكنتُ شغوفًا بمعرفةِ أخبارِها، هل تزوجتْ؟ مَن سعيدُ الحظِّ يا ترى؟ هل دامَ زواجُها؟ هل طُلِّقتْ؟ هل تعيشُ في سعادةٍ؟ أم تعيسةٌ؟ وتمنيتُ في نفسي أن أراها تعيسةً، فأظهرُ لها، وأحوِّلُ حياتَها إلى سعادةٍ دائمةٍ، فتحبُّني، ولا تستطيعُ العيشَ دوني، وأتركُ «عبير» أو أُبقيها، كيفما اتفقَ لي حينَها.

لم أكتفِ بلحظاتِ التلصُّصِ العابرةِ، صِرتُ أخرجُ من البيتِ كثيرًا على غيرِ عادتي، وفي كلِّ مرةٍ أختلقُ عذرًا جديدًا لـ«عبير»، غيرَ عابئٍ أكان عذرًا مقنعًا أم لا، أكانت ترضى أم تأبى، وكنتُ أجلسُ في مقهى قريبٍ من بيتِها، وأظلُّ أراقبُها حتى تظهرَ من الشُّرفةِ، أو تخرجَ فأتبعُها. لم أرَها مع أحدٍ قَطُّ؛ زوجٍ، أخٍ، أبٍ أو أمٍّ، كانت وحيدةً، أشفقتُ عليها، وسُررْتُ أيضًا بوحدتِها،

فقد كانت فرصةً أن أملأَ عليها حياتَها، وأعوِّضَها عن سنينَ الوحدةِ التي عاشتْها، وامتلأتْ حياتي بأحلامِ اليقظة، قابلتُها، وسِرتُ معها، ضحكْنا، ولعبْنا، أكلْنا وشربْنا، نَامتْ على كتفي، وبكَتْ في أحضاني، وكنتُ أعودُ إلى البيتِ غيرَ قادرٍ على النظرِ في وجهِ «عبير».

مرَّ عامٌ آخرُ، لم أنقطعْ فيه عن تلصصي على «ساندي»، ولم أعُدْ أختلقُ الأعذارَ لـ«عبير» لأتركَ البيتَ، فقد صارتْ تتأخرُ في العملِ، وكنتُ أشجعُها على ذلك، وأدفعُها للمزيد بحجةِ الحرصِ على مستقبلِها، والرغبةِ في إثباتِ ذاتِها. وحمدتُ اللهَ على أنني لم أنجبْ حتى الآنَ؛ لكنني في الوقت نفسه لم أستطعْ صدَّ الشكوكِ حينما كانت تراودُني، فكنتُ أتساءلُ في نفسي عن سببِ عدمِ مبالاةِ «عبير» بالإنجابِ بعدَ عامينِ من الزواجِ، ومما زادَ شكوكي، أنها استطاعتْ إقناعَ أمِّها بأنْ تنسى الأمرَ، وكنتُ أحسبُ أن حماتي لا يمكنُ لها التخلي عن التفكيرِ في الإنجابِ أبدًا، وشعرتُ بأن في الأمرِ سرًّا، وراقبتُ مكالماتِهما التليفونيةَ؛ لكنني لم أسمعْ شيئًا يثيرُ ريبتي، وزادَ هذا من شكوكي، وقلتُ لنفسي: إن حرصَهما يؤكدُ وجودَ سرٍّ، ربما يتحدثانِ في بيتِ أمِّها، حينما يختلي بعضُهما ببعضٍ في أثناءِ زيارتِنا، وحاولتُ التلصصَ عليهما هناك؛ لكنني فشلت.

وذاتَ يومٍ أخبرتْني «عبير» بأنها قررتْ تركَ قسمِ المحاسبةِ في شركتِها والالتحاقَ بقسمِ الإرشادِ السياحيِّ الداخلي؛ لكنَّ مديرَ

الشركةِ طلبَ منها الحصولَ على دبلومةٍ من كليةِ الآدابِ قسمِ الآثار، قبلَ الالتحاقِ بالوظيفةِ الجديدة. أخبرتْني بذلك بسعادةٍ وحماسٍ. حكتْ لي أنها شعرتْ بالملل من العملِ الروتيني في قسمِ الحساباتِ منذُ فترةٍ، وأوضحتْ كيف كان يُثارُ فضولُها حينما تسمعُ المرشدينَ السياحيينَ يتناقشونَ في الآثارِ والتاريخ. دفعها هذا الإعجابُ للسعيِّ وراءَ امتهانِ تلكَ المهنةِ، وأخبرتْني بأن صاحبَ الشركةِ ومديرَها لم يفعلْ هذا مع أحدٍ من المحاسبينَ قط، وأنه منحها هذا الاستثناءَ وتلك الفرصةَ لثقتِه فيها، ولِما رآه في عينيْها من شغف.

التحقتْ بكليةِ الآدابِ من جديدٍ، وكانتْ محاضرتُها ليليةً، تذهبُ إليها بعد انتهاءِ العملِ، ثم ترجعُ إلى البيتِ في المساءِ متفرغةً للمذاكرةِ بجد. قادتْني هذه التطوراتُ لمزيدٍ من الشكِّ، سألتُ نفسي إنْ كان ما قالتْه لي عن دوافعِها لتحويلِ مسارِها المهنيِّ حقيقيًّا، أم أنها خدعتني، وارتبتُ في أمرِ رئيسِها في العمل:

«لم يفعلْ ذلك إلا مع «عبير»!... تُرى ما دوافعُه؟ أحقًّا رأى الشغفَ في عينيْها؟ أم أنه رأى شيئًا آخرَ... في نهديْها مثلًا... أكان الشغفُ دافعَها حقًّا؟ أم أنها رأتْ أن هذا المكانَ فرصةٌ للتقرُّبِ للمدير؟ وإنْ كان الأمرُ بالفعلِ كذلك فما جذبَها إليه؟ أموالُه أم وسامتُه؟».

لمتُ نفسي مجددًا على هذا التفكيرِ، وقلتُ: «إن كانت نواياهُما سيئةً لحقَّقا مآربَهما بأقصرِ طريقٍ... أمَّا أنْ تلجأَ «عبير»

للمذاكرةِ والحصولِ على دبلومةٍ جامعيةٍ، فهذا يُثبتُ حُسنَ نواياها، فلا شيءَ يضطرُّها لفعلِ ذلك... كان من السهلِ عليهما أن يختصرا كلَّ هذا الوقتِ والمجهودِ... ثمَّ إنها بالفعلِ تجتهدُ في المذاكرةِ إلى الدرجةِ التي تدفعُني لتصديقِ نواياها» كنتُ أدخلُ في نوباتِ شكٍّ، لا أخرجُ منها بسهولة.

بعد عدةِ أشهرٍ من حصولِها على دبلومةِ الإرشادِ السياحي، فاجأتْني «عبير» بأنها حاملٌ، تظاهرتُ بالفرحِ؛ لكنني كنتُ أتألمُ داخلي، فقد زادَ هذا الحَملُ المفاجئُ شكوكي، كيف تأخرَ طيلةَ هذه المدة؟ وكيف أتى فجأةً دونَ سابقِ إنذارٍ ولم يكنْ أيٌّ منا قد ذهبَ لطبيبٍ أو تناولَ أيَّ علاج؟ ماذا لو كنتُ لا أُنجب؟ أيُعقل هذا؟ وسألتُ نفسي: متى عاشرتُها آخرَ مرةٍ؟ وتذكرتُ أننا فعلناها هذا الأسبوعَ، والأسبوعَ الماضي، والذي سبقَه، فلا مجالَ للشكِّ إذن؛ لكنني مع ذلك فكرتُ في أن أذهبَ للطبيبِ وحدي للتأكدِ من قُدرتي على الإنجاب؛ لكنني كلما اقتربتُ من عيادتِه تثاقلتْ قدماي، كنتُ أخشى أن يتحولَ الشكُّ إلى يقينٍ، ثم لا أستطيعُ فعلَ شيءٍ حيالَ ما استيقنتُ منه، فتسوءُ حالتي.

باتت الأفكارُ والخيالاتُ والأوهامُ تراودُني، وتمنعُ عني النومَ، كنتُ أستلقي جوارَها وأسمعُ أنفاسَها، بينما عقلي لم يزلْ يفكرُ في الماضي والحاضر:

«أيُعقلُ أنْ تفعلَ ذلك بي «عبير»؟! أنا لم أخُنْها قَطُّ، بل كنت دائمًا حريصًا على إسعادِها، لم أرفضْ لها طلبًا، كنتُ أمنحُها مساحةً من الحريةِ أكبرَ مما تتطلعُ... تُرى لماذا تركتْ وظيفةَ المحاسبةِ في شركتِها وانتقلتْ لقسمِ الإرشادِ السياحي؟... لا، لم يكن مديرُ الشركةِ السببَ كما ظننتُ في السابقِ، إنه رجلٌ فاضلٌ، لقد جمعتْني به المصادفةُ، وعرفتُه عن قربٍ أكثرَ من مرةٍ... إنَّ مهنتَها الجديدةَ تحتِّمُ عليها السفرَ مع الوفودِ، ألهذا السببِ بدَّلتْ وظيفتَها؟!... تُرى من هو؟ وأين يتقابلان؟ ومتى آخرُ مرةٍ سافرتْ فيها؟... آه، منذُ شهرٍ، ليست فترةً بعيدةً. ما الذي يملكُه ولم تجدْه عندي؟... كفى! ماذا تقولُ؟! كفاكَ عبث! إنها زوجتُك، وليس لديك دليلٌ على شكوكِك، إنها أوهامٌ في عقلِك ليس أكثر... نعم، أوهامٌ، أوهامٌ بالفعلِ، لعلها أوهام... لكنْ ألَا تتذكرُ الماضي، «صلاح»، وقُبلةَ «المُنتزه»، والرسائلَ المتبادلةَ، واستغفالي، إنَّ خداعي في السابقِ يثبتُ خداع الحاضر، إنه داءٌ لا خلاصَ منه، لعلها كانت تخدعُني كلَّ تلك الفترةِ... يا لي من مغفلٍ! لعلها قالت في نفسِها: إن عمرَ ضعيفُ الشخصيةِ ويمكنُني السيطرةُ عليه، بل أنا بالفعلِ أُسيطر عليه منذُ كنا أطفالًا، سيسهُلُ عليَّ تغفيلُه، وأفعلُ ما يحلو لي... يا لكِ من امرأةٍ!... أتخونُني مع «صلاح»؟ هل عادتْ علاقتُهما من جديد؟ ولكنْ أليس من الممكنِ ألَّا تكونَ قد انقطعتْ من الأصلِ، وأن زواجَها

مني لم يكنْ إلا خطةً خططا لها معًا للقضاءِ عليَّ... لكن لماذا تتواطأ طنط عواطف معها، ألستُ زوجَ ابنتِها الذي ينبغي عليها الحفاظُ على شرفِهِ، ثم إنني ابن صديقةِ عُمرِها، كيف ستواجهُها بعدَ الآنَ... أمي؟! لا... مستحيلٌ أن تكونَ أمي جزءًا من هذا المخططِ، هل اجتمعَ عليَّ الناسُ جميعًا؟ من أجلِ ماذا؟ من أجلِ القضاءِ عليَّ؟ وماذا فعلتُ لهم؟! هل لأنني لا أفعلُ شيئًا؟ أيكونُ كلُّ هذا بسببِ ترددي؟ كرِهَني الجميعُ؟ وضاقوا بي ذَرعًا؟ استباحني كلُّ مَن أعرفُ؟... لا... لا... عقلي لا يتحمل... ربِّ ألهمني الصبرَ، أو امنحني الموت».

شعرتُ برغبةٍ لا تقاومُ في التحدثِ إلى «ساندي»، والارتماءِ في أحضانِها، والبكاءِ على صدرِها، ركضتُ كالمجنونِ، صِرتُ أذرعُ شارعَها ذهابًا وإيابًا، وعيناي معلقتان ببابِ منزلِها، وشرفتِها، طالَ الوقتُ، لم تظهرْ، خشيتُ افتضاحَ أمري، فجلستُ على المقهى، انتظرتُ وقدماي ترتعشانِ، والعرقُ يتصبَّبُ مني، كنتُ أسُبُّ «عبير» في نفسي، وكلما تأخرتْ «ساندي» في الخروجِ سببتُها هي أيضًا: «لماذا تتأخرُ عني وأنا في أمسِّ الحاجةِ إليها؟ ألا تتذكرُ كيف أنقذتُها من وحدتِها، ألا تحملُ في قلبِها ذرةَ امتنانٍ لي؟ ألستُ مَن احتضنتْه، وبكتْ على صدرِه؟ ألستُ من بدَّلَ عبوسَها ابتسامًا؟ أهذا هو الحبُّ؟! أهذا هو الوفاءُ؟!». ثُبتُّ إلى نفسي حينما لمحتُ طرفَ شعرِها البنيِّ يهفو حولَها وتظهرُ خلفَه

رقبتُها البيضاءُ الناعمةُ، خفقَ قلبي، وهرولتُ ناحيتَها، وفي طريقي إليها بكيتُ، وسررتُ لبكائي، وقلتُ في نفسي إنها بذلك ستشفقُ عليَّ، ولن ترفضَ لي طلبًا مهما كان. اندفعتُ نحوَها، ولمستُ كتفَها بثقةٍ، وأدرتُه نحوي بعنفٍ، وسرعةٍ، وتضرعتُ لدموعي ألَّا تجفَّ قبلَ أن تراها؛ لكنني تلجَّمتُ حينما سمعتُ صوتَ صراخِها، قلتُ لها: «ما تخافيش يا ساندي أنا عمر»؛ لكنَّ صراخَها علا وتجمَّعَ الناسُ حولَنا، وكتفني بعضُ الرجالِ، ودعاها البعضُ باسمِ «سلمى» فصححتُ لهم الاسمَ، وقلتُ بعفويةٍ: «اسمها ساندي، ودي صاحبتي، سيبونا في حالنا من فضلكم»؛ لكنها سبَّتني، ونعتتْني بالمجنونِ، وقالت إنها لا تعرفُني. لقد تبرَّأتْ من علاقتِنا، أبهذه السهولةِ يا ساندي؟! أكلُّ النساءِ خائناتٌ؟! بكيتُ من جديدٍ، وأشفقَ عليَّ بعضُ المارةِ، وتركوني وهم يضربونَ كفًّا بكفٍّ، بل ربَّت على كتفي البعضُ بحنانٍ، ودعوا لي. «حمدًا لله! لقد وجدتُ أخيرًا من يحنو عليَّ، ويدعو لي». ابتسمتُ، وعدتُ من حيثُ أتيت.

١٩

استلقيتُ ليلةَ أمسِ محدِّقًا في سقفِ الكهفِ الخشبيِّ الذي أقطُنه منذُ فترةٍ، شردتُ، فرأيتُ شجرةً ضخمةً أوراقُها خريفيةٌ صفراءُ تتساقطُ واحدةً تلوَ الأُخرى على بِركةِ دماءٍ، يبدأُ اللونُ الأحمرُ في التسللِ إلى سطحِ كلِّ ورقةٍ كأنه خيوطٌ رفيعةٌ متناثرةٌ، ثم سرعانَ ما تغرقُ في الدماءِ فيتبدلُّ لونُها وملمسُها، رأيتُ إحدى أوراقِ الشجرِ تسقطُ ببطءٍ... تتهادى نحوَ الأرضِ، وقبلَ أن تصطدمَ التفتتْ ببطءٍ نحوَ صُويحباتِها أعلى الشجرةِ، مرددةً كلماتٍ سمعتُ صداها في أذني عدةَ مراتٍ، كانت تصرخُ: «عُقبى لكم».

* * *

قررتُ مراقبةَ عبير، كنتُ أخرجُ من المدرسةِ متجهًا إلى مقرِّ عملِها، أجلسُ على مقهًى قريبٍ يُتيحُ لي رؤيةَ الداخلِ والخارجِ، خلالَ الأسبوعِ الأولِ من المراقبةِ لم يظهرْ شيءٌ يثيرُ ريبتي، كانتْ طوالَ اليومِ داخلَ مقرِّ عملِها، وإنْ خرجتْ ففي وقتِ الراحةِ

مع إحدى صديقاتِها لشراءِ بعضِ الحلوياتِ من الكشكِ المجاورِ، ثم تخرجُ من العملِ سيرًا على الأقدامِ من «محطةِ الرملِ» إلى مقرِّ الكليةِ مباشرةً دونَ أن تقابلَ أحدًا، ومن الجامعةِ إلى البيتِ في نهايةِ اليومِ وحيدة.

كدتُ أن أطمئنَّ، غيرَ أنني في يومٍ من الأيامِ، بينما كنتُ جالسًا على المقهى رأيتها عائدةً إلى المكتبِ بصحبةِ رجلٍ، بدا لي أنه أحدُ زملائها في العملِ، كانا يحملانِ علبَ بيتزا، ويتجاذبانِ أطرافَ الحديثِ، وقبلَ أن يَلِجَا مقرَّ الشركةِ لاحتْ منها ابتسامةٌ نحوَه، بدا لي أنه مازحَها، وأنها سُرَّتْ لمزاحِه، دبَّ الشكُّ في نفسي بعدَ أن كنتُ قد هدأتُ نسبيًّا، وتساءلتُ: تُرى مَن هذا الرجلُ؟ ولماذا ابتسمتْ له هكذا؟ أيكونُ هذا أبو ابني؟ وما كلُّ علبِ البيتزا تلك؟ أيحتفلونَ بحملٍ عبير؟ وهل يعلمُ زملاؤهما علاقتهما؟ أتهتمُّ بطلبِه كما كانت تهتمُّ بي في الجامعة؟ لكنْ أين صلاح؟ أيكونُ هذا الرجلُ صديقَ صلاح؟ أيكونُ كاتمَ أسرارِهما؟

أيقنتُ أن المراقبةَ خارجَ الأماكنِ التي ترتادُها ليس كافيًا، ربما ما يحدثُ داخلَها أجلُّ وأعظمُ، وهو الجديرُ بالمراقبةِ؛ لكنني لم أرغبْ في دخولِ أيٍّ من تلك الأماكنِ حتى لا يُفتضحَ أمرُ تلصُّصي، واكتفيتُ بالتساؤلِ، والحديثِ الصامتِ مع النفسِ، وإطلاقِ العنانِ لخيالي، فكانت كلُّ إجاباتي تؤجِّجُ الشكَّ

في نفسي: «ماذا يحدثُ داخلَ جدرانِ الشركة؟ أهناك ممرٌ سريٌّ داخليٌّ يصل بها إلى شقةٍ تمَّ تأجيرُها مسبقًا؟ هذا واردٌ؛ لكنها لا تتأخرُ في العملِ، ربما تستغلُّ أوقاتَ الراحةِ في الإقامةِ بها، ثم إنَّ العمارةَ مليئةٌ بالشركاتِ، أيتفقُ أنْ يعملَ «صلاح» في شركةٍ بالعمارةِ نفسِها، أو ربما في شركتِها ذاتِها... ثم ماذا يحدثُ في الجامعةِ؟! إنَّ ارتيادَها ليلًا لأمرٌ يُثيرُ الشكوكَ، هناك أماكنُ مختبئةٌ عن العيونِ ولا توجدُ كاميراتُ مراقبة».

وازدادتْ شكوكي، وشعرتُ بأنَّ مراقبتي لها بعدَ أوقاتِ العملِ غيرُ كافيةٍ: مَن يدري لعلها تصلُ إلى العملِ متأخرةً، وتفعلُ ما يحلو لها في الصباح. وتغيبتُ من المدرسةِ يومًا بعدَ يومٍ في سبيلِ مراقبتِها، كان روتينُها اليومي واحدًا لا يتغيرُ إلَّا من بعضِ المصادفات المشابهةِ لمصادفةِ يومِ البيتزا. حينما تحدثُ مثلُ تلك المصادفات تتأجَّجُ شكوكي، وأبدأُ في تخيُّلِ ما يحدث. رأيتُها بعقلي في كلِّ الأوضاعِ، ومع كلِّ الرجالِ الذين شككتُ فيهم؛ لكنَّ «صلاح» ظلَّ مصدرَ شكي الأكبر. كان صوتٌ داخليٌّ يُحدثُني بأنه سببُ كلِّ تلك المصائبِ، وهو أبو ابني؛ لكنها ظلَّتْ شكوكًا حتى حدثَ ما لم يكنْ في الحُسبانِ فباتت الشكوكُ يقينًا، على الأقلِّ بالنسبةِ لي.

ذاتَ يومٍ، كانت «عبير» تسيرُ من مقرِّ العملِ إلى الجامعة، سرتُ خلفَها، وفي المنعطفِ الذي يربطُ الكورنيش بشارعِ «سوتر»، لمحتُ «إيهاب» ـ صديق صلاح ـ يمرُّ جوارَها في عكسِ الاتجاهِ،

حتى تخطَّاها وهما يتبادلانِ النظراتِ، حدَّستُ بأنهما سيتوقفانِ ويتجاذبانِ أطرافَ الحديثِ؛ فهو بالتأكيدِ يعرفُ علاقتَها الحاليةَ بـ«صلاح»؛ لكنْ كلٌّ منهما مضى في طريقِه، غيرَ أن عقلي أبى أن يمضيَ معهما وتسمَّرَ في هذا المكانِ، وباتَ يُحلِّلُ النظراتِ والخطواتِ، والحركات. تساءلتُ عن السببِ الذي جعلَه يلتفتُ نحوها: أهي إشارةٌ متفَقٌ عليها؟ هل تعني مثلًا أنه إذا التفتَ «إيهاب» لها فهو تأكيدٌ للموعدِ الذي بينها وبين «صلاح»؟ أم أنه إلغاءٌ للموعد؟ هل ستُغيرُ وجهتَها بناءً على ذلك، أم أنها ستقابلُه في الجامعة؟

ثم خطرَ لي أنها تدخلُ من بوابةِ كليةِ الآدابِ كلَّ يوم وتخرجُ من بوابةِ إحدى الكلياتِ الخمسِ الأُخرى، حتى لا يشكَّ أحدٌ في أمرِها، بدا لي خبثُها، واستيقنتُ من خيانتِها، وأصبحتُ المراقبةُ غيرَ مُجديةٍ، وخاطبتُ نفسي: كفاكَ مراقبة، حانَ وقتُ الفعل.

كان بي غضبٌ، وحزنٌ، وألمٌ مريرٌ. فكرتُ للمرةِ الأُولى أن فعلي يجبُ أن يكونَ عنيفًا، ورادعًا، استبدلتُ بمراقبتِها تمشيةً طويلةً أُقلِّبُ فيها الأمرَ؛ كي أستقرَّ على فعلٍ يُرضي شعوري ورجولتي، وبينما أسيرُ على كورنيش البحر صادفتُ أحدَ مدرسي المدرسةِ التي أعملُ بها، سلمَّ عليَّ، كأنني كنتُ في غربةٍ، ثم أخبرني بأنني قد فُصلتُ من العملِ، توقفتُ لحظاتٍ، كنتُ قد نسيتُ أمرَ عملي وانغمستُ بكلِّ كياني وراءَ «عبير»، وراجعتُ التواريخَ فوجدتُ نفسي متغيبًا عن العملِ ما يقربُ شهرين.

زوجة خائنة، وابن حرام. رجل بلا عمل، وحياة بلا قيمة أو معنى. عدتُ إلى البيتِ في حالةٍ يُرثى لها، الغضبُ يقودُني، والأفكارُ تعصفُ بعقلي، وددتُ لو كانت «عبير» في البيتِ لأشفي غليلي، هي السببُ في كلِّ ما يحدثُ لي، يجبُ أن تُعاقبَ عقابًا رادعًا، استلقيتُ غاضبًا على سريري في انتظارها، وعقلي يتخيلُ أنها أمامي، وأنني أقتصُّ منها، تراءى لي أنني هرولتُ ناحيةَ المطبخِ، أحضرتُ «نشابة الدقيق»، وضعتُها جانبَ السريرِ، وبمجردِ أن دخلتْ غرفةَ النومِ، انتفضتُ قائمًا والشررُ يتطايرُ من عينَي، واجهتُها، وشعرتُ بارتجافتِها لمَّا رأتْ ملامحي، سألتْني عمَّا حدثَ وما يحدثُ، فرددتُ بضحكةٍ ساخرةٍ طويلةٍ تردَّدَ صداها في الأُفق، ثم التقطتُ «النشابةَ» وهويتُ بها على رأسِها، سقطتْ صريعةً؛ لكنني لم أكتفِ، هويتُ عليها عشراتَ المراتِ، وأنا أصرخُ كالمجنونِ، وحينما شعرتُ بأن قدميَّ غارقتان في بِركةٍ من الدماءِ، نظرتُ إلى القتيلةِ مرتعبًا، غيرَ مصدقٍ ما فعلتُ، ألقيتُ «النشابةَ» من يدي، وهرولتُ خارجًا من البيتِ، وآثارُ الدماء تلتصقُ بالأرضِ مع خطواتي.

ثُبتُ إلى نفسي على صوتِ ضحكةٍ مجلجلةٍ، التفتُّ حولي باحثًا عن «عبير» ظانًّا أنها أتتْ في غفلةٍ مني؛ لكنني لم أجدْها، بحثتُ عن مصدرِ الصوتِ، لأجدَ الظلَّينِ اللذين ظَهرا لي من قبلُ في بيتِ أمي يواجهانني، تعجبتُ متسائلًا: كيف عرفا

بيتي الجديد؟ لم يُمهلا فرصةً للردِّ، بل تعالتْ ضحكاتُ أحدِهما، ثم استطردَ ساخرًا بأنني ما زلتُ أعيشُ في أوهامي، استفزَّني كلامُه، وصرختُ في وجههِ مبررًا موقفي، وقلتُ له: ألم ترَ أنني للتوِّ قتلتُها؟! لكنه لم يردَّ، بل علا صوتُ ضحكتِه وتواصلَ، وتردَّدَ في الأُفق. كان يَطِنُّ في أذني كدويِّ القنابلِ، لم أتحملْه وشعرتُ بأنَّ طبلةَ أذني تكادُ تنفجرُ، وتسارعتْ دقاتُ قلبي، كأنه قرَّرَ القفزَ من صدري منتحرًا، لم أعرفْ ماذا أفعلُ، التففتُ حول نفسي في حركةٍ دائريةٍ، شعرتُ على إثرِها بدوارٍ، ثم واجهتُ الظلَّ من جديدٍ واضعًا راحتيَّ على أذنَي صارخًا نحوَه بأعلى صوتٍ وبلهجةٍ آمرةٍ أن يكفَّ عن الضحكِ؛ لكنه كان يُعاندُني، كلما زادَ صراخي تعالتْ ضحكاته. احمرَّتْ وجنتاي وانتابني غضبٌ لم أشعرْ بمثلِه من قبلُ، ضربتُه بقبضتي لكماتٍ متتالية؛ لكنها اصطدمتْ في الحائطِ حتى دُمِيَتْ، وظلَّ هو يضحكُ ويضحك. لم أشعرْ بنفسي إلا وأنا حاملٌ ما أجدُه أمامي من أثاثِ الغرفةِ ومُلقٍ به على الحائطِ بكلِّ ما أُوتيتُ من قوةٍ، مرَّتْ لحظاتٌ، تحطمَ فيها بعضُ الأثاثِ، ثم ساد الصمتُ فجأةً، التففتُ حولي، رأيتُ الفوضى والخرابَ يعمَّانِ المكانَ، واستبدتْ بي في الحالِ رغبةٌ ملحَّةٌ في الهرب. أسرعتُ ناحيةَ بابِ الشقةِ، وخرجتُ راكضًا لا أنظرُ خلفي.

سِرتُ غائبًا عن الوعيِّ لا أعلمُ لسيري وجهةً، الدموع تنهمرُ على وجنتَيَّ دونَ قدرةٍ مني على منعِها، أو رغبةٍ في مسحِها.

اجتاحتْني رغبةٌ عارمةٌ في الموت، أن أفنى، أتلاشى، أفقدَ كلَّ قدرةٍ على الشعورِ، والتفكيرِ، والتنفسِ، والرؤيةِ، والشمِّ، واللمسِ، والتذوق. لم يكنْ يريحُني شيءٌ إلا الموتُ، فكَّرتُ في أنْ أُلقيَ بنفسي أمامَ عجلاتِ الترامِ أو عربةٍ من العرباتِ التي تُسرعُ على كورنيش البحرِ؛ لكنَّ كلَّ قدراتي كانت معطلةً، وبتُّ أسيرُ بقوةِ الدفعِ، دونَ قدرةٍ مني على التحكمِ في جسدي، وقفتُ أمامَ «حديقةِ الخالدين»، جررتُ قدمَي جرًّا لأصعدَ درجاتِ السلمِ التي تصلُ بي إلى قلبِ الحديقةِ، استلقيتُ على دكةٍ خشبيةٍ مواجهةٍ لتمثالِ «سيد درويش»، ورحتُ في سُباتٍ عميق.

أيقظني أحدُ مرتادي الحديقةِ في صباحِ اليومِ التالي، انتفضتُ، نظرتُ إليه بارتيابٍ، شعرتُ بأنه يُريدُ أن يضربَني، فهربتُ من أمامِه راكضًا، هِمتُ على وجهي في شوارعِ الإسكندرية، لم أكنْ أشعرُ بشيءٍ، أو أفكِّرُ في أحدٍ، كنتُ كأنني في عرضِ البحرِ، لا أسمعُ صوتًا إلا صفيرَ الهواءِ وهديرَ الأمواجِ، لم أتناولْ طعامًا أو شرابًا طوالَ اليوم، ولم أشعرْ بجوعٍ أو عطش. ثاب عقلي مع حلولِ الليلِ، كان أولُ ما شعرت به هو رغبةً محمومةً في الموتِ، كانت قد تضاعفتْ من الأمسِ، فكرتُ في الانتحارِ؛ أن أقذفَ بنفسي في البحرِ، وأتركَ جسدي للأمواجِ، تفعلُ به ما تشاء.

شعرتُ بأنَّ موتي سيكونُ انتقامًا مناسبًا مني وممن حولي، بحثتُ عن أعلى مكانٍ يمكنُ أن أقفزَ منه، وقفتُ على سورِ البحر،

توجهتُ ناحيتَه، نويتُ القفزَ؛ لكنني في اللحظاتِ الأخيرةِ فكرتُ في أن موتي ليسَ الانتقامَ الكافي الذي يمكنُ أن يُشفي غليلي. فكَّرتُ في أنَّ موتي عقابٌ رادعٌ لي ولـ«عبير» و«صلاح»، وأمي وأبي فقط؛ وهذا لا يكفي، كنتُ أريدُ أن أُعاقبَ كلَّ من قابلتُ في حياتي، زملاءَ المدرسةِ، المدرسينَ، مدربَ الكرة، زملاءَ الجامعة، الأساتذةَ، زملاءَ العمل، حتى المارةُ في الشوارع، وهذا الرجلُ الذي رآني بينما أهُمُّ بإلقاءِ نفسي في المالحِ دونَ أنْ يهتزَّ له جفنٌ، رغبتُ بشدةٍ في أنْ أحرقَ قلبَ كلِّ مَن يعيشُ في بلدي، المذنبِ والبريءِ، الفاشلِ والناجحِ، الطيبِ والخبيثِ، الظالمِ والمظلومِ، الحاكمِ والمحكوم.

ترجلتُ عن سورِ البحرِ، وعقلي لا ينقطعُ عن التفكيرِ، استقرَّ رأيي على أن أدعوَ لانتحارٍ جماعي، أخاطبُ في دعوتي كلَّ مَن عانى معاناتي أو شبيهَتها، بأنْ نضمَّ جراحَنا بعضَها على بعضٍ ونُعاقبَ المجتمعَ بأسرِه، نقتصَّ منه، ونُعلِّقَ ذنوبَنا جميعًا في رقبتِه. راقتْ لي الفكرةُ وتحمستُ لها، لا أعرفُ كيف تسللَ الحماسُ إلى نفسي وأنا على تلك الحالة! ثم شعرتُ بالجوعِ، بحثتُ عن مطعمٍ، تناولتُ طعامي، وفكرتُ في أن التخطيطَ للانتحارِ الجماعيِ يحتاجُ إلى بعضِ الوقتِ حتى أجمعَ أكبرَ قدرٍ ممكنٍ من المنتحرين.

كنتُ أملكُ بعضَ المالِ في حسابي البنكي، سحبتُه، وبحثتُ عن شقةٍ مفروشةٍ أستخدمُها مكانًا للتخطيطِ لعمليتي الكبرى،

استقرَّ رأيي على السكنِ في منطقةِ «بحري»، بعيدًا عن بيتي ومنزلِ والدَيَّ، جلستُ في مساءِ أولِ يومٍ لي في البيتِ الجديدِ، وسطرتُ رسالةً من أربعِ صفحاتٍ (فلوسكاب)، وضعتُ فيها كلَّ مشاعري وغضبي، وأفكاري وأهدافي. شدَّدتُ في خطابي على فكرةِ الانتقام، وداعبتُ مشاعرَ الشبابِ المحبطينَ أمثالي، واقترحتُ عليهم أن نعتلي معًا قمةَ «فنارِ الإسكندريةِ» ونقذفُ أنفسَنا منه، وأن نرتدي يومَها «تيشيرتات» سوداءَ اللونِ، ونكتبُ عليها باللونِ الأحمرِ جملةَ «عُقبى لكم».

كتبتُ رسالتي ثم غصتُ في نومٍ عميق.

٢٠

كنتُ في غرفةِ نومي، أتدثرُ بغطاءٍ ثقيلٍ، مطبقَ الجفونِ. استيقظتُ حينما شعرتُ بإبرةٍ تشكُّ إحدى أصابعِ قدمي اليُسرى، رفعتُ الغطاءَ عني، وترجلتُ لتقصِّي الأمرَ. كانت الإبرةُ مشبوكةً في طرفِ السريرِ، وخيطٌ أصفرُ واهنٌ عالقٌ بها، تتبعتُه، فقادَني إلى بابِ الغرفةِ، ومنه إلى بابِ البيت.

أفضى بي بابُ منزلي إلى صالةِ بيتِ والدَيَّ، بدلًا من بسطةِ السلَّمِ، درتُ حول نفسي، فرأيتُ الساعةَ البنيةَ ذاتَ البندولِ، وشممتُ رائحةَ البامية. خطوتُ سبعَ خطواتٍ نحوَ اليسارِ، حتى وصلتُ إلى غرفةِ أبي، كانت خاويةً إلا من حذاءٍ بنيِّ اللونِ، برقبةٍ قصيرةٍ، نُزعت عنه أربطتُه. عبرتُ الغرفةَ، فأفضتْ بي إلى فصلي بمدرسةِ سمير الابتدائيةِ، اللوحاتُ المعلقةُ على الحائطِ نفسُها، الزجاجُ المهشمُ نفسُه، ورائحةُ القمامةِ الصاعدةُ من الممرِ الخلفي، لم يتبدلْ شيءٌ سوى زملائي القدامى، ومس كاميليا، فقد استحالوا إلى هياكلَ عظميَّةٍ، يتدلى من صدورِها سلاسلُ، معلقٌ في نهايتِها دلَّاياتٌ، مدوَّنٌ عليها الرقم (٧).

سمعتُ صوتًا ينادي عليَّ، ألقيتُ نظرةً من النافذةِ، وجدتُ «عبير» و«صلاح» و«ساندي» يلوحونَ بأيديهم، «انزل يا عمر، تعالَ العب معانا» قفزتُ من النافذةِ، فاردًا ذراعي كحمامةٍ، وحينما لامستُ الأرضَ استحالتْ إلى شاطئ بحرٍ، وتلاشى مَن سقطتُ من أجلِهم، سِرتُ وحيدًا بمحاذاتِه، المكانُ مقفرٌ، والقيظُ شديدٌ، العرقُ يتصببُ من جبيني، ورائحةُ اليودِ تملأُ أنفي.

لمحتُ أمي تقفُ على الشاطئِ، وتنظرُ نحوَ قرصِ الشمس، اقتربتُ منها، كان لونُ البحرِ أبيضَ، والأمواجُ منحسرةٌ، خاضعةٌ، ثم تحوَّل نظرُها عن الشمسِ وحدَّقتْ في بقعةٍ صفراءِ اللونِ، بيضاويةِ الشكلِ وسطَ البحرِ، تتصاعدُ منها فقاعاتٌ، ويتسللُ إلى سمعِنا صوتُ أنفاسٍ مكتومةٍ، اقتربتْ من البحرِ حتى لامستْ قدماها الماءَ، حينها صعد رأسُ أبي من البقعةِ الصفراء.

شهقَتْ أمي:

ـ عرفان، إنت فين يا أخويا، وحشتني.

ابتسم الرأس:

ـ أنا هنا من زمان يا أمل، بدور عليكي تحت المية.

ـ أنا مستنياك ع الشط يا اخويا يجيلي زمن.

ـ خلاص يا أمل روَّحي، ما فيش فايدة.

ـ ليه بس كفى الله الشر؟

ـ قوليلي الأول، الواد عمر فين؟

مصمصتْ بشفتيْها ثم نظرتْ نحوي وأردفتْ:

ـ سلامة الشوف يا اخويا، ما الواد واقف قدامك أهو.

ـ سلميلي عليه يا أمل.

ـ قلقتني يا عرفان مالك فيك إيه؟ وإيه الخشب المكسر اللي حواليك ده؟

ـ كنت جاي مأمورية عشان أصلح موتور مركب بتاع واحد من الكُبارات أوي، كانت حتنقلنا نقلة تانية ما نحلمش بيها، بس تقولي إيه بقى في البخت.

صمتَ لحظاتٍ ثم نظرَ بأسًى وأتبعَ:

ـ «نوة المكنسة» دخلت علينا واحنا في عرض البحر، قشقشت كل حاجة في سكتها، وحصل اللي حصل... إدعيلي يا أمل.

صعدتْ من الماء ستة رؤوس أخرى بين نساءٍ وأطفالٍ، رجالٍ وشيوخٍ، بلا ملامحَ، أو شعرٍ، مجردُ رؤوسٍ صماءُ كأنها صُنعتْ من فخارٍ ترابيِّ اللونِ، ثم استحالتْ الرؤوسُ إلى سبعِ دواماتٍ سوداءَ تدورُ حولَ نفسِها، ظهرَ في رأسِ الأولى عينانِ حمراوانِ، زائغتانِ، بدتْ كأنها تبحثُ عن فريسةٍ، وفي لمحِ البصرِ اقتربتْ مني والتهمتْني داخلها.

تنقلتُ بين الدواماتِ السبعِ، كانت كلٌّ منها تُفضي إلى الأُخرى، كأنها غرفٌ في منزلٍ متحركٍ، تخيلتُ أنني قادرٌ على الطيرانِ؛

لكنَّ السقوطَ كان حتميًّا، وصار همي الأولُ في كلِّ واحدةٍ أن أجدَ ما أتعلقُ به لإنقاذي.

داخلَ الدوامةِ الأُولى كنتُ أسبحُ في فضاءٍ أبيضِ اللونِ، وجواري يسبحُ عددٌ كبيرٌ من بواريكِ الرأسِ متنوعةِ الألوانِ والأشكالِ، منها الذهبيُّ، والأسودُ، والكستنائيُّ، والبنيُّ، والأحمرُ، ومنها الناعمُ والمجعَّدُ، الطويلُ والقصيرُ، المصففُ والأشعثُ، لمحتُ من بعيدٍ حرفًا أبجديًّا أسودَ اللونِ، ضخمًا، يرتدي مظلةً ويهبطُ بسلام، كان حرفَ «الميم»، اقتربتُ منه بصعوبةٍ ناويًا الإمساكَ به، لأهبطَ معه؛ لكنني بمجردِ ملامستِه تلاشى ووجدتُ نفسي في الدوامةِ الثانية.

كانت تلك الدوامةُ سوداءَ، يسبحُ فيها عددٌ لا نهائي من الأظافرِ الصناعيةِ، حادةِ الأطرافِ، بيضاءِ اللونِ، وتتخللُها خطوطٌ حمراءُ رفيعةٌ. كان الحرفُ الآمنُ في هذه الدوامةِ حرفَ «الواو» يتبخترُ هابطًا، خشيتُ الاقترابَ منه حتى لا يتلاشى، فآثرتُ اختبارَه أولًا. قذفتُه بأحدِ الأظافرِ، فارتدَّ إليَّ، حينَها اقتربتُ منه وأمسكتُ به وبالمظلةِ، فاطمأننتُ، ونظرتُ للأظافرِ نظرةَ ظفرٍ، وشماتةٍ؛ لكنها في لحظاتٍ تجمعتْ، وتأهبتْ لمهاجمةِ المظلةِ، تحركتْ في وقتٍ واحدٍ بسرعةٍ عاليةٍ وثقبتْ رأسَ المظلةِ، فهويتُ لأجدَ نفسي في الدوامةِ الثالثة.

هناك لم تكنْ ألوانٌ ولا بواريك، كان المكانُ شفافًا بلا ملامحَ، أو هواءٍ، كأنه فضاءٌ، طِرتُ فيه كحمامةٍ، وكان يطيرُ حولي عددٌ

كبيرٌ من أربطةِ الأحذيةِ، يتنفسُ، بينما كدتُ أختنقُ، لمحتُ الحرفَ الآمنَ كان «الراء» يرتدي على رأسِه غطاءً بيضاويًّا شفافَ اللونِ، بدا لي أنه ممتلئٌ بالهواءِ، هممتُ بالذهابِ إليه؛ لكنَّ كلَّ أربطةِ الأحذيةِ تحوَّلتْ لحروفِ راءٍ، تآمروا عليَّ لتضليلي، وبينما كنتُ أبحثُ عن الحرفِ الأصلي هبَّتْ رياحٌ عاتيةٌ، قذفتْ بي إلى الدوامةِ الرابعة.

* * *

آه! أشعرُ بدوارٍ، لا أتذكرُ ما رأيتُ في باقي الدواماتِ، ربما كان الحرفُ الآمنُ في الدوامةِ الرابعةِ «فاء»، بالفعلِ، وكانتْ عقاربُ ساعاتٍ تسبحُ فيها.

ـ ثم ماذا حدثَ بعد ذلك؟

ـ لا أتذكر.

ـ وكيف ولجتَ الدوامةَ الخامسة؟

ـ لا أعرفُ؛ لكنني أتذكرُ أن الحرفَ الخامسَ كان «ياءً»، أو هكذا أعتقدُ، وكانت تسبحُ حولي أوراقُ شجرٍ ذابلة.

ـ والحرفُ الآمنُ التالي، أهو السادسُ أم الأخيرُ؟

ـ هه، من؟

ـ لا عليك، كنتُ أسألُك عن الحرفِ التالي؟

ـ نعم يبدو لي أنه كان حرفَ الـ«واو»، وتسبحُ قصاصاتُ ورقٍ في الدوامة.

ـ وماذا عن الدوامةِ الأخيرة؟

ـ ألم تنتهِ الدواماتُ بعدُ.

ـ لا، بل بقيتْ واحدةٌ.

ـ لا أتذكرُ، ربما كان حرفُ الـ«سين»، ويطيرُ فيها حمامٌ أبيض اللون، يبيضُ بيضًا أحمرَ اللون.

ـ ثم ماذا؟

ثم سقطتُ من ارتفاعٍ شاهقٍ، وحينما لامستُ الأرضَ، استيقظتُ.

٢١

استيقظتُ من نومي شاعرًا بانقباضٍ، ظهري مُلقًى على السريرِ، وعيناي تحدِّقان في سقفِ الغرفة. حركتُ ذراعي بمشقةٍ، فزعتُ لمرأى الرسالةِ التي كنتُ أحتضنُها في أثناءِ نومي، ألقيتُها كأنها جمرةُ نارٍ. استقرَّتْ تحتَ الطاولةِ المجاورةِ للسريرِ، صارتْ تحدِّقُ فيَّ بتحدٍّ، بل رأيتُها تُخرجُ لسانَها، وتبتسمُ ساخرةً، سببتُها «يا بنت الكلب»، انتفضتُ من السريرِ، التقطتُها، كانت باردةً، بل مبتلةً: «لعلَ ماءُ البحرِ طالَها... ليتَه أغرقَها... لا اتركْها لي... سأُنهي حياتَها بيدي» كوَّمتُها، ونظرتُ لها بتشفٍّ، ثم ألقيتُها بكلِّ قوةٍ من النافذة.

نفدَت أموالي، ولم أجدْ بُدًّا من البحثِ عن عملٍ، طلبتُ من صاحبِ الشقةِ أن يساعدَني، فتوسَّطَ لي عند حلواني كبيرٍ في «بحري»، صرتُ مساعدَ شيفٍ، أغسلُ الصواني، وأجهزُ المكوناتِ التي يستخدُمها الشيفُ لصناعةِ الحلوى، وأنظفُ المكانَ، وأشتري بعضَ الطلباتِ. ارتحتُ لطبيعةِ عملي؛ لأنه يُبعدُني عن العيونِ، ومع ذلك كنتُ أشعرُ بأن الوقتَ يمضي

بطيئًا، لم يكن يخففُ عني ضيقي إلا عمالُ المطبخ، كانوا بسطاءَ، بشوشي الوجهِ، عطوفين، أحببتُهم جميعًا، الشابَّ منهم والشيخَ. في بعضِ الأوقاتِ كنتُ أفقدَ السيطرةَ على أعصابي فترتعشُ يداي، ويتصلبُ جسدي وأهذي بكلامٍ لا أتذكرُه ولا يفهمُه رفقائي الجددُ. وكانوا يُهدئونَ من روعي ويسألونني عمَّا بي، لم أكنْ أستطيعُ الرد.

تقرَّبَ إليَّ شابٌّ يُدعى «فؤاد»، وهو طالبٌ بكليةِ الآدابِ قسمِ اللغةِ العربيةِ، وعملَ معي بدوامٍ جزئي، كان يتردَّدُ عليَّ في البيتِ كي أساعدَه في المذاكرة. وجدتُ في صحبتِه ملاذًا من الوحدةِ، وكنتُ كثيرًا ما أترجاهُ أن يبيتَ معي؛ لكنه ظلَّ يتعذَّرُ برفضِ والدِه. كان يكتبُ الشعرَ، ويُلقيه عليَّ، ويطولُ بنا النقاشُ، ويتفرعُ بنا الحديثُ من الشعرِ للنثرِ، ومنهما للمسرحِ، والروايةِ، كان متذوقًا للأدبِ، محبًّا للجمالِ، صِرنا نتبادلُ الكتبَ، ونقرأُ أحيانًا معًا.

في المحلِّ، كان يحلو لي أن أعملَ جوارَه، أغسلُ الصواني، بينما هو يصنعُ شرباتِ الكنافةِ أو يضربُ العجينَ، أو يحشو رقائقِ الجلاش. في صحبتِه كان الوقتُ يمرُّ سريعًا، وكنتُ أتأفَّفُ حينما يناديني الحاجُّ «سلطان» صاحبُ المحلِّ لقضاءِ حاجةٍ من حوائجِه، فقد اعتدتُ في تلك الفترةِ أن أبتاعَ له الجرائدَ والمجلاتِ، وكان يستعينُ بي أحيانًا في قراءتِها، بسببِ ضعفِ بصرِه.

وذاتَ يوم، بينما كنتُ أناولُه الجريدةَ، سقطَتْ منها ورقةُ دعايةٍ، التقطتُها، ولفتَ انتباهي صورةٌ لفنارِ الإسكندريةِ، تتوسطُها، وحينما قرأتُ ما حولَ الصورةِ، ارتعشتْ يدي، وتلفتُّ حولي، كأن أحدًا يراقبُني، ارتابَ الحاجُّ في أمري: «الورقة دي فيها إيه يا آض؟».

طويتُها في جيبي، وعدوتُ حتى البيتِ، قرأتُها سبعَ مراتٍ، وفي كلِّ مرةٍ لا أصدقُ أنها نفسها دعوةُ الانتحارِ الجماعي التي كتبتُها «تُرى مَن وجدَ رسالتي؟ وكيف تحمَّسَ للفكرة؟ وكم عددُ من انضموا إليه؟ وماذا أفعلُ كي أتابعَهم، أو أنضمَّ إليهم؟».

أعدتُ قراءةَ الرسالةِ جيدًا، كانت بالضبطِ كما كتبتُها، دونَ زيادةٍ أو نقصانٍ، لمحتُ في نهايةِ الورقةِ رابطًا إلكترونيًّا لـ«جروب» على موقعٍ يُسمى «الفيسبوك»، ولم أكنْ أعلمُ عنه شيئًا، وسألتُ صديقي «فؤاد»، فشرحَ لي كيف يعملُ هذا الموقعُ الجديد.

سارعتُ بعد انتهاءِ موعدِ عملي إلى أقربِ «سايبر»، ولجتُ الموقعَ، وبحثتُ عن «الجروب»، وقدَّمتُ طلبَ انضمامٍ، فظهرتْ لي رسالةٌ أنه ينبغي عليَّ انتظارُ موافقةِ أحدِ المسؤولين لأتمكَّن من متابعتِه، انتظرتُ ساعتين، ولم يوافقِ المسؤول.

عدتُ إلى البيتِ «هل أُعلنُ على «الجروب» أنني صاحبُ الفكرةِ والرسالةِ؟ هل سأشاركُهم؟ أم ينبغي عليَّ إيقافُ هذه المهزلةِ؟ هل من جدوى لها؟». واستبدَّ بي قلقٌ عظيمٌ، ولم أستطعْ

النومَ، وفي اليومِ التالي تغيبتُ عن العملِ، وقضيتُ اليومَ بأكملِه في «السايبر»، قرأتُ كلَّ التعليقاتِ والأفكارِ، وجدت عددًا هائلًا متحمسًا للفكرةِ، من كلِّ المحافظاتِ تقريبًا، وقد تمَّ اختيارِ المكانِ المناسبِ للانتحارِ الجماعي في كلِّ محافظةٍ، وتمَّ تحديدُ الموعدِ، خفقَ قلبي، وشعرتُ بأنني قاتلٌ، وأن جريمتي ليست في حقِّ شخصٍ أو اثنينِ، بل مئاتٍ على أقلِّ تقدير.

فارقني النومُ أيامًا، وساءتْ حالتي الصحيةُ. فكرتُ في أن أتناقشَ مع أعضاءِ «الجروب» عن خطورةِ ما هم مقدمونَ عليه؛ لكن قوتي وعزيمتي خانتاني. وبدلًا من ذلك كنتُ أجلسُ في «السايبر» معظمَ ساعاتِ اليومِ أراقبُهم وأقرأُ تعليقاتِهم ومناقشاتِهم. أصبحتُ أسيرُ في الشوارعِ أُحدِّثُ نفسي، ولا أتجاوبُ مع المارةِ، وحينما يلقاني «فؤاد» عرضًا، يسألُني عن حالي في قلقٍ بالغٍ، ويعرضُ عليَّ المساعدةَ؛ لكنني لم أكنْ أردُّ عليه، أو ربما كنتُ أردُّ، لا أذكر. أفرطتُ في تدخين السجائرِ التي تعلمتُها مؤخرًا، وشرب الشاي والقهوةِ، وكدتُ أنقطعُ عن الطعام.

ذاتَ يومٍ زارني «فؤاد»، كان يحملُ كتبَ الجامعةِ، ظننتُه أتى للمذاكرةِ كعادتِه، لم أكنْ في مزاجٍ يسمحُ لي بفعلِ أيِّ شيءٍ، أخبرتُه برغبتي في الاختلاءِ بنفسي؛ لكنه ألحَّ في الدخولِ، وأقسمَ ـ وفي عينيه نظرةُ انكسارٍ ـ أنه لن يزعجَني. أشفقتُ عليه، وسررتُ حينما لمحتُ ابتسامةَ الامتنانِ في عينيْه، جلسَ

في الصالةِ، بدا لي مضطربًا، زائغَ العينين، لم أسألْه عن حالِه، ولا عن سببِ الزيارةِ، تركتُه ودخلتُ غرفتي. ارتميتُ على السريرِ غارقًا في الأفكارِ، وبعدَ فترةٍ سمعتُ صوتَه ينادي من الصالةِ: «أعملك شاي معايا؟».

أمسكتُ كوبَ الشاي بكلتا يدَي، في محاولةٍ لتدفئةِ نفسي، كانَ يثرثرُ، ولم أعِ ما يقول. يبدو أنه كان يتحدثُ عن مادةٍ من موادِّ الكليةِ، فقد تناولَ كتابًا من على الطاولةِ ليستشهدَ به فيما كان يقولُه، هززتُ رأسي كأنني أوافقُ على كلامِه، كان يصمتُ من حينٍ إلى آخرَ كأنه ينتظرُ ردي، وفي نهايةِ المطافِ، تركَ الكتبَ وصمتَ.

رانَ الصمتُ دقائقَ، لم يُسمعْ شيءٌ سوى صفيرِ رياحٍ ينايرَ. كان يخفي شيئًا، وكنتُ أُخفي أشياءَ، لمحتُ رسالتي، كانت ملقاةً على إحدى فوتيلات الصالةِ، راقبتُه بعينَي، لم يكنْ ينتبهُ إليها، هممتُ بالوقوفِ، ناويًا إخفاءها عنه حتى لا يُفتضحَ سري، اتجهتُ نحوَها في اللحظةِ التي تنبَّه فيها، رفعَ رأسَه متطلعًا: «إيه ده... هو أنت معانا في الحوار ده؟!».

خفقَ قلبي، وتسارعتْ خطواتي، صوتُ قطراتِ مطرٍ تدقُّ بخفةٍ على زجاجِ النوافذ. تجاهلتُ كلامَه، والتقطتُ الرسالةَ، طويتُها ودخلتُ غرفتي، ثم أغلقتُ بابَها، ما أروعَ الوحدةَ! زفرتُ بعمقٍ، «معانا!... يا للمصيبة!».

«كيف؟ ومتى؟... ذنبُه في عنقي»، فتحتُ النافذةَ، ظهرَ الظلانِ، حاولا تفسيرَ الأمرِ، ثم تشاجرا من جديدٍ، أحدُهما ألقى الذنبَ عليَّ: «قاتل»، والآخرُ ألقاهُ على «فؤاد»: «لم يُجبره أحد»، انشغلتُ بشجارِهما، وكنتُ أتخللُ الشجارَ بكلمةٍ أو كلمتين، لهذا أو ذاكَ؛ لكن أحدًا لم يكنْ يجيبُني، أو حتى يلتفتُ إليَّ. انتظرتُ حتى أعرفَ نتائجَ شجارِهما؛ لكن أحدًا لم ينتصرْ. رانَ الصمتُ لحظاتٍ، ثم سمعتُ صوتَ حركاتٍ بالخارجِ، خلفَ بابِ الغرفةِ مباشرةً، توجهتُ ناحيتَه، انحنيتُ لمراقبةِ الصالةِ، وحينما نظرتُ من ثقبِ مفتاحِ البابِ، رأيتُ عينَي «فؤاد» تحدِّقان بي.

تراجعتُ خطوتين، وبحركةٍ مباغتةٍ فتحتُ البابَ، كان «فؤاد» على بعدِ خطوتينِ، يتجهُ نحوَ الصالةِ، وظهرُه لي، توقفَ وارتعشتْ أطرافُه حينما سمعَ صوتَ صريرِ البابِ، استدارَ ببطءٍ، واجهَني، ثم رفعَ كتفيْه، وتحسَّسَ ذراعيْه براحتيْه متبعًا بصوتٍ مرتعشٍ: «الجو ساقعة أوي في شقتك»، تطلَّعَ برأسِه خلفي، وزفرَ زفرةً قصيرةً ثم أتبعَ: «إيه ده.. انت فاتح شباك أوضتك؟!»، لم يمهلْني فرصةً للردِّ، اتجهَ نحوي، وتخطاني قاصدًا النافذة.

في طريقِه كان يتفحصُ الغرفةَ بعينيْه في فضولٍ كثيرٍ، وصلَ إلى النافذةِ، وقبلَ أن يغلقَها، حدَّق طويلًا في ظلِّ جذعَيْ الشجرِ الواقعينِ على الحائطِ المواجهِ للنافذةِ، ثم تفرَّسَ في ملامحي، كأنه يبحثُ عن شيءٍ مفقودٍ. مرتْ لحظاتٌ قبلَ أن يكسرَ حاجزَ

الصمتِ قائلًا بودٍّ: «أيوه كده.. خلينا نتدفا شويه»، ثم أتبعَ وهو مقبلٌ عليَّ: «ما تيجي نقعد سوا بره شويه».

في أثناءِ انتقالِنا للصالةِ بحثَ «فؤاد» بعينيْه عن الرسالةِ: «مش حتلاقيها... ريَّحْ نفسك»، ثم جلسَ وأمسكَ كتابًا، وجعل يقلِّبُ في أوراقِه، وينظر إليَّ بطرف عينه، وبحركة مباغتة أخرجَ منه نسخةً أُخرى من الرسالة.

حدَّقتُ فيها غيرَ مصدِّقٍ، وتحاشيْتُ النظرَ في عينيْه، أو على الرسالةِ، كنتُ مطرقًا أودُّ أن تنشقَ الأرضُ وتبلعُني، أو أن تحترقَ الرسالةُ، ولا مانعَ من أن يحترقَ «فؤاد» معها، فكرتُ أن أتعذَّرَ بالتعبِ وأُبدي رغبتي في الإخلاد إلى النوم؛ لكنَّ لساني كان مكبَّلًا، وكان لديهِ رغبةٌ كبيرةٌ في الحديثِ والثرثرةِ، فباغتَني وهو ينظرُ نحوَ الرسالة:

ـ مش كنت تقولي يا عم، على الأقل كنت جيت معايا الاجتماعات، أهو كنا نسلي بعض.

«تسلية... ودي ينفع تتسمى تسلية برضو»، لم أردَّ، وظلَّ عنقي منحنيًا، وعيناي تحدِّقانِ في الأرضِ، فلم يجدْ بُدًّا من استكمالِ حديثِه.

ـ انت عِليت في نظري أوي لما عرفت إنك مشترك معانا، إنسان أصيل بحق وبيحب بلده.

«اصمتْ»

ـ إسكندرية دي مدينة عظيمة... وآثارها أعظم... الفنار مثلًا له قيمةٌ تاريخيةٌ كبيرةٌ... انت طبعًا أستاذنا وسيد العارفين.

«عارف كل حاجة... أكتر مما تتخيل».

ـ أيْ إسكندراني لازم يكون فخور بترميم الفنار... ده عمل قومي ما يقلش عن بناء السد العالي.

طالَ بي الصمتُ، كان موقفي حرجًا، وينبغي عليَّ الردُّ، لمحتُ شنطةً صغيرةً جوارَه، التمعتْ عيناي ببريقِ الأملِ، ثم هززتُ رأسي كأنني أوافقُ على آرائِه، ثم سألتُه محاولًا تغييرَ دفةِ الحوار:

ـ إيه الشنطة دي؟

زفرَ طويلًا، ثم ألقى الرسالةَ على المنضدةِ، امتنتُ له، وسكنتْ جوارحي، فكَّرتُ في أن ألتقطَ الرسالةَ، وأطويها جوارَ أختِها، أو ـ ربما ـ أحرقَهما معًا. قال كلامًا؛ لكنني كنتُ منشغلًا مع الرسالةِ، والأجسادِ التي ستقفزُ بعدَ أيامٍ من الفنارِ، وحينما ثبتُ إلى نفسي سألته:

ـ هه... كنت بتقول إيه.

أطرقَ خجلًا ثمَّ كررَ ما قالَه:

ـ اتخانقت مع أبويا وكنت عاوز أستسمحك في البيات عندك كام يوم.

«يا خبر!... أحسن يكون أبوه شاف الرسالة... هتوديني في داهية، الله يخرب بيتك».

ـ واتخانقتوا ليه؟

ـ ع الفلوس كالعادة.

«بلاش لوع... انت كده هتقلقني أكتر».

ـ وانت ناوي على إيه؟

ـ مش عارف.. هقعد عندك شوية لغاية ما الحال ينصلح.

لم يمهلْني فرصةً للرد، ابتسمَ قائلًا:

ـ هاه... هنام فين؟

٢٢

كان «فؤاد» ينامُ ملءَ جفنيْه، بينما النومُ يجافي عينَي، فتأثرتْ حواسي، واستجابتي. في بعضِ الأوقاتِ لم أسمعْ شيئًا من حولي، ولم أرَ ما يقابلُني، وإذا اصطدمتُ بأحدِ المارةِ لا أشعرُ باحتكاكِنا، بل أمضي في طريقي سائرًا لا أعلمُ لي وجهة.

حانت اللحظةُ الحاسمةُ، كان اليومُ الذي حدَّدَه المسؤولونَ عن «الجروب» هو الخامسَ والعشرين من شهرِ يناير عامَ ٢٠١١، في تمامِ الساعةِ السابعةِ صباحًا.

استيقظتُ عند الفجرِ، نويتُ الذهابَ مبكرًا؛ لإنقاذِ ما يمكنُ إنقاذُه، كنتُ أُجرجِرُ قدمَيَّ، كأنني مشلولٌ، استبدتْ بي رعشةٌ شديدةٌ، وصلتُ إلى الموقعِ المحددِ، وقررتُ أن أقفَ في المكانِ الذي يمرُّ منه كلُّ مَن رغبَ في الوصولِ إلى الفنارِ، وفي الوقتِ نفسِه تظهرُ من خلالِه قمةُ الفنارِ حتى أرى كلَّ شيءٍ بوضوح.

بدأَ الشبابُ يتوافدون، كان أغلبُهم يرتدي تيشيرتًا أسود، مطبوعًا عليه صورةُ الفنارِ باللونِ الأبيض وتحتَه جملةُ: «عُقبى لكم»،

أو هكذا بدَتْ لي. عزمتُ على التحدُّثِ إليهم؛ لكنني فكرتُ في أنه من الأفضلِ أن أتحدثَ مع المسؤولين عن «الجروبِ»، فهم وحدهم القادرون على التأثيرِ في الباقين؛ لكنني تحيرتُ متسائلًا: من أين لي العلمُ بالمسؤولين؟ وشعرتُ بأن الوقتَ يسرقُني، وينبغي عليَّ الفعلُ سريعًا، فصرتُ أحدِّس بشكل المسؤولين. أوقفتُ أحدَهم كان ضخمًا، وهممْتُ بالحديثِ معه؛ لكنَّ شفتَي كانتا تتحركان دونَ أن يخرجَ الصوتُ. حدَّقَ الشابُّ في وجهي بريبةٍ، ثم مضى. انشغلتُ بصوتي المفقودِ، وتذكرتُ أنني لم أتحدثْ إلى أحدٍ منذُ عدةِ أيامٍ، ولا حتى «فؤاد»، وأقنعتُ نفسي بهذا السببِ، وأنه ينبغي عليَّ التدريبُ حتى يعودَ صوتي إليَّ: «كم من الوقت يكفي لعودته؟».

ثُبتُ إلى نفسي على صوتِ شجارٍ وصراخٍ أعلى الفنارِ، تذكرتُ ما جئتُ من أجلِه، وتأكدتُ أن الوقتَ قد فاتَني، وأن المصيبةَ المنتظرةَ تحدثُ، ولا أحدَ قادرٌ على إيقافِها، حدَّقتُ في سطحِ الفنارِ، بدت لي أشباحُ بشرٍ يتشاجرون، فكرتُ في أنه من الممكنِ أن يكونوا قد انقسموا إلى فرقتين في أثناءِ التنفيذِ، إحدى الفرقِ تراجعتْ، والثانيةُ ما زالتْ على موقفِها، وأن الشجارَ دبَّ بينهما؛ لأن كلًّا منهما تحاولُ إقناعَ الأخرى برأيها، وحمدتُ اللهَ في نفسي أن إحدى الفرقتين قد أفاقَت في اللحظاتِ الأخيرةِ، وتضرَّعتُ إلى اللهِ كي تنجحَ الفرقة المتراجعة في مسعاها.

لاحظتُ بعضَ السقالاتِ التي تحيطُ بالفنارِ، كانت ذاتَ مستوياتٍ متباينةٍ، من أعلى إلى أسفل: «هل هي فكرةٌ جديدةٌ؟ أن ينتحروا على مستوياتٍ؟ مَن اقترحَها؟ وكيف يوزعون الشبابَ عليها؟ أبالقرعةِ؟... لا خوفَ على مرتادي السقالاتِ السفليةِ، إنهم آمنون؛ لكنَّ مرتادي السقالاتِ العلويةِ، وسطحِ الفنارِ في خطر... يجبُ أن يظهرَ منقذٌ... الآن... ألمْ أنوِ أن أكونَ منقذَهم؟!... لكنَّ صوتي مفقود».

ثبتُّ إلى نفسي حينما لمحتُ «فؤاد» قادمًا من بعيدٍ، تواريتُ خلفَ أحدِ الأسوارِ، وراقبتُه من بعيدٍ: «هيا، تحرك، هذه فرصتك... لكن كيف؟ إن صوتي ما زال مفقودًا... لا يهمُّ، أشِرْ إليه بيدِك، وسيفهَمُ، إنه ذكيٌّ... لكن ماذا أقولُ، ثم ماذا يحملُ في يديه؟ ما كل تلك المعداتِ، سكاكين معجونٍ، وشواكيش، ومفكاتٌ... هل سينتحرون قفزًا، أم أنهم سيقتلُ بعضُهم بعضًا بآلاتٍ حادةٍ... أغبياءُ ليست هذه هي الطريقةَ المُثلى لانتحارٍ جماعيٍّ كهذا، ينبغي ألَّا تكونَ موتةً دمويةً، بل شاعريةً: شبابٌ يسقطون من قمةِ الفنارِ إلى قاعِ البحرِ. يا له من (مانشيت) صحفي! تُرى من سيكونُ له السَّبقُ؟».

حدَّقتُ مجددًا في الفنارِ، كان السطحُ مكتظًا بالشبابِ، والسقالاتُ تكادُ تكونُ ممتلئةً، «متى يقفزون؟».

لمحتُ نجومًا وسيوفًا على أكتافِ البعضِ. بدا لي أن الشرطةَ قد تتبعتِ «الجروب» وتسللتْ إلى الفنارِ قبلَ الموعدِ المحدَّدِ لإنقاذِ الموقفِ، ابتسمتُ، وفكرتُ بأن اللهَ قد أنقذني من مشاعرِ ذنبٍ كانت ستقتلُني، ومشاهدَ لم تكنْ لتغيبَ عن ناظرَيَّ ما حييتُ؛ لكنْ لماذا يتشاجرون؟ هل الشبابُ يقاومون؟ هل ممكنٌ أن ينتصروا على الشرطة؟ وحاولتُ تقصِّي الأمرَ من بعيدٍ، وسمعتُ صرخاتٍ عاليةً، وكنتُ كلما سمعتُ صراخًا نظرتُ إلى المسافةِ بين سطحِ الفنارِ وسطحِ البحرِ، فلم أجدْ شيئًا، وكلما طالَ وقتُ الشجارِ ازدادَ خوفي.

بعدَ لحظاتٍ وجدتُ أجسادًا تهبطُ من سلالمِ الفنارِ وفي يديْها الأصفادُ، ارتحتُ وتنهدتُ، وكدتُ أعودُ من حيثُ أتيتُ؛ لكن بينما كنتُ أديرُ ظهري للفنارِ لمحتُ جسدًا يتهاوى من سطحِه نحوَ البحرِ، وصرخةُ احتضارٍ ترجُّ المكانَ، لم أصدقْ نفسي، اقتربتُ قليلًا، وحاولتُ التثبُّتَ؛ لكنَّ الجسدَ كان قد استقرَّ في مكانِه، وغابَ عن عينَي، أدرتُ بصري ناحيةَ رجالِ الشرطةِ الذين هبطوا، فوجدتُهم يهرولونَ عائدينَ مرةً أُخرى إلى السطحِ. وعمَّتِ الفوضى المكانَ. لم يستطعْ أفرادُ الشرطةِ السيطرةَ على الوضعِ بأكملِه، وانتابَ الشبابَ عِنادٌ غريبٌ، واستطاعَ بعضُهم الإفلاتَ من قبضةِ رجالِ الشرطةِ والقفزَ في أحضانِ الأمواجِ، وآخرون يصرخونَ على أصدقائِهم ويحاولون الإفلاتَ

من الأصفادِ؛ لكنهم لم ينجحوا، فازدادَ صراخُهم، ولم أستطعْ التمييزَ بين صراخِ الناجين والمنتحرين. ثم رأيتُ مشهدًا لن أنساه ما دمتُ حيًّا، حاولَ شابٌّ ضخمُ الجثةِ عظيمُ البنيانِ الإفلاتَ من الأصفادِ، لكنَّ الشرطيَّ ضئيلَ الحجمِ أحكمَ إغلاقَ إحدى حلقاتِها على يدِ الشابِّ، ووضعَ الحلقةَ الأُخرى في يدِه، فارتبطَ مصيرُهما، فما كان من الشابِّ إلا أن رفعَ الشرطيَّ الذي التصقَ به بالأصفادِ، وقفزَ به إلى قاعِ البحر.

استدرتُ، وهربتُ ركضًا إلى البيت.

مكتبة ياسمين

٢٣

تركتُ المنزلَ في الظهيرةِ، سِرتُ في الشوارعِ غائبًا عن الوعي، وصورُ الشبابِ الساقطِ من أعلى الفنارِ تتوالى على عقلي. كنتُ قد بدأتُ أحدث نفسي بأن ما رأيته اليوم في الفنار لم يكن إلا خيالات بسبب ارهاقي، وأن ما سقط من أعلى الفنار لم يكن إلا طوب وحجارة، وربما خشب مما يُصنع منه السقالات. اقتربتُ من مسجدِ «القائد إبراهيم»، كانت الشمسُ تقتربُ من المغيبِ، لاحظتُ من بعيدٍ تجمعاتٍ كبيرةً، حدَّقتُ طويلًا، بدا لي أنها محاولةُ انتحارٍ جماعيةٌ أُخرى، من فوقِ المئذنةِ، تلك المرة.

كان مشهدًا قريبًا مما حدثَ في الصباحِ؛ لكنه على الأرضِ، عساكرُ وضباطٌ يتشاجرُون مع شبابٍ، ونساءٍ، وشيوخٍ: «أكلَّ هؤلاء حاولوا الانتحارَ؟». اقتربتُ بعضَ الشيءِ، الدخانُ يعلو من علبٍ أسطوانيةٍ صغيرةٍ، الضبابُ صارَ يملأُ المكانَ، وصوتُ القاذفاتِ والطلقاتِ يعلو من حولي، وعساكرُ فوقَ أسطحِ المباني المجاورةِ للمسجد، يحملون قناصاتٍ، وعرباتُ شرطةٍ تحترقُ،

وأجسادٌ ملقاةٌ على الأرضِ، لا يستطيعُ الناظرُ إليهم أن يميِّزَ بين الحي والميت.

أُلقي في روعي أن حربًا ما قد نشبتْ بيننا وبينَ بلدٍ آخرَ، وتذكرتُ أنني قرأتُ منذُ فترةٍ عن صراعٍ سياسيٍّ بين مصرَ وإثيوبيا اعتراضًا على سدٍّ تُشيدُه الأخيرةُ على نهرِ النيلِ يُسمى «النهضة»، وأن تشييدَه سيؤثرُ على كميةِ المياهِ التي تصلُ إلى مصر، وخُيِّلَ إليَّ أنني قرأتُ كلمةَ إثيوبيا على لافتةِ قماشٍ ملقاةٍ على الأرضِ تدهسُها الأقدامُ، فتيقنتُ، ودبَّ في جسدي نشاطٌ غريبٌ عليَّ. تفكرتُ قليلًا: «هذه فرصتي... لقد منحَها اللهُ لي برغمِ ذنبي الكبير»، لأُشاركْ إذن في الحربِ، إمَّا أن أموتَ فأصيرُ شهيدًا، طاهرًا، بلا خطايا، وإمَّا أن أساهمَ في انتصارِ بلدي فأمحو ذنوبي بمآثرَ حربية.

عدتُ إلى البيتِ عَدْوًا، صعدتُ درجاتِ السلمِ، لملمتُ ملابسي وكلَّ ما حسبتُ أنه سيفيدُني في الحربِ، وهبطتُ مهرولًا، قابلتُ في الطريقِ «فؤاد»، كانت ملابسُه مغبَّرةً، ورائحةُ إسمنتٍ تفوحُ منه: «حمدًا لله... لقد نجا»، قلتُ له بانفعالٍ: «إلحق يا فؤاد: الحرب قامت، تعال معايا أنا رايح الجبهة في سيناء». صمتُّ لحظاتٍ، كأنني أريدُ التأكُّدَ أن ما خرجَ للتوِّ كان صوتي، أمسكتُ حنجرتي، وفركتُها بين إبهامي وسبابتي، ثم أخرجتُ صوتًا عشوائيًّا، فابتسمتُ فرحًا وقلتُ في نفسي: إن عودةَ الصوتِ إلى حنجرتي فجأةً كما غابَ فجأةً دليلٌ على رضا

الله عني، وإثباتٌ بأنَّ وجهتي صحيحةٌ، وأن هذه بدايةُ عهدٍ جديدٍ للتكفيرِ عن خطيئتي الكُبرى.

هدَّأَ صديقي من انفعالي، وسألني عن أيِّ حربٍ أتكلمُ؟ فشرحتُ له ما رأيتُ عندَ المسجدِ، ابتسمَ بتعالٍ، ثم أتبعَ بكلامٍ غيرِ مفهومٍ، عن شجاراتٍ بين الشعبِ والشرطة، ثم تلعثمَ وأتبعَ: «أقصدُ الشبابَ والشرطة». نظرتُ إليه بشكٍّ، وارتبتُ في نواياه: «هل يُحاولُ خداعي لغرضٍ في نفسِه؟». هممْتُ بالمغادرةِ بينما أصيحُ به: «إيه الهرتلة دي... كلامك مش مفهوم... أنا رايح الجبهة... هتيجي معايا أهلًا وسهلًا... مش عايز يبقى ما تعطلنيش».

أمسكَ ذراعي «استنى بس، استهدى بالله»، تلفتَ حولَه كالباحثِ عمَّن يغيثُه، ثم أتبعَ متأففًا: «خلاص خلاص جاي معاك الحرب يا سيدي» ثم تمتمَ «إياكش نخلص».

أخبرني أن له صديقًا يملكُ سيارة تاكسي، وسيرحبُ بالذهابِ معنا إلى الجبهةِ به. نظرتُ له بامتنانٍ؛ فقد وفَّر عليَّ ثمنَ المواصلاتِ، ولهذا قررتُ أن أصرفَ بعضًا مما أملكُ في مستلزماتٍ ظننتُ أنني سأحتاج إليها في الحرب.

كنتُ قد أوجستُ أن الحربَ بدأتْ فجأةً، فلم تُتحْ للحكومةِ الفرصةُ لإعلانِ التعبئةِ العامةِ، وتوفيرِ الطعامِ والأسلحةِ للمجندين، فقلتُ في نفسي: على الأقل سأحضرُ معي الطعامَ، وربما فأسًا لنحفرَ به الخنادقَ. توقفَ التاكسي أمامَ محلِّ بيضٍ

كنتُ قد اعتدتُ الشراءَ منه، واشتريتُ مجموعةً من كراتينِ البيضِ، معتقدًا أنه منتجٌ مأمونٌ يمكنُ تخزينُه في أجواءِ الحربِ، وأن طهوَه سهلٌ؛ مجردُ «راكية» نارٍ من الخشبِ وعليها إناءٌ وبعضُ الماءِ، واشتريتُ فأسًا كبيرةً، وسِرنا في طريقِنا إلى الجبهة.

نمتُ داخلَ التاكسي، فلم أكنْ قد نعستُ منذُ فترةٍ لا أستطيعُ الجزمَ بطولِها، واستيقظتُ لأجدَ نفسي على شاطئٍ من شواطئِ البحرِ الأحمرِ: «يااااه... ده أنا شكلي نمت يوم كامل».

تلفتُّ حولي، لاحَ لي من بعيدٍ مسجدٌ يشبهُ مسجدَ «القائدِ إبراهيم»، حدَّقتُ فيه طويلًا، حتى اقتربَ مني «فؤاد» وسألني: «في حاجة؟»، فرددتُ عليه ولم تزلْ عيناي مثبتتين عليه: «هو مش ده شبه جامع القائد إبراهيم والا انا بيتهيألي؟»، ارتبكَ، ووقفَ أمامي حائلًا بيني وبينَ الجامعِ، ثم نظرَ لصديقِه السائقِ نظرةً بدَتْ لي تحذيريةً، ثم أردفَ متلعثمًا: «بيتهيألك طبعًا... انت عارف احنا بعاد عن اسكندرية أد إيه؟!»، ثم ربَّتَ على كتفي وأتبع: «يلا بينا يا بطل... عاوزين نحفر الخندق قبل الدنيا ما تليِّل».

شمَّرتُ عن ساعدَيَّ، ونظرتُ حولي فوجدتُ كراتينَ البيضِ التي اشتريتُها، كان الجوُّ صافيًا، والهدوءُ يلفُّ المكانَ، حثثتُ «فؤاد» على أنْ يساعدَني على حفرِ الخندقِ، وقلتُ له إننا يجبُ علينا أن ننتهزَ هذا الهدوءَ قبلَ أن تستعِرَ المعركةُ من جديدٍ؛

لكنه تعذَّرَ بأنه يجبُ أن يُعطي الضباطَ الذين قابلَهم في الطريقِ إحداثياتِ المكانِ الذي استقررْنا على حفرِ الخندقِ فيه كإجراءٍ إداري، وأخبرني بأنه من الآن سيتولَّى مهمةَ التواصلِ بين خندقِنا وبين القادةِ؛ لذلك فسيتحتَّمُ عليه أن يتركَ موقعَه معي كثيرًا.

انهمكتُ في الحفرِ حتى الليلِ، أدخلتُ كلَّ ما أحضرتُ معي في الخندقِ، ووضعتُ على فوهتِه قطعةَ خشبٍ من بقايا مركبٍ قديمٍ وجدتُها على الشاطئ، مكتوب عليها ترابها زعفران، لتحمينا من غاراتِ الأعداءِ، ونظرتُ حولي لأجدَ المكانَ محاطًا من ناحيةِ الشاطئِ بصخورٍ أشبهَ بتلك الموجودةِ على كورنيش الإسكندرية، فاطمأننتُ وقلتُ لنفسي: إنه يصعبُ على القنابلِ تفتيتُ هذهِ الصخورِ بسهولةٍ، فشكرتُ صديقي في نفسي على حُسنِ اختيارِه الموقع.

سألتُه عن ملابسِه وحقيبتِه، فقالَ لي إنها مع أحدِ أصدقائِه في خندقٍ آخرَ، وسيذهبُ لإحضارِها ثم يعود. طلبتُ منه ألَّا ينسى تسجيلَ اسميْنا في مقرِّ القيادةِ الحربيةِ، وأن يسألَ عن موعدِ استلامِ الأسلحةِ. ذهبَ ثم عادَ بعدَ فترةٍ بدتْ لي طويلةً، ولمَّا سألتُه عمَّا فعلَ، أخبرني بأن القيادةَ أخبرتْه بأن أسلحةَ المتطوعين ستتأخر. لمحتُ في وجهِه تعبيراتٌ تدلُّ على الإحباطِ واليأسِ؛ لكنني شددْتُ من أزرِه، شعرتُ بأنني قائدُه الحربي، وأن من واجبي رفعَ رُوحِه المعنوية، أخبرتُه بألَّا يحزنَ، وأنَّ هذا متوقعٌ؛ لأنهم

لم يعلنوا التعبئةَ العامةَ بسببِ مفاجأةِ الحربِ، وأخبرتُه بأنني أعلمُ مدى حماسِه ورغبتِه في خَوضِ المعركةِ اليومَ قبلَ الغدِ، هزَّ رأسَه موافقًا، ودبَّ الحماسُ في حركاتِه، أو هكذا بدا لي.

في اليومِ التالي أحضرَ معَه مجموعةً من الأصدقاءِ وأخبرني بأنهم متطوعون مثلُنا، في انتظارِ الأسلحةِ، فرحَّبتُ بهم وعرضتُ عليهم أن يبيتوا معي، أو على أقلِّ تقديرٍ يترددوا عليَّ كلَّ يومٍ ليشدَّ بعضُنا من أزرِ بعضٍ حتى تأتيَ الأسلحة، بالفعلِ كانوا يترددونَ عليَّ كلَّ يومٍ، وكنا نتسامرُ، ولما طالَ بنا الوقتُ اقترحتُ عليهم أن نستغلَّ الفراغَ في كتابةِ سيرٍ ذاتيةٍ لأنفسِنا، وإنْ نالَ أحدُنا الشهادةَ فليحملْ الآخرون أمانةَ نشرِ قصتِه، راقتْ لهم الفكرةُ وطلبتُ منهم أن يحضروا لي معهم في المرةِ القادمةِ أقلامًا وأوراقًا، ومن حينِها وأنا أكتبُ سيرتي.

كنتُ أستثمرُ الأوقاتَ التي أجلسُ فيها وحيدًا في كتابةِ سيرتي، والأوقاتَ التي يزورُني فيها الأصدقاءُ في السمرِ والحديثِ عن أخبارِ الحربِ التي يأتون بها إليَّ من الخارجِ، وكنتُ من حينٍ لآخرَ أسمعُ دويَّ مدافعَ خارجَ الخندقِ فينتفضُ قلبي ويعلوني الذعرُ، وأكفُّ عن الكتابةِ قائلًا لنفسي: لو أنني أملكُ سلاحًا لكنتُ خرجتُ وقتلتُ (دستة) من الأعداء؛ لكنني لم أملكْ من أمري سوى الانتظارِ والكتابةِ، ومسامرةِ الأصدقاء. وكنتُ في أوقاتٍ أُخرى أتعجبُ من سماعِ أحاديثَ خارجَ الكهفِ باللكنةِ

الإسكندرانيةِ؛ لكني فسرتُ الأمرَ على أنَّ هذه المنطقةَ من الجبهةِ مخصصةٌ للمتطوعينَ الإسكندرانية. ونظمتُ مواعيدَ الأكلِ وكميتَه حتى يكفيني البيضُ لأطولِ فترةٍ ممكنةٍ، كنتُ آكلُ ثلاثَ بيضاتٍ في كلِّ وجبةٍ، وبعدَ كلِّ وجبةٍ أحسِبُ ما تبقَّى من البيضِ وإلى متى سيكفيني.

* * *

أجلسُ وحدي في الخندقِ منذُ بضعةِ أيامٍ، لقد غادرَني «فؤاد» لمأموريةٍ سريةٍ كلفتْه بها القيادةُ، أو هكذا أخبرني. قال إن غيابَه قد يطولُ لثلاثةِ أو أربعةِ أيامٍ: «يبدو أنهم مروا؛ لكنه لم يأتِ، إذن فلم يمروا بعد... لا أعلمُ شيئًا عن باقي الأصدقاء... الوحدةُ قاتلةٌ... بل إن جنتي في عُزلتي... أنا والقلمُ، والورقُ، وأربعةُ حوائطَ، وعددٌ غيرُ محددٍ من البيضِ الفاسدِ، بل السليم... أتنفسُ... أبتسمُ... أكتبُ... وأحلمُ... ثم أنام».

فليتأخروا ما شاءوا من الوقتِ، تأرجحتُ بين الأُنسِ بالعزلةِ وبين الرغبةِ في الصعودِ لتقصِّي الأمرَ: «لقد ألفتُ هذا المخبأَ، أو قُل الكهفَ كما سمَّاه «فؤاد» غيرَ مرةٍ مداعبًا... لقدْ صارَ جزءًا مني... لكنْ لا بأسَ من دقائقَ معدودةٍ أُلقي فيها نظرةً أخيرةً على العالمِ... أو ربما تكونُ نظرةً أُولى... لن يضرَّني شيءٌ... لكنْ ألَا ينبغي عليَّ الإخلاصُ لعُزلتي؟ إنها ما بقي لي، والخيانةُ ليست من شِيمي».

«الرائحةُ عفنةٌ، أتكونُ رائحةَ البيضِ، بل رائحةُ الهواءِ، تُرى أيفسدُ الهواءُ؟! سأنتظرُ «صلاح»، أقصدُ «فؤاد»؛ فقد وعدني بأن يأتي ببيضٍ جديدٍ طازجٍ».

استيقظتُ صباحَ اليومَ على صوتِ طائرٍ يرفرفُ خارجَ الخندقِ، رفعتُ الغطاءَ فرأيتُ حمامةً بيضاءَ تقفُ على حافتِه، وتتناثرُ حولَها أشلاءٌ لعلمِ مصر، صِحتُ بلهفةٍ: «حلم»! نظرتُ إليها متفائلًا، ابتسمتُ لها وخاطبتُها: «وحشاني يا حلم؟»، ثم اقتربتُ منها ووقفتُ تحتَها، أطالتْ النظرَ لوجهي، وخُيِّلَ إليَّ أن دمعتين سقطتا من عينيْها على فمي، تذوقتُهما، كانتا باردتينِ، ومُسكرتينِ، تلذذتُ بهما، ورغبتُ في المزيدِ: «ابكي يا حلم».

عدتُ إلى طاولتي، بعد دقائقَ طارتْ «حلم» داخلَ الخندقِ واستقرتْ على الطاولةِ التي أكتبُ عليها. سررتُ لأنها لم تخشَني، مسحتُ على رأسِها براحةِ يدي فأغمضَتْ عينيْها. كنتُ قد انتهيتُ من طهوِ البيضِ، تركتُ «حلمي» على الطاولةِ وذهبتُ لتناولِ وجبةِ الفطور. دعوتُها لتأكلَ معي؛ لكنها خفضَتْ رأسَها في حياءٍ، وحينما هممْتُ لإطعامِها وجدتُها تلوِّحُ برقبتِها يمينًا ويسارًا، بحركاتٍ سريعةٍ متتابعةٍ، حاولتُ تفسيرَ مقصدِها دونَ جدوى. التهمتُ البيضات الثلاثَ دفعةً واحدةً، كأنها آخرُ زادي، بدا لي أن طعمَها مختلفٌ عمَّا كنتُ أتذوقُه في الأيامِ السابقةِ؛ لكنني لم أكترثْ، وجلستُ جوارَ «حلم» أُلاطفُها، وأتحدثُ إليها.

قلتُ لها إنها لم تتغيرْ، منذُ أن رأيتُها في ثمانينياتِ القرنِ الماضي، كأنها لا تتقدمُ في العمر. قصصتُ عليها القصةَ التي حكاها لها العَلمُ آنذاك، حينما خرجَ من الصندوقِ أولَ مرةٍ «أما زلتِ تتذكرين يا حلم؟». ابتسمتْ لي، فشعرتُ بأنها تفهمُني.

قفزتْ من الطاولةِ إلى كتفي، ورقدتْ عليه كعشٍّ، صرتُ أتوقفُ عن الكتابةِ بين الفترةِ والأخرى، وأنظرُ إليها، إنها مطمئنةٌ، تغمضُ عينيْها نائمةً، همستُ في أذنِها: «استيقظي يا حلم».

أشعرُ بألمٍ في بطني، يزدادُ في كلِّ لحظةٍ، لا أرغبُ في التأوُّهِ حتى لا يفطنَ لي أحدٌ: «أين أنت يا فؤاد؟... نادي عليه يا حلم»، ماذا يحدثُ؟! يدي ترتعشُ، أكادُ أعجزُ عن مسكِ القلمِ، سأقاومُ؛ لكن لا فائدةَ، الألمُ يقوى، وسيطرتي على القلمِ تضعفُ، سأتركُه، لأرتاحَ قليلًا، سأخلدُ للنومِ، محتضنًا «حلم»، وحينما أستيقظُ سأعاودُ الكتابة، فانتظروني.

«تعالي يا حلم»

telegram @yasmeenbook

«عمل أدبي رفيع بلغة ثرية وسرد سلس قادر على تحويل التفاصيل اليومية إلى صور رمزية معبّرة... ظل رمز «البيضة» حاضرًا كاستعارة عن الهشاشة والخوف، يجمع بين الحميمية والعمق الفلسفي... تحلى العمل بصدق سردي بعيد عن الافتعال، مع حس ساخر رقيق ورؤية جمالية متماسكة».

من حيثيات الفوز بجائزة خيري شلبي

في مجتمعٍ لا يعترف إلا بالأصوات العالية، وتُقاس فيه الهيبة بمدى الصلابة، يجد «عمر» نفسه في العراء، يواجه العالم بقلبٍ مكشوف وشخصية مفرطة الحساسية، كأنه نبتة رقيقة تحاول النمو وسط الصخور.

تبدأ حكايته من خيبات أمل صغيرة تركت ندوباً لا تُرى؛ من «الممحاة السحرية» التي وعدته بمحو الأخطاء فمزقت ورقته، إلى أبٍ يداري هزائمه بالضجيج، تاركاً ابنه وحيداً في مواجهة أسئلة الرجولة والخوف. وأمام قسوة الواقع، لا يجد مهربًا سوى الانسحاب إلى داخل ذاته، محولاً غرفته إلى عالمٍ موازٍ يشاركه فيه «كتكوت» غامض، يجسد كل المخاوف التي يخشى البوح بها.

يأخذنا «أحمد رشاد مكيوي» بأسلوبٍ سردي عذب، في رحلة عبر الزمن النفسي لطفلٍ كبر قبل الأوان، مشرِّحاً تلك المسافة الهائلة بين ما نتمناه وبين ما يفرضه علينا الواقع.

أحمد رشاد مكيوي؛ كاتب مصري، من مواليد الإسكندرية، درس علم الاجتماع بكلية الآداب، وتخرج عام ٢٠٠٣، نُشرت له بعض المقالات والنصوص الأدبية في عدة جرائد، ومنصات إلكترونية. حصلت روايته «في قبري ثلاث بيضات» على جائزة خيري شلبي للعمل الروائي الأول.

دار الشروق
www.shorouk.com

مكتبة ياسمين